

في العصور الملكية الجمهورية الأمبراطورية
حتى عهد الأمبراطور قسطنطين

تأليف

هشام الصفدي

مدرس تاريخ الشرق القديم في كلية الآداب
جامعة دمشق

دار الفكر الحديث . لبنان

١٣٨٦ - ١٩٦٧


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

المقدمة

يقول أحد المؤرخين المعاصرين : « إن الشعب الذي يكوّن فكرة صحيحة عن ماضي بلاده ، يمكنه بدوره أن يصيغ صورة مستقبلها » .

انطلاقاً من هذه الفكرة وشعوراً منا بمسؤولياتنا العلمية والقومية تجاه العدد المتزايد من شبابنا الناشئين الذين أقبلوا على دراسة علم التاريخ ، وبضغط من الحاجة الملحة لسد الثغرة القائمة في المكتبة العربية في حقل التاريخ القديم عامة وتاريخ الشرق القديم خاصة ، أقدمنا على تأليف هذا الكتاب الموجز الذي يتناول تاريخ الرومان منذ بدايات تكون الدولة الرومانية حتى انحلالها وتغير عاصمتها . هذا المؤلف يشكل الجزء الاول في سلسلة لكتب التاريخ القديم ستعقبه الأجزاء التالية عن : تاريخ اليونان – والشرق العربي في العهود الهلنستية والرومانية – والتوسع الفينيقي العربي في حوض البحر الأبيض المتوسط .

إذا كان لنا أن نهتم بالتاريخ الروماني ودراسة أحداثه الحافلة التي تغطي حقبة طويلة من الزمن تنوف على ثمانية قرون ، فذلك يرجع إلى الصلة الوثيقة التي تربط تاريخ روما بمنطقة الشرق العربي من جهة وإلى المغزى الذي تنطوي عليه صور التاريخ الروماني الطافحة بأغنى التجارب العميقة الأثر في السياسة والاجتماع والحضارة . فعلى صعيد شبه الجزيرة الايطالية قامت مجتمعات فلاحين ومزارعين أدى اصطدامهم بالشعوب المجاورة – التي تشاركهم نفس المجال الأرضي والجزر المجاورة –

من إغريق وقرطاجيين وأتروسك وغاليين ... الخ ، ومحاولتهم شق طريقهم في الحياة وسط هذا الخضم الطامع بموقع ايتاليا الممتاز وبثروانها ، أدت هذه العوامل متضافرة إلى نشوء مؤسسة عسكرية صارمـــة كانت العماد الأول في تثبيت أركان المجتمـع الناشيء الذي تميز بطبقـة ارستقراطيـة - قوية رغم قلتها - هيمنت على أجهزة الدولة بقلبها للنظام الملكي السابق إلى نظام جمهوري وسيطرت على مجلس الشيوخ عقـــل الدولة المخطط ، وسخرته لتحقيق مآربها عن طريق الجنـدية التي ابتلعت جموع الفلاحـين والفقراء من شعب ايتاليا وحلفائها ، وكانت بالتالي أداتها التنفيذية استخدمتها دون هوادة في كل صراعاتها مع أخصامها ، فبطشت وطغت حتى فرضت سياسة روما لا في ايتاليا فقط ولكن في حوض البحر الابيض المتوسط قاطبة . وبذلك تم لروما إحلال ما يسمى « بالسلام الروماني » في الشرق . ومن البديهي أن روما قد استفادت كثيراً من توسعهـا الاستعماري فهي لم تنهب كنوز البلاد التي احتلتهـا وثرواتها الطبيعيـــة فحسب بل دانت لاحتكاكها بمواقع الحضارات القديمة في بلاد اليونان والشرق بالكثير من مقوماتها الحضارية عن طريق ما اقتبسته منهـا من تراث عريق في مضمار التنظيمات الاجتماعية والعسكرية والسياسية والثقافية .

رغماً عن هذا الدين الكبير لم تتورع روما أن تدمر عواصم الحضارات الآنفة الذكر بكل وحشية وأنانية . وما تهديم مدينة أثينا العظيمة على يد الطاغية سللا ونهب كنوزها والفتك بأهلها إلا صورة مصغرة لما لقيته مدينة قرطاجه الفينيقية قبلها من دمار وفناء في ختام الحروب البونية وما ستلقاه مملكة تدمر المزدهرة على يد الامبراطور اورليان فيما بعد .

لقد اصطدمت روما بالشرق العربي في عهديها الجمهوري والامبراطوري عدة مرات ووقفت في وجهه تحاول اخضاعه بكل ضراوة ، فكانت عاملاً

حاسماً في وقف نموه وإطراد ازدهاره قروناً عديدة ، وبالتالي إلى تحويل مساره التاريخي نوعا ما . فقد كانت له الضربة الاولى في شخص رواده الأوائل في غربي البحر المتوسط واقتلعت جذور مستعمراتهم التجارية في ايتاليا وصقيليه واسبانيا وهاجمتهم في عاصمتهم في شمـــال افريقيا فهدمت أسوار قرطاجة ودمرت بيوتهـا على أهليها وقتلتهم وباعت من بقي منهم في أسواق العبيد ، ثم التفتت بجشعها نحو المشرق مؤمنة بما عبرت عنه على لسان قائدها القنصل مانيليوس فولسو في أول محاولة لغزو العـــالم الهلنستي في آسيا الصغرى وسورية : « بأن على روما أن تتخذ لنفسها سياسة امبراطورية واسعة ، لأن عليها واجب تأمين السلام في البر والبحر ومراقبة كل البلاد الشرقية » .

في الحقيقة كان مفهوم روما « للسلام الروماني » في الشرق مرادفاً لاستعمار المنطقة أو « رومنتها » وجعل البحر المتوسط « بحيرة رومانية » ، وهذا نفس ما رددته الفاشية الايتالية من بعد . وقـد دفع الشرق ثمن « السلم الروماني » غالياً عندما اضطر وهو العريق والمتفوق بالحضارة أن يتنازل عن حرياته ويقبل ترحيل سكانه وتقسيم مناطقه ومدنه إلى أجزاء وولايات تقضي سياسة روما الرئيسية بابقائها متنازعة متحاسدة ضعيفة القوى حتى تكون الحكَمَ الفاصل بينها وبالتالي فرض حمايتها وجمع الضرائب منها .

سدد الرومان ضرباتهم التاليـة للوجود العربي في الشرق في عهـــد الامبراطور تراجان الذي قضى على سيادة مملكة الانباط العربية وجعـل بلادها ولاية تابعة لروما ، ولو أن النجـاح كان حليف القائد الرومـاني ايليوس غالوس في حملتـه على شبه الجزيرة العربية لـكان لتاريخ العرب شأن آخر ولربما ما قامت للوجود العربي قائمـة بعدهـا . ولا ننسى أن فشل الحملة وهلاك الكثير من أفرادها كان الفضل فيه بالدرجة الاولى لدليل الحملة سيلاوس النبطي ولطبيعة شبه الجزيرة العربية وشعبها .

وعندما تحاول مملكة تدمر العربية أن تطالب بحقها في الحرية والسيادة وتعلن استقلالها عن روما تسلط هذه عليها جيوشها وتقضي بالدمار على مؤسساتها وتجارتها المزدهرة وتسوق مليكتها أسيرة ذليلة مكبلة بالأغلال في مواكب الظفر لتكون عبرة لكل من يحاول طرح نير الاستعمار الروماني .

لقد قاومت الامبراطورية الرومانية المد العربي طويلًا ورغم أنها حطمت براعم نوياته المتفتحة في سورية والاردن وفرقت بين أبنائه وضربتهم ببعضهم نجدها لا تستطيع الصمود وما يلبث السد الذي أقامته في المنطقة أن ينهار أمام الموجة العربية الخامسة التي تتوجت برسالة الإسلام السمحة . ويسفر الصباح عن انحسار الاستعمار الروماني وتراجعه إلى قواعده الاولى يتبعه المد العربي بإتجاه طرفي حوض البحر المتوسط وتكون مواقع اليرموك وقنسرين وبابليون ثأراً لمواقع زاما وتدمر .

أما العناصر الإيجابية التي يمكن استخلاصها من التاريخ الرومانى فهو التفاعل الحضاري الواسع الذي قام بين الشعوب المحكومة وحكامها الاقل حضارة . فالامبراطورية الرومانية كانت تتمة لحلم الاسكندر المكدوني في دمج الشرق والغرب في مملكة واحدة وتقريب الفروق والتقاليد بين أبنائها . وإذا ما نظرنا إلى مخلفات الحكم الروماني في الشرق العربي وجدنا أوابد عمرانية ضخمة بنيت على أنماط الهندسة الاغريقية ــ الرومانية وقنوات وسدود وحصون وطرق قامت في المنطقة بفضل جهود أبنائها الذين أعطوا لروما مثلما أخذوا منها وأضافوا إلى ما تلقوه بدورهم الكثير من تراثهم السابق . وفي الحقيقة يخطيء كل من يعتقد أن المد العربي قام على أساس حضاري ضيق اقتصر على شبه الجزيرة العربية الوثنية . وكما يقول أستاذنا المؤرخ فرانز التهايم في مقدمة مؤلفه الجامع عن تاريخ

« العرب في العالم القـــديم » : « إن القاعدة الحضارية العربية قامت وعبرت عن نفسها منذ العصر الهلنستي ، واتخذت أوضح صورها في شكل عبادة التوحيد التي تتوجت في عبـادة إله الشمس وفي نصيب العرب في تعاليم مذاهب الافلاطونية الحديثة واليعاقبة . ويزداد نصيب مساهمتها بشدة في العهد الامبراطوري الروماني . وفي الحقيقة لم يتابع المـــد العربي الاسلامي بناء منجزاته في سورية وفلسطين ومصر على « قاعدة هلنستية – لاتينية » حسبما يدعي البعض ، بل إن جذور القاعدة الحضارية العربية العريقة قامت في المنطقة منذ الالف الأول قبل الإسلام ونسجت خيوطها بالاحتكاك الوثيق مع القاعدة الهلنستية – الرومانية » .

من هذا البيان الموضوعي يتضح لنا مدى مساهمة الرومـان الحضارية في الشرق العربي والتي لا تزيد كثيراً عما قدمه أبناء المنطقه أنفسهم من منجزات تجد أبهى صور لها في منشآت تدمر العظيمـة . وإن كان لنـا من هدف في الجزء الثالث من هذه السلسلة فهو وضع النقاط على الحروف بالنسبة « للمعجزة العربية » ورفع الغشاوة عمّن بهرت أبصارهم أمجاد العسكرية الرومانية الاستعمارية .

أخيراً نلتفت إلى روما نفسها لنتلمس فيها الخطوط الايجابيـة بالنسبة للتراث الانساني فنرى في احتضانها للحضارة الاغريقية واعتمادهـا أساساً في البناء الجديد عنصراً ايجابياً جديراً بالتسجيل ، وفي محـــاولات الاخوان غراكوس ومن تلاهم من الشعبيين إيجـاد نوع من العدالة الاجتماعيـة بين الحكام والمحكومين ، بين الاغنياء والمحرومين ، في المجتمع الروماني نفسه بداية لأفكار العدالة الاجتماعية التي فجرتها ثورات الشعبيين ومـــذابح الرقيق ، كما نرى في القوانين والتشريعات الحقوقية والاجتماعية والاصلاحات الزراعة التي شملت الامبراطورية قبساً من نور يطغى على ظلام الاستعمار

والحكم الديكتاتوري في روما . هـذا المشعل سينطلق إلى أوربا الشمالية فاتحاً ومضيئاً الطريق لشعوب بدائية لم تكن قد سمعت بعـد بحمورابي ولا بسقراط ولا عرفت أمجاد بابل ولا أثينـا ويكون الفضل كل الفضل للرومان في دورهم كوسطاء في نقل التراث الحضاري وتعاليم الديانة المسيحية من الشرق إلى الغرب .

لقد اتبعنا في معالجة التاريخ الروماني طابع الإيجاز في سرد الحوادث معتمدين أحدث ما توصل اليـه البحث العلمي من نتائج مصادراً لنا ، وأعطينا الاهمية لإبراز الخطوط الاساسية التي ستبدو للقارىء خلال رحلته الطويلة عبر فصول التاريخ الروماني أشبه بعلامات الطريق تهديه وتجنبه التوه في خضم من أسماء المدن والاعلام والمعارك التي يحفل بها هذا التاريخ .

أما وقد تأمن الآن لطالب التاريخ الاساس الذي يعتمد عليـه في في دراسته فان الاستـاذ المحاضر يستطيـع الانطلاق بهـدوء إلى الأجواء العلمية العليا في محاضراته مناقشاً ومحللاً طبيعة الاحداث ومفنداً الأسباب التي تكمن وراءها والنتائج التي تمخضت عنها . أما من يشاء التوسـع والاستزادة من التفاصيل فانه يجد في المصادر الوفيرة التي اختتمنا بها كل فصل من فصول الكتاب خير معين .

ختاماً أود في هذا المجال أن أتوجه إلى زملائي وأصدقائي وفي مقدمتهم رئيس قسم التاريخ في جامعة دمشق الاستاذ الدكتور نور الدين حاطوم ، بالشكر الوفير على تأييدهم وتشجيعهم لمهمتي . آملاً أن يقـدر لي التفرغ العلمي لانجاز ما تبقى ولتنقيح ما قد يرد من نقد أو تقويم في طبعات مقبلة .

والله ولي التوفيق .

دمشق في ١٩٦٧/١/٢٧ — **المؤلف**

موجز لأبرز أحداث التاريخ الروماني

قبل الميلاد

حوالي ٧٠٠٠ العصر النيوليتيكي

حوالي ٢٠٠٠ بداية عصر البرونز ـ نشوء القرى البالافيتية

حوالى ١٥٠٠ نشوء قرى تراماراً

حوالي ١٠٠٠ بداية عصر الحديد

١٢٠٠ بداية الهجرة الايلليرية .

بعد ١٠٠٠ المجموعة اللاتينية ـ الفاليسكية تهاجر مع الفنتين إلى منطقة سهل البو الشرقية نتيجة ضغط الايلليريين . فتتجه الكتلة الرئيسية متابعة سيرها نحو ايتاليا الوسطى . حيث تتوضع شمالي وجنوبي نهر التيبر . أما المجموعة الأوسكية ـ الأومبرية من الايتاليين فانها تأتي من الجهة الشرقية لمنطقة الادرياتيكي عبر البحر إلى شاطىء ايتاليا الشرقي مختلطة جزئياً مع الايلليريين . أما في منطقة جبال الأبنين الوسطى فتتوضع قبائل السامنيتين ، وفي شرقي نهر التيبر الأوسط يتوضع الاومبريون . ويكون مركز ثقل التوضع الايلليري في أقصى القسم الجنوبي الشرقي . وفي الشمال الشرقي ينضم اليهم الشعب الفنيتي (الغير ايلليري) في المنطقة الواقعة بين مصب نهر البو وشبه الجزيرة الايستريشية .

٨١٤ ق.م تأسيس مدينة قرطاجة .

القرن الثامن يأتي التيرينيون Tyrrhener من آسيا الصغرى ومن المنطقة الايجية ويدخلون نتيجة الهجرات اليونانية الباكرة الى المنطقة الواقعة شمالي نهر التيبر الأسفل ، وينشئون مع العناصر الأومبرية والليغورية واللاتينية والايلليرية في المنطقة التي ستعرف فيما بعد باسم توسكانا الشعب المعروف باسم الشعب الاتروسكي .

وعلى أرض روما يلتقي أعضاء المجموعتين الايتاليتين وهم اللاتينيون والسابيون .

القرن الثامن بداية الاستعمار الاغريقي في صقيليه وجنوب ايتاليا .

قبل ٦٠٠ يتحد اللاتينيون والسابيون على أرض روما مشكلين جماعة موحدة .

القرن السادس توسع الاتروسكيين في سهل البو باتجاه كامبانيا (وتأسيس كابوا وحلف المدن الكامبانية) ونحو منطقة اللاتيوم . وتدخل روما تحت حكم البيت المالك الاتروسكي التاركيني (Tarquinier) .

٥٠٨–٥٠٧ انهيار الملكية . حكم الأسر النبيلة ومركزها في مجلس الشيوخ .

أول معاهدة تعقد مع قرطاجة .

القرن الخامس تفقد روما في النصف الأول من القرن الخامس الزعامة لمدة عابرة على الحلف اللاتيني . معارك مع الاتروسكيين ومع قبائل الآكين Aquer والفولسكيين Volskear الجبلية المتوغلة نحو اللاتيوم .

٤٩٤ أول مسيرة للعوام نحو الجبل المقدس .

٤٩٣ اختلاف العوام مع الأسر النبيلة ، التي تتحد نتيجة لضغط منظمة العوام — الأزمة الاقتصادية .

٤٥١–٤٩٩ وضع قانون اللوائح الاثني عشرية . منظمة العوام تنال اعتراف الدولة بها .

٤٤٥ ادخال نظام القنصلية ذات الوظائف المتعددة ، التي تأخذ الآن بمزاحمة القنصلية .

سيادة الاتروسكيين في كامبانيا — توغل السامنيتين في كابوا وفي سهل فولتورنوس .

منذ ٤٠٠ قبائل كلتيه قادمة من جنوب ألمانيا وأواسط فرنسا تصل الى سهل البو وتضع نهاية للسيادة الاتروسكية هناك .

٣٩٦ روما تحتل مدينة Veji الاتروسكية الجنوبية .

٣٨٧ الغاليون المتوغلين في شمال اتروريا يهزمون الرومانيين عند Allia ويهدمون مدينة روما . انهيار مركز الزعامة الرومانية في منطقة اللاتيوم .

٣٦٧–٣٦٦ اصدار القانونين السكستي — الليسيني .

٣٦١ حروب ضد الغاليين — الحفاظ على الممتلكات الراهنة على الحدود الاتروسكية .

٣٥٨ تجديد التحالف مع اللاتينيين .

٣٥٤ معاهدة مع السامنتيين .

٣٤٩ المعاهدة الثانية مع قرطاجة ، وبالتالي معارك مع الفولسكيين والسامنتيين واللاتينيين .

٣٣٨ احتلال انيتوم الفولسكية . حل الحلف اللاتيني . دخول كابوا والمدن اللاتينية بشكل متفرق في علاقة قانونية مع روما ، تؤمن لهم حق المواطنة بشكل تدريجي .

٣٢٧–٢٩٠ الحرب السامنتية الثانية (٣٢٧ – ٣٠٤) والحرب السامنتية الثالثة (٢٩٨ – ٢٩٠) .

٣٢١ هزيمة كاوديوم . فقد واعادة استرجاع مدينة كابوا .

٣٠٩–٣٠٨ توغل الرومانيين في شمال اتروريا .

٣٠٠ العوام يحصلون على حق الدخول في وظائف السلك الكهني (Lex Ogulnia) .

٢٩٥ انتصار الرومان على اتحاد الاتروسكيين والغاليين والسامنيتيين قرب سنتينوم في أومبريا .

٢٩١ تأسيس مستعمرة فنوزيا . عقد الصلح ، الذي يترك للسامنيتيين استقلالهم الداخلي .

٢٩٠ طرد الغاليين من شمال بيسينوم .

٢٨٧ (قانون هورتنسيا) (Lex Hortensia) : قرارات العوام الذين ينتخبون حسب القبائل تصبح ملزمة لكل الدولة .

٢٨٢–٢٧٢ الحرب التارنتية .

٢٧٥ هزيمة بيرهوس عند بنفنت .

٢٧٢ بعد موت بيرهوس تعلن جميع المدن اليونانية في ايتاليا خضوعها مع الثائرين اللوكانيين والسامنتيين الى روما .

٢٦٤–٢٤١ الحرب البونية الأولى .

٢٤١ نصر بحري روماني قرب جزر Agatlsch . انحسار الممتلكات القرطاجية في جزيرة صقيلية التي تصبح باستثناء سيراكوزه مقاطعة رومانية .

٢٣٨ عصيان الجنود المأجورين في قرطاجه ، انحياز سردينيا وكورسيكا الى روما .

٢٣٧–٢٢٩ هاميلكار باركاس يربح لقرطاجه ممتلكات جديدة في اسبانيا . في سنة ٢٢١ يصبح ابنه هانيبال قائد الجيوش القرطاجية في اسبانيا .

٢٢٦ معاهدة إبرو مع روما تضع النهر حداً شمالياً للممتلكات القرطاجية .

٢٢٥–٢٢٤ حملات ضد الكلتيين في ايتاليا الشمالية وتأسيس مستعمرات رومانية في سهل البو .

٢٢٩و٢١٩ حملات عسكرية رومانية ضد الايلليريين .

٢١٩ هانيبال يحتل Sagunt حليفة روما . روما تعلن الحرب .

٢١٨–٢٠١ الحرب البونية الثانية .

هانيبال يجتاز جبال الالب وينتصر في تيسينوس .

٢١٧–٢١٦ هانيبال ينتصر قرب Cannae .

٢١٥ تحالف هانيبال مع فيليب الخامس المكدوني .

٢١١–٢٠٩ استعادة روما لتارنت وسيراكوزه وكابوا .

٢١٠–٢٠٦ كورنيليوس سيبيو يظفر بالممتلكات القرطاجية في اسبانيا .

٢٠٥ نهاية الحرب مع فيليب الخامس كورنيليوس سيبيو يتوجه نحو شمال أفريقيا .

٢٠٢ سيبيو ينتصر على هانيبال في معركة زاما Zama .

٢٠١ قرطاجة تفقد كل ممتلكاتها الواقعة خارج أفريقيا . الحروب الرومانية في اسبانيا واحتلال شمال ايتاليا .

٢٠٠–١٩٧ الحرب المكدونية الثانية ضد الملك فيليب الخامس المكدوني .

١٩٧–١٩٦ الظفر عند Kynos Kephalai . مؤتمر كورنث كوينستيوس فلامينينوس يعلن حرية كل اليونانيين .

١٩٢—١٨٨	الحرب مع الملك انطيوخوس الثالث . الظفر عند ترموبيلي وعند ماجنزيا عام (١٨٨) .
١٧١—١٦٨	الحرب المكدونية الثالثة ضد الملك Perseus المكدوني ، الظفر في المعركة قرب بيدنا Pydna . نهاية الملكية المكدونية .
١٦٧	الملك انطيوخوس الرابع ابيفانس يجبر على التخلي عن حملته في مصر .
١٤٩—١٤٦	الحرب البونية الثالثة . تهديم قرطاجه على يد كورنيليوس سيبيو أميليانوس (سيبيو الابن) واحتلالها . تأسيس مقاطعة أفريقيا الرومانية .
١٤٨	مكدونيا تصبح مقاطعة رومانية .
١٣٦—١٣٢	حرب الرقيق الاولى في صقيلية .
١٣٣—١٢١	الثورة الغراكية .
١٣٣	المحامي الشعبي غراكوس يتقدم بطلب لتحديد حقوق الخواص على أراضي الدولة بـ ٢٥٠ هكتاراً .
١٢٩	اعلان تحويل المملكة البرغامنية السابقة الى المقاطعة الاسيوية .
١٢٣ — ١٢١	الاصلاحات في عهد غراكوس . تجديد قانون غراكوس الزراعي .
١١٣	هزيمة الرومان قرب Noreia .
١٠٥	هزيمة جيشين رومانيين على نهر الرون على يد الكمبريين والتوتونيين .
١٠٤—١٠٠	قنصلية ماريوس الثانية حتى السادسة .
١٠٢—١٠١	ظفر ماريوس على التوتون وعلى الكمبريين . حرب الرقيق الثانية في صقيلية .
٩١ — ٨٨	تمرد أعضاء الاتحاد الايتاليين ، الذين امتنعت روما عن منحهم حقوق المواطنة . وضع روما العسكري الصعب بسبب

خلع حقوق المواطنة على جميع اعضاء الاتحاد الذين ظلّوا موالين لروما بموجب قانون جوليا . وتوسيع ذلك بموجب قانون بابيريا .

٨٨ — ٨٤ الحرب الميترادية الاولى ضد الملك ميترادت السادس ملك بلاد البونت .

اندلاع الحرب الاهلية بين ماريوس وسللا . سللا يحتل روما ويتسلم قيادة الحرب ضد ميترادت .

٨٨ — ٨٧ عودة ماريوس الى روما وحكم الشعبيين بالقوة .

٨٨ سللا يحتل أثينا ويهزم قائد جيوش ميترادت .

٨٤ صلح الدردانوس . ميترادت يتنازل عن كل فتوحه ويدفع غرامة حربية .

٨٣ — ٨٢ الحرب الميترادية الثانية . سللا يعود نحو ايتاليا . الانتصار على الماريانيين والسامنيتيين واحتلال روما .

٨٢ — ٧٩ ديكتاتورية سللا . اصدار قانون سللا لاعادة سلطة مجلس الشيوخ .

٧٩ - ٧٨ تنازل سللا عن الحكم الديكتاتوري وموته .

٧٤ — ٦٤ الحرب الميترادية الثالثة .

٧٣ — ٧١ ثورة الرقيق برئاسة سبارتاكوس .

٧٠ بومبي وكراسوس ينتخبان قنصلين .

٦٧ — ٦٦ بومبي يعطى مهمة عسكرية فوق العادة للقضاء على قراصنة البحر (القانون الغابيني) ثم يكلف بعد اخضاعهم بقيادة الحملة ضد ميترادت وتيغران (القانون المانيلي) .

٦٤	هزيمة ميثرادت » اخضاع تيغران . بلاد البونت وسورية تسمى مقاطعة رومانية .
٦٣ – ٦٢	قنصلية سيسرو – المؤامرة الكاتيلينية .
٦١	الحكم الثلاثي الاول بين بومبي وكراسوس وقيصر .
٥٩	قنصلية قيصر . قانون الاراضي لتوطين البروليتاريا والجنود lex julia agraria . قيصر يصبح نائب قنصل في شمال ايتاليا وايلليريا لمدة خمس سنوات lex vatinia وكذلك في مقاطعة ناربونه في غاليا .
٥٨	قيصر يسير نحو غاليا ، انتصاره على الهلفيتيين · قانون المحامي كلوديوس .
٥٦	تجديد الحكم الثلاثي في لوكا .
٥٥	انتخاب بومبي وكراسوس للمرة الثانية قنصلين سوية . اجتياز قيصر لنهر الرين لاول مرة وتوغل الرومان في بريطانيا .
٥٣	هزيمة قيصر لقبائل غاليا . عبور قيصر للرين مرة ثانية . كراسوس يسقط قتيلا في معركة مع البارتيين قرب Karrahae .
٥٢	قيام الغاليين بالثورة تحت زعامة فرسينكتوريكس . حرب العصابات في روما بمناسبة أنتخاب الحكام Magistrats بين كلوديوس وميلو . بومبي يحكم بصفة قنصل فرد .
٥١	الحروب الاخيرة في بلاد غاليا . تقديم طلب يقضي باستدعاء قيصر الى ايتاليا .

٤٩	قيصر يعبر الـ Rubico . هرب بومبي وفريق الشيوخ نحو تسالونيكي . دخول قيصر الى روما . حملة اسبانيا . الظفر عند ايلردا . ايتاليا العليا تحصل على حق المواطنة بموجب قانون (Lex Roscia) .
٤٨	انتصار حاسم على بومبي في معركة فارسالوس (في ٩ آب) .
٤٨ — ٤٧	حرب الاسكندرية .
٤٧	هزيمة ملك البونت فارناكس عند Zela .
٤٦	ظفر قيصر على أنصار بومبي في معركة Thapsus . انتحار كاتو .
٤٦ — ٤٤	ديكتاتورية قيصر ، اجراءات قانونية واصلاح التقويم .
٤٥	قيام أنصار بومبي في اسبانيا . ظفر قيصر في معركة موندا Munda
٤٤	تعيين قيصر ديكتاتوراً مدى الحياة ، ورفضه قبول تاج الملك المعروض عليه . مؤامرة يقودها كاسيوس وبروتوس تؤدي الى اغتيال قيصر في (١٥ آذار) .
٤٤ — ٤٣	انطونيوس يحاصر قتلة قيصر وعلى رأسهم بروتوس في موتينا ولكنه يهزم .
٤٣	القناصل هيرتيوس وفيبيوس بانزا يتقدمان ضد انطونيوس ويصرعان في المعركة . الحكم الثلاثي الثاني بين أوكتافيان وأنطونيوس ولبيدوس . موت سيسرو .
٤٢	معركة فيلبي المزدوجة . أنطونيوس يهزم كاسيوس وبروتوس ، اللذان يقدمان على الانتحار .

٤٠	معاهدة برنديزي . انطونيوس يتلقى الشرق نصيباً له وأوكتافيان يتلقى الغرب وليبدوس يتلقى أفريقيا . هجوم البارثيين .
٣٩	هزيمة البارثيين على يد فنتيدوس باسوس .
٣٦	اقصاء لبيدوس عن الحكم الثلاثي وفقدانه لأفريقيا . انطونيوس يتزوج كليوباترة .
٣٢	اعلان الحرب على مصر .
٣١	نصر اجريبا الحاسم على انطونيوس في معركة أكتيوم . مصر تصبح مقاطعة رومانية .
٣٠	أوكتافيان ينفرد بالسلطة . مجلس الشيوخ يخلع على أوكتافيان لقب أوغست (في ١٦ كانون الثاني) . فصل اليونان كمقاطعة مستقلة عن مكدونيا (آخايا) .
٢٦	مقاطعة جالاتيا . ضم نوميديا إلى مقاطعة أفريقيا .
١٩	منح أوغست سلطة قنصل لمدى الحياة . اتمام اخضاع اسبانيا على يد اجريبا .
١٨	قانون الزواج . اعطاء أجريبا سلطة تريبون لمدة خمس سنوات .
١٦	اعادة تنظيم غاليا وقسمها الى ثلاث مقاطعات اكيتانيا لوجدونتزيس وبلجيكا .
١٢	نيروكلوديوس دروزوس يبدأ الحملات العسكرية في جرمانيا .
٢	أوغست يسمى أب الوطن . عبور نهر الألب .

٤ ميلادي كلوديوس نيرويتبنى تحت اسم جوليوس قيصر . حملة تيبريوس .
٥ اعلان جرمانيا مقاطعة رومانية .
٧ تعيين فاروس حاكماً لجرمانيا .
٩ هزيمة فاروس في معركة غابة تويتوبرج . التنازل عن جرمانيا .
١٤ موت أوغست .
١٤ – ٣٧ تيبريوس .
١٤ – ١٦ معاودة الحملات على جرمانيا بقيادة كلوديوس نيرو جرمانيكوس .
١٦ جعل كبادوكيا وكوماجين مقاطعة رومانية .
٣٧ – ٤١ جايوس كاليجولا
٤١ – ٥٤ كلوديوس نيرو .
٤٣ بداية احتلال بريطانيا واعـــلان الجزء الجنوبي من الجزيرة مقاطعة رومانية .
٤٦ اعلان تراكيا مقاطعة رومانية .
٥٠ كلوديوس يتبنى ابن زوجته اجريبينـــا تحت اسم نيرو . كلوديوس دروزوس جرمانيكوس قيصر .
٥٤ اجريبينا تدس السم لزوجها كلوديوس وتغتاله . نيرو يصبح خليفة له .
٥٤ – ٦٨ عهد نيرو .
٥٥ – ٦٣ احتلال أرمينيا . وحملات دوميتوس كوربولوس في الشرق .
٦٠ – ٦٢ اخماد الثورة التي قامت في بريطانيا تحت زعامة بوديشيا .
٦٤ حريق روما .
٦٥ المؤامرة البيزونية . ارغام سنكا على الانتحار .
٦٦ تتويج تيريداتس ملكا على أرمينيا في روما . ثورة في بلاد يهوذا .

٦٨ سرفيوس غالبا ينادى به قيصرا واعتراف مجلس الشيوخ به . انتحار نيرو . نهاية الأسرة اليولية ـ الكلودية المالكة .

٦٩ – ٩٦ بداية عهد الأسرة المالكة الفلافية .

٦٩ سنة حكم ثلاث قياصرة . قتل غالبا . المناداة بفاسبازيان قيصرا .

٦٩ – ٧٩ عهد فاسبازيان .

٧٠ احتلال مدينة القدس وتهديمها على يد تيتوس ابن فاسبازيان .

٧٧ – ٨٤ جوليوس اجريكولا حاكم لبريطانيا . متابعة احتلال الجزيرة البريطانية . وضع أول سور للحدود .

٧٩ – ٨١ عهد تيتوس .

٧٩ انفجار بركان فيزوف الذي ردم مدن بومبي ، هيراكولانوم وستابيا .

٨١ – ٩٦ عهد دوميسيان .

٨٤ اجريكولا ينتصر على الكالدونيين .

٩٠ فصل ضفة الرين في غاليا ، تأسيس مقاطعة جرمانيا العليا وجرمانيا السفلى .

٩٦ مقتل دوميسيان . مجلس الشيوخ يعين نرفا خلفا له .

٩٦–١٨٠ عهد القياصرة المتبنون .

٩٦ – ٩٨ عهد نرفا .

٩٧ ثورة الحرس البريطوري . نرفا يتبنى تراجان .

٩٨–١١٧ عهد تراجان .

١٠١–١٠٥ الحرب الاولى ضد الداكيين Daker . احتلال العاصمة .

١٠٦ ١٠٧ الحرب الثانية ضد الداكيين .

١٠٨ اعلان المقاطعة الداكية . تأسيس المقاطعة العربية .

١١٤–١١٧	حرب البارثيين . احتلال أرمينيا . تسمية آشور وما بين النهرين مقاطعات رومانية . فتنة اليهود في مصر ، وفي قبرص ، وفي يهوذا والرافدين . عودة تراجان نحو سورية وموته في كيليكية .
١١٧–١٣٨	عهد هادريان .
١١٧	الصلح مع البارثيين والتنازل عن مقاطعات آشور والرافدين .
١٣٢–١٣٥	فتنة في بلاد يهوذا بزعامة سيمون باركوخبا يخمدها يوليوس سيفروس . اعادة بناء القدس تحت اسم Aelia Capetolina ؛ مقاطعة سوريا فلسطين .
١٣٨	هادريان يتبنى اوريليوس انطونيوس ويرفعه إلى شريك في الحكم . موت هادريان .
١٣٨–١٦١	عهد انطونيوس بيوس . استمرار سياسة السلم .
١٤٢–١٤٣	ثورة في بريطانيا .
١٦١–١٨٠	عهد ماركوس اوريلوس . اوريلوس يرفع أخاه المتبنى تحت اسم اوريليوس فيروس إلى مصاف شريك في الحكم .
١٦٢–١٦٥	الحرب مع البارثيين . كاسيوس يحتل بلاد الرافدين ثم سلوقية . تسمية مقاطعة ما بين النهرين . انتشار الطاعون .
١٦٩	موت فيروس . كاسيوس يتسلم القيادة في الشرق .
١٧٥	عقد السلم . اخلاء المناطق الواقعة شمال الدانوب من الجرمان والسارماتيين .
١٧٦	المناداة بكاسيوس قيصراً في الشرق ثم اغتياله .
١٧٧	اوريليوس كومودوس ابن ماركوس يرفع إلى رتبة شريك في الحكم . ويتلقى لقب اوغست .

١٧٨–١٨٠ موت القيصر في ڤينا .

١٨٠–١٩٢ عهد القيصر كومودوس .

١٨٦ عصابات في ايتاليا . فتنة في بريطانيا يخمدها برتيناكس

١٩٣–٢٣٥ عهد أسرة سفيروس المالكة .

١٩٣ رفع برتيناكس إلى مصاف قيصر . واغتياله من قبل الحرس البريطوري بعد قبضهم الرشوة تسمية ديديدس سالفيوس يوليانوس قيصراً . ثورة قطعات المقاطعات الرومانية التي تنصب القياصرة سبتيموس سيفروس في بانونيا وبسينوس نيجر في سورية والبينوس في بريطانيا ضد يوليانوس . سيفروس يمشي نحو روما ويقتل يوليانوس ويحل الحرس البريطوري . تعيين البينوس قيصراً .

١٩٣–٢١١ عهد القيصر سيفروس .

١٩٤ سيفروس ينتصر على نيجر . وقسمة سورية بعد موته إلى سورية الفينيقية ، وسورية الداخلية Coele .

١٩٥–١٩٦ الحرب ضد البارثيين .

١٩٧ معركة ترينورتيوم . هزيمة البينوس وقتله . تقسيم بريطانيا إلى مقاطعة عليا ومقاطعة سفلى . جعل ترير Trier عاصمة غاليا .

١٩٨–١٩٩ الحرب ضد البارثيين . احتلال العواصم سلوقيا وكتزيفون مقاطعة ما بين النهرين .

٢٠٣ القيصر سيفيروس في أفريقيا . حملات عسكرية .

٢٠٨–٢١٠ الحرب في بريطانيا . اخضاع سكوتلانده .

٢٠٩ تعيين ابن سيفيروس سبتيموس جيتا شريكا في الحكم .

٢٣٨ نصب القنصل السابق لأفريقيا (جورديانوس الاول) ، وابنه (جورديانوس الثاني) شريكا له . فشل عملية التنصيب . استلام (جورديانوس الثالث) للسلطة .

٢٣٨–٢٤٤ عهد جورديانوس الثالث . اجتياز الغوطيين لأول مرة نهر الدانوب الاسفل .

٢٤٢–٢٤٤ حملة جورديانوس الفارسية ضد الملك شابور الاول . جوليوس فيليبوس العربي يدبر قتل جورديانوس . عقد السلم مع شابور الاول .

٢٤٤–٢٤٩ عهد فيليب العربي .

٢٤٥–٢٤٧ حملة نحو نهر الدانوب وانتصار فيليب العربي .

٢٤٩ نصب ميسيوس ديسيوس قيصراً مضاداً لفيليب وهزيمته لفيليب العربي في فيرونا وسقوط فيليب قتيلا في المعركة .

٢٤٩–٢٥١ عهد ديسيوس . أول شخص ايلليري يجلس على عرش روما . اضطهاد المسيحيين . معارك ضد الغوطيين .

٢٥١ مصرع ديسيوس . المناداة بفيبيوس غاللوس قيصرا . تدهور العملة الرومانية .

٢٥١–٢٥٣ عهد غاللوس . عقد الصلح مع الغوطيين .

٢٥٣ أميليان المراكشي يهزم الغوطيين وينصبه الجيش قيصراً . وبعد انتصاره على غاللوس وشريكه في الحكم يقتل . الاعتراف بفاليريان قيصراً .

٢٥٣–٢٦٠ عهد فاليريان . تعيين ابنه غاللينوس شريكا في الحكم .

٢٥٤ هجمات الغوطيين نحو البلقان والآلامان نحو غاليا .

٢٥٦ شابور الاول يحتل أنطاكية . الآلامان والفرانكيين يجتازون حدود جرمانيا العليا .

٢١١ موت سيفيروس في منطقة يورك . كارا كالا" وجيتا يصبحان خلفاء : أخلاءُ سكوتلانده .

٢١٢–٢١٧ عهد كارا كالا" .

٢١٢ أبناء المقاطعات يحصلون على حق المواطنة ، باستثناء الديتيزيين .

٢١٣ الجرمان يتخطون حدود جرمانيا العليا عند نهر الماين .

٢١٤ كاراكالا" يسير إلى داكيا . أولى هجمات الغوطيين .

٢١٦–٢١٧ الحملة ضد البارثيين . قتل كارا كالا" على يد قائد الحرس البريطوري ماكرينوس .

٢١٧–٢١٨ عهد ماكرينوس . هزيمة الرومان وعقد الصلح نتيجة ذلك مع البارثيين . الجيش السوري ينصب الاجابال ابن اخت كارا كالا وراهب عبادة الشمس في مدينة حمص . هزيمة ماكرينوس ومصرعه .

٢١٨–٢٢٢ عهد الاجابال . فرض عبادة الشمس السورية كدين رسمي للدولة .

٢٢٢ الحرس البريطوري يقتل الاجابال ووالدته . وتعيين ابن عمه اوريليوس سيفيروس الكسندر .

٢٢٢–٢٣٥ عهد سيفيروس الكسندر

٢٢٤ اردشير الاول يخلع آخر ملك من ملوك البارثيين ويؤسس حكم الساسانيين في ايران .

٢٣١–٢٣٢ الحملة العسكرية ضد فارس يقودها سيفيروس الكسندر .

٢٣٥–٣٢٥ قياصرة الجنود .

٢٣٥–٢٣٨ حروب ضد الآلامان ، والداكيين .

٢٥٧	اضطهاد المسيحيين .
٢٥٧–٢٦٠	فاليريان في الشرق . استعادة أنطاكية . ولكن شابور الاول يهزم فاليريان قرب إدسّا ويأخذه أسيرا . موت فاليريان في الاسر في فارس .
٢٦٠–٢٦٨	عهد القياصرة الغاليين برئاسة غاللينوس . تدهور العملة . انشاء جيش من الفرسان . دفـــع الجرمان على حدود الرين . الحاق بريطانيا واسبانيا .
٢٦٠	تقدم الفرس حتى كيليكيه واعادة طردهم منها . تعيين ماكريانوس وكيتوس قياصرة ضد غاللينوس . سبتيموس أذينـــة سيد تدمر يهزم الفرس ويضع نفسه إلى جانب القيصر غاللينوس . مرسوم التسامح يصدره غاللينوس . رفع الاضطهاد عن المسيحيين .
٢٦١	غاللينوس يهزم خصماه القيصران ماكريانوس وكيتوس .
٢٦٢	أذينة يستعيد مابين النهرين .
٢٦٧	مصرع أذينة . أرملته زنوبية تخلفه تحت اسم ابنها . نهب اليونان .
٢٦٨	مقتل غاللينوس . تنصيب أوريليوس قيصراً .
٢٦٨–٢٧٠	كلوديوس الثاني . زنوبية تحتل مصر . محاولة استقلال تدمر في الشرق عن روما . تنصيب أوريليان قيصراً بعد موت كلوديوس .
٢٧٠–٢٧٥	عهد أوريليان . زنوبية تتخذ لنفسها لقب أوغست . انفصال واضح عن روما .

٢٧٠–٢٧١ هزيمة الفانداليين . نصر على الالمانيين . احاطة روما بسور . اخلاء المقاطعة الداكية .

٢٧٢ أوريليان يحتل تدمر ويأخذ زنوبية أسيرة .

٢٧٥ مصرع أوريليان . مجلس الشيوخ يسمي كاوديوتاسيتوس خلفاً له .

٢٧٥–٢٧٦ تاسيتوس . مصرع تاسيتوس وتعيين أوريليوس پروبوس قيصرا .

٢٧٦–٢٨٢ پروبوس .

٢٧٧ طرد الفرانكيين والآلامان من بلاد غاليا . توطيد حدود نهر الرين ، هجوم عبر الرين . توطيد حدود الدانوب .

٢٨٢ مصرع پروبوس . تنصيب أوريليوس كاروس قيصرا .

٢٨٢–٢٨٣ كاروس . الحملة على فارس . احتلال سلوقيه وكتزيفون . مصرع كاروس . أبناؤه يخلفونه في الحكم .

٢٨٣–٢٨٤ كارينوس ونومريانوس . عقد الصلح مع الفرس . مصرع نومريانوس . المناداة بأوريليوس ديوكلس قيصراً . هذا الاخير يتخذ لقب ديوكليسيان .

٢٨٤–٣٠٥ عهد ديوكليسيان .

٢٨٥ كارينوس يهزم ديوكليسيان في معركة مارجوس ثم يقتل بعد قليل .

٢٨٦ اوريليوس ماكسيميانوس يعلن قيصراً ثم يسمى أوغست في السنة التالية .حروب مع الفرانكيين ، الالمانيين والبورغونديين.

٢٨٨ اخماد ثورة في مصر . اعلان مادسوس كاروسيوس قيصراً منافساً في بريطانيا .

٢٩٢	تحصينات على نهر الرين والدانوب والفرات . اعادة توطيد النقد .
٢٩٣	الحكم الثلاثي .
٢٩٦	كونستانس يهزم اللكتوس . هجوم قبائل البيكت السكوتلانديين .
٢٩٦–٢٩٧	الحرب الفارسية . ارغام الساسانيين على التراجع عن مناطق الحدود . اصلاح في المقاطعات . تقسيم الامبراطورية إلى ١٢ اسقفية و ١٠١ مقاطعة .
٣٠٣–٣٠٤	مراسيم ديوكليسيان ضد المسيحيين . اضطهاد المسيحيين .
٣٠٥	تنازل ديوكليسيان وماكسيميان . المناداة بجاليريوس وبكونستانس باسم أوغست . سفيروس وماكسيميانوس يعينون قياصرة .
٣٠٦	موت كونستانتيوس . جاليريوس وسفيروس ينادون بلقب أوغست . الاعتراف بفلافيوس فاليريوس قسطنطين (ابن كونستانس) قيصرا . أوريليوس ماكسنتيوس ابن ماكسيميان يعلن من قبل الحرس البريطوري ومجلس الشيوخ قيصراً . خرق نظام الحكم الثلاثي .
٣٠٧	ماكسنتيوس يهزم سفيروس ويزيحه . ماكسيميان يربط نفسه مع ماكسنتيوس ثم مع قسطنطين الذي يسميه أوغستا .
٣٠٨	مؤتمر في كارنونتوم برئاسة ديوكليسيان . جاليريوس وفلافيوس فاليريوس ليسينيانوس ليسينيوس يعطون لقب أوغست . قسطنطين وماكسيمنوس دايا يسمون قياصرة .
٣٠٩	عودة ماكسيميان من جديد . ماكسيمنوس دايا يرفع نفسه إلى رتبة أوغست . وترفيع قسطنطين الى نفس الرتبة : قيام أربعة حكام يحملون لقب أوغست .

٣١٠–٣١١ قسطنطين يزيح ماكسيميان . مرسوم التسامح يصدره جاليريوس وليسينيوس .

٣١١–٣١٣ ليسينيوس ، قسطنطين ، وماكسيمينوس دايا يعطون لقب أوغست . تجدد اضطهاد المسيحيين على يد ماكسيمينوس .

٣١٢ قسطنطين يهزم ماكسنتيوس .

٣١٣ مرسوم ميلان الخاص بالتسامح . مساواة المسيحية بالديانات الاخرى . ليسينيوس يهزم ماكسيمينوس دايا . وموت الاخير.

٣١٣–٣٢٤ قسطنطين وليسينيوس .

٣١٤–٣١٥ أول حرب تقع بين قسطنطين وليسينيوس . عقد الصلح بعد تراجع ليسينيوس عن مقاطعات البلقان ماعدا تراكيا وموسيا.

٣١٦ موت ديوكليسيان .

٣٢٣ كونستانتيوس ، الابن الثالث لقسطنطين ، يسمى قيصراً . الحرب الثانية بين قسطنطين وليسينيوس . هزيمة الأخير واعدامه . قسطنطين يعلن استامبول العاصمة الجديدة للامبراطورية .

٣٢٥-٣٣٧ قسطنطين الكبير . أول مجمع ديني في نيكايا .

٣٣٠ تدشين العاصمة الجديدة استامبول . تقسيم الامبراطورية الى أربع مديريات Präfekturen و ١٤ أسقفية و ١١٧ مقاطعة . تقوية الجيش .

٣٣٢ الانتصار على الغوطيين . الغوطيين يتكفلون بصفتهم أحلافاً الدفاع عن ضفاف الدانوب الشمالية . اعلان كونستانس ، ابن قسطنطين الاصغر قيصراً .

٣٣٥ وصية قسطنطين حول تقسيم الامبراطورية .

٣٣٧ التسلح ضد فارس . موت قسطنطين .

الفصل الأول

يتصف تاريخ منطقة البحر الابيض المتوسط في العالم القديم بتأخر نشوء الحضارات فيه اذا ماقورن بمنطقة الشرق القديم حيث قامت الحضارات السومرية – الأكادية منذ الألف الثالث قبل الميلاد . وعلى العموم يمكننا تقسيم الأحداث التاريخية في منطقة البحر الأبيض المتوسط الى فترتين أساسيتين تركزت الأولى منها بقيام الحضارة اليونانية في شرق البحر المتوسط والثانية بظهور روما في غربي المنطقة . وكان من نتيجة انتصار العسكرية الرومانية الناشئة على منافسيها في زعامة البحر المتوسط من الفينيقيين والاغريق فرض وحدة سياسية واقتصادية على كافة أرجاء هذه المنطقة التي غدت بحيرة رومانية فعلاً . وبالتالي كان من نتيجة التوسع الروماني احتلال مواطن الحضارات القديمة في غربي آسيا ومصر والتقاء التيارات الفكرية والحضارية لعالمين مختلفين كلية على صعيد واحد . وفي الواقع لم تؤد جهود روما الدائبة « لرومنة » شعوب المنطقة الى سيادة الحضارة الرومانية فيها فحسب بل نجد الحضارة الرومانية نفسها تتأثر من احتكاكها بالتراثين الشرقي والهلسنتي وتتلقى منها نبضات وعناصر خلاقة ساهمت الى حد كبير في تطوير الحضارة الرومانية وخاصة في فتراتها الاخيرة . ولعل أبرز هذه المساهمات سيادة الديانة المسيحية التي انطلقت من الشرق منتصرة على الديانة الوثنية بعد أن ظلت هذه قروناً عديدة الديانة الرسمية للدولة والمجتمع الروماني.

أما الدور الثاني والهام الذي لعبته روما في التاريخ العالمي فيتلخص

بفتحها لبلاد أوربا الغربية منهية بذلك فترةعصور ماقبل التاريخ وناقلة الى العالم الغربي أسس الحضارة والتنظيم السياسي والاجتماعي . ولا يغرب عن بال المهتم بتاريخ روما السياسي والحضاري أن قيامها بالدورين الآنفي الذكر لم يكن من السهل تحقيقه بدون الموقع الجغرافي الهام الذي نشأ الشعب الايتالي فيه ونعني بذلك مركزاً ايتاليا المتوسط بين شرقي وغربي البحر الابيض المتوسط من جهة واتصالها البري ببلاد أوربا من جهة أخرى . واذا كان للموقع الجغرافي لشبه جزيرة ايتاليا هذا التأثير الهام في إعطاء الاحداث التاريخيـــة اتجاهاً معيناً فان للمسرح الحقيقي الذي قامت عليه فصول التاريخ الروماني وللعناصر البشرية التي مثلت الدور الرئيسي فيه أكبر الأثر فيصياغة تلك الاحداث . هـذه العوامل الثلاثة تستدعي من الباحث القاء نظرة فاحصة على طبيعة الأرض الايتالية وعلى مقومات الشعب الايتالي كعرق ومجتمع .

ميزة موقع ايتاليا الجغرافي والتاريخي :

تتصف شبه جزيرة ايتاليا بكونها أشبه ماتكون بلسان طويل من البر يحيط به الماء من ثلاثة أطرافه . فهنالك بحر الادرياتيكي الذي يكاد يكون مغلقا في الشرق . والبحر التيراني في الغرب الذي تحيله جزيرتا كورسيكا وساردينيا في الشمال وجزيرة صقلية في الجنوب الى بحيرة تشكل امتداداً للمنطقة الايتالية . ولا يفصل جزيرة صقيلية عن البر الافريقي – حيث يقابلها موقع مدينة قرطاجة – إلا مسافة قصيرة من البحر الابيض المتوسط . أما في الشمال فتتصل شبه الجزيرة الايتالية مع البر الاوربي بقاعدة عريضة من الارض تسمى (عنق الجزمة) يبلغ عرضها في أقصاها حوالي ٥٠٠ كم تحدها سلسلة جبال الألب التي تشكل هلالاً غير منتظم يمتد من نيس على البحر المتوسط الى تريسته على البحر الادرياتيكي وتقف منحدراتها المطلة

على الارض الايتالية قائمة مرتفعـة كأنها الجدار بينما تكون في السطوح الشمالية متدرجة الانحدار . وقد ساعدت وديان الانهار على تأمين ممرات جبلية تصل المنطقتين ببعضها كما يتأمن الاتصال مع بلاد غاليا عبر الشريط الساحلي المسمى بشاطيء الريفيرا . من هـذا يتضح أن جبال الالب في الشمال لم تشكل حاجزاً جديا يعيق المواصلات مـع ايتاليا أو الهجرات إليها . وعلى العموم يمكن التمييز بين المنطقة القارية في ايتاليـا — وهي المنطقة الشمالية التي يحتلها سهل نهر البوالحقي التربة والخصب بزروعاته— ومنطقة شبه الجزيره المتطاولة التي تشبه (الجزمة) والتي تقف جبال البنين في وسطها ممتدة نحو الجنوب وكأنها العمود الفقري تتخللها تشعبات جبلية فرعية متوازية نشأ عنها قيام العديد من الهضاب والسهول المتناوبة تقطعها مجاري أنهار موسمية قصيرة كثيراً ماتجف في الصيف . ولا تترك جبـال البنين في المناطق الشرقيـة إلا شريطاً ضيقاً من الارض للزراعـة بعكس المناطق الغربية من ايتاليا حيث قامت سهول كامبانيا واتروريا الفسيحة . وفي الحقيقة كان لطبيعة الارض الايتالية ومناخها الدور الأول في توزع الشعوب المهاجرة إليها وتوطنهم فيها . والجدير بالذكر أن طول شبه الجزيرة الايتالية من الشمال إلى أقصى الجنوب لايتجاوز الألف كيلو متر بينما يبلـغ أقصى عرضها حوالي ١٧٥ كم . ولقد تميزت منطقة شبه الجزيرة باتصالهـا السهل عن طريق البحر ببلاد اليونان وأفريقيا واسبانيا أي بانفتاحها على عالم البحر المتوسط بينما بقيت المنطقة القارية ونعني بها منطقة سهل البو الغنية بالمزروعات والمياه في شبه عزلة عنه طيلة العهود القديمة .

وعلى الرغم من أن طبيعة شبه الجزيرة الايتالية مشابهة في كثير من النقاط لتشكيل بلاد اليونان وهضابها الجبلية . تنفرد ايتاليا باتساع السهول فيها علماً بأن نسبة المناطق الجبلية فيها تعادل ثلاثة أرباع المساحة العامـة

لايتاليا ، مما ساعد على ايواء مجموعات أكبر عـــدداً من السكان وبالتالي تقديم المنتجات الغذائية لهم ولا يغرب عن البال أن فئات الفلاحين قـد قدّمت لروما في القديم العناصر الاولى للتوسع العسكري في منطقة البحر المتوسط . كذلك تميز مناخ ايتاليا عن مناخ اليونان بوفرة الامطار وغزارتها وخاصة على السفوح الغربية لجبال البنين الامر الذي ساعـــد على استثمار سهول كامبانيا واتروريا الى حـد كبير . أما في المناطق الشرقية فيقل منسوب الامطار عنه في الغرب ومع ذلك شكلت هـذه المناطق مراعي واسعة للمواشي . والجدير بالذكر أن اسم ايتاليا نفسه يوحي بذلك فهو مشتق من الكلمة الاوسكية (Witelliu) أي « أرض العجول »وأطلقه اليونانيون باديء ذي بدء اعتباراً من القرن الخامس قبل الميلاد على النهاية الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة . ومع مطلع القرن الأول للميلاد يعم استعمال هذا الاسم ويصبح له اعتبار أوسع فيشمل كل ايتاليا معبراً بذلك عن المفهومين الجغرافي والسياسي اللذين يتضمنهما اسم ايتاليا والذي تشكل جبال الالب حدوده الشمالية .

تتصف الأنهار في منطقة شبه الجزيرة نفسها بكونها قصيرة وتجـف كثيراً في الصيف . يستثنى من ذلك نهر التيبر الذي يمكن اعتباره عاملا جغرافياً هاماً ، إلا أن المواد اللحقية التي يجرفها معه أعاقت عملية انشاء مرفأ على مصبه . وفي الواقـع تتصف شواطيء ايتاليا الطويلة الرتيبة بقلة وجود المواقـع الملائمة لقيام مرافيء طبيعية جيدة تساعد على الملاحة . وتكثر هذه المرافيء الطبيعية في الشواطيء الجنوبية وخاصة في جزيرة صقيلية وفي خليج نابولي . ولعل وجود المرافيء في المناطق الجنوبية كان تعويضاً عن الفقر في الموارد الطبيعية الذي مازال يعانيه هذا الجزء من شبه جزيرة ايتاليا .

وعلى العموم يمكن تمييز مناطق سهول خضراء خصبة غنيـة بالموارد

الطبيعية في ايتاليا عن مناطق فقيرة تندر فيها الزراعات وتكثر فيها الصخور الجرداء ، وبالتالي كان هذا العامل سبباً في قيام مجموعات ثقافية متفاوتة متميزة عن بعضها . لذلك نقدر دور روما في توحيد هذه المجموعات المتفاوتة ضمن اطار سياسي واحد فهي مهمة صعبة جداً وبالغة في الأهمية ، خاصة إذا وضعنا الحقيقة الراهنة نصب أعيننا وهي أن ايتاليا لن تستطيع توحيد نفسها من جديد بعد انهيار الامبراطورية الرومانية . ولن يكتب لهذه المحاولات النجاح إلا بعد أمد طويل جداً وذلك في عام ١٨٧٠ م .

أخيراً تتصف شبه جزيرة ايتاليا بكثرة غاباتها وأشجارها المتنوعة التي ساعدت في بناء السفن وكانت موضع طلب القرطاجيين والاتروسكيين واليونانيين والرومان أنفسهم . إلا أن هذه الثروة الطبيعية انقرضت على مر الزمن على يد قاطعي الاخشاب وصانعي الفحم وبالتالي نشأ عن انقراض الأشجار انجراف طبقة التربة الرقيقة التي تغطي القاعدة الصخرية . كذلك قضت قطعان المواشي على كل محاولة لاعادة زرع النباتات في المنطقة .

أما الثروة المعدنية فهي قليلة في ايتاليا ولم يتوفر في العصور القديمة إلا النحاس والحديد فكان الحديد يستخرج من جزيرة البا والنحاس من مناطق اتروريا وليجوريا وسردينيا . كذلك وجد بعض الزنك في اتروريا والفضة في سردينيا ، وذرات الذهب المجروفة مع المياه في وديان جبال الالب . أما المادة الرئيسية المتوفرة في ايتاليا فكانت أحجار البناء ، وخاصة المرمر الفخم الذي شيدت منه الأوابد الرومانية التذكارية الرائعة ، كذلك كانت مادة الصلصال الجيد متوفرة ومنها صنعت الأواني الفخارية الخاصة بالعهد الروماني ، والقرميد والآجر ... الخ . وقد توفرت في مقاطعات اللاتيوم واتروريا والمناطق الايتالية الاخرى ومنها صدّرت إلى أقصى أطراف الامبراطورية الرومانية .

ايتاليا في عصور ما قبل التاريخ :

ذكرنا أن الصفة الرئيسية لشبه جزيرة ايتاليا هي انفتاحها على العالم المجاور لها وسهولة الوصول اليها عن طريق شواطئها الطويلة من جهة والممرات السهلة في الشمال من جهة أخرى . لذلك ليس بغريب أن تكون تلك البقعة موطناً وملتقى لعديد من الشعوب والأجناس التي توضعت فيها على مر العصور عن طريق الهجرة السلمية أو جاءت اليها غازية فاتحة . وبالتالي جاء مع هذه الهجرات والغزوات عناصر لغوية وعرقية وحضارية مختلفة ساهمت جميعاً في اغناء حياة شبه الجزيرة . هذه الحركات البشرية بدأت منذ العصور السحيقة في القدم واستمرت حتى بداية العصور التاريخية ونعني بذلك حتى بداية ظهور الوثائق المدونة في ايتاليا .

ونحن إذ نحاول القاء الضوء على ايتاليا وشعوبها في عصور ما قبل التاريخ التي تمتد في مناطق من حوض البحر المتوسط إلى حوالي ٧٠٠ ق.م وفي القارة الاوربية نفسها إلى حوالي ميلاد المسيح عليه السلام . فاننا نضطر في الدرجة الاولى للاعتماد على الشواهد الاثرية التي تدعمها أحياناً البقايا اللغوية ، وبعض المرويات الفولكلورية وفي الفترات الاخيرة على المراجع اليونانية . وقد أسهمت دراسة المنطقة عن طريق التحريات الأثرية الواسعة في أن تتكون لدينا المادة التاريخية التي تكشف عن وجود حضارات عديدة متلاحمة ، نضرب على سبيل المثال منها بقايا الأوابد الميجاليتية التي انتشرت على نطاق واسع .

كذلك يساهم علم الآثار إلى حد كبير في تاريخ المستعمرات الفينيقية واليونانية المتوضعة في غربي البحر المتوسط ويؤكد ذلك ويوضحه انتشار البضائع الشرقية في هذه المنطقة . اضافة إلى ذلك نعتمد جزئياً على

المصادر التي يقدمها المؤرخون القدامى مثل هيرودوت وتوكيديدس خاصة فيما يتعلق باستعمار جزيرة صقيلية ، وعلى الأساطير المحلية . ولقد قدمت القبور المكتشفة في اتروريا شواهد تاريخية هامة آزرتها مكتشفات المدن الأخرى .

أما بالنسبة لتاريخ الشعب الاتروسكي الغامض فلدينا حوالي ٩٠٠٠ كتابة معظمها ذات طابع موجز ومدونة غالباً على شواهد القبور بالاضافة إلى نص ديني اتروسكي يتألف من ١٥٠٠ كلمة . هنا نقف أمام معضلة هي المحاولات المستمرة لفك اللغة الاتروسكية التي أصبح بالامكان الآن فك بعض الارقام أو الالقاب وكلمات أخرى فيها فبلغ عددها ١٢٠ كلمة . ومع اننا نستطيع قراءة الكلمات الاتروسكية المكتوبة نجدنا لا ندرك معناها خاصة وأن اللغة الاتروسكية لم تترجم بعد بشكل واف . ولعل اكتشاف وثائق كتابية أتروسكية عثر عليها في جزيرة ليمنوس في بحر ايجه يعزز النظرية القائلة بأن اللغة الاتروسكية من أصل شرقي . أما المصادر اليونانية التي تتعرض للاتروسكيين فهي قليلة ولكنها ثمينة . في حين أن الرومان لم يبدأوا في تدوين الأحداث التاريخية بشكل مفصل موسع إلا بعد أن كانت قوة الاتروسكيين قد اضمحلت ، لذلك لم يكن لدى الرومان اهتمام كبير لوصف أو دراسة جيرانهم الاتروسكيين الفريدين إلا فيما يتعلق بعاداتهم الدينية .

على هذا الأساس لا تتعدى محاولتنا الآن اقتفاء أثر التطورات الحضارية الباكرة في ايتاليا بأن نشير إلى مجرى الهجرات الهامة فيها وأن نحدد بصورة تقريبية تأريخها . خاصة وأن الكرونولوجي المستعمل لتحديد هذه الهجرات لا يزال مضطرباً مشكوكاً به يحتاج إلى مزيد من الاكتشافات الأثرية والتاريخية .

ايتاليا في العصور الحجرية والبرونزية والحديدية :

١ - من المسلّم بـه أن البشر عاشوا في ايتاليا منــذ العصور الباليوليتيكية ويمكن تتبع آثارهم بتأكيد حتى عصر الانحسار الجليدي الثالث، ولكن عدد هؤلاء السكان بدأ يتضاعف ويزداد مع دخول الزراعة إلى المنطقة . ويمكننا القول أن شعب ايتاليا اعتباراً من تلك الفترة كان بالغالبية عرقاً من نموذج متوسطي أي « Mediterranean » قصير القامة طويل الرأس قاتم الشعر[١] .

وقـد عثر في مناطق مختلفة من ايتاليا على بقايا انسان العصر **الباليوليتيكي** المتمثلة في الفؤوس اليدوية الحجرية والمكاشط والمثاقب ... الخ التي توضعت في حصباء الأنهـار وفي الكهوف يرافقها أحياناً عظـام حيوانات الفترة نفسها ، كذلك عثر على بقايا هياكل عظمية بشرية تشير إلى أن أصحابها ينتسبون إلى العرق النياندرتالي .

ومع انخفاض مستوى الارض في حوض البحر المتوسط في العصر الجليدي الأخير تمّ انفصال شبه جزيرة ايتاليا عن افريقيا وانفصلت جزيرة سردينيـــا عن الأرض الايتـــالية وأصبحت صقيليه جزيرة . كما أن تراجع الجليديات الذي بدأ قبل حوالي ٢٥٠٠٠ سنة مضت نشأ عنـــه اعتدال المناخ ودخول مهاجرين جدد الى ايتاليا قادمين اليها من أوروبا ومن آسيـا ومن افريقيـا يشتملون على عناصر عرقية متنوعة . ويمكن القول بالاستناد على النماذج البشرية التي عثر على هياكلها في كهوف جريمالدى على شاطىء الريفـيرا الايتاليـة أن العناصر البشرية المستقرة آنذاك في ايتاليا تتضمن نموذجين عرقيين جديدين الأول منها وهو الأقدم عهداً ينم عن صفات زنجية بينما ينتسب الثاني إلى مجموعـة انسان كرومانيون التي

(١) يمكن اعتبار جسم بوليوس قيصر ممثلاً لهذا النموذج العرقي .

عاشت في جنوبي فرنسا في أواخر العصور الباليوليتيكية . وتكشف طرق دفن الموتى في مقابر جريمالدى عن العادات والشعائر المتبعة لدى هؤلاء السكان وخاصة عن الهدايا الجنائزية التي رافقت الموتى وكلها تشير الى احتمال وجود عقيدة الايمان بحياة ثانية بعد الموت . ومن الطبيعي أن نفترض قياساً على مستوى التطور الذي وصل اليه انسان العصر الباليوليتيكي بصورة عامة في أوربا أن الانسان في ايتاليا عاش في نفس الحقبة صياداً متجولاً وجامع غذاء ، عاش بالدرجة الاولى على لحوم الفرائس التي اصطادها وعلى الاسماك وعلى ثمار النباتات وحبوبها وكان لديه فكرة عن استعمال النار استخدمها لتدفئته في الكهوف ولطهي طعامه . ولا شك أن التطور الكبير الذي حدث في ايتاليا كان ادخال الزراعة الى نظام المعيشة فيها . وبلا ريب كان الانسان الصياد الرائد الأول لهذا الانتقال . والمعتقد أن الزراعة قد نشأت بادىء ذي بدء على طول شواطىء ايتاليا الجنوبية حيث كان المزارعون الاوائل يعيشون غالباً ضمن الكهوف . ويوحي اكتشاف طبعات الصدف التي زينت بها سطوح الأواني الفخارية العائدة الى هذه الفترة يوحي بوجود صلات وقرابة مع أواني الفخار المماثلة المكتشفة في شرقي البحر المتوسط . والى الشرق ننسب بالمثل ادخال استعمال الاواني الفخارية الملونة التي اقتصر استعمالها على منطقة جزيرة صقليه فلم تنتشر نحو الشمال .

تتميز فترة العصر **النيوليتيكي** في ايتاليا بقدوم عرق بشري جديد اليها حوالي ٥٠٠٠ ق . م . قدم اليها من أفريقيا عن طريقين أولهما جزيرة صقيلية والثاني عن طريق مضيق جبل طارق مارا عبر اسبانيا وجنوب فرنسا . ولقد جلب هؤلاء المستوطنون الجدد معهم ثقافة متقدمة تنم عنها الأدوات الحجرية الجديدة التي أدخلوها والتي تفصح عن عمليات الصقل

والتشذيب المتبعة في صناعة الادوات الحجرية ، يضاف الى ذلك المواد الحجرية الجديدة التي استعملوها . أما هوية هؤلاء القادمين الجدد العرقية فلا يمكن تحديدها الا على ضوء بقايا هياكلهم العظمية التي توحي بانتسابهم إلى **العرق المتوسطي** والتي توضعت منذ العصر النيوليتيكي على شواطيء وجزر البحر الابيض المتوسط ، وشكلت في ايتاليا العنصر الاساسي للسكان . ولربما تمكن هذا العنصر الجديد من امتصاص أو طرد سكان العصر الباليوليتيكي . وفي مقابر هؤلاء القادمين الجدد يكمن المصدر الرئيسي لمعلوماتنا عن سكان ايتاليا في هذه الفترة والتي تقدم أعدادها الوفيرة وحدة في عادات الدفن بصورة عامة – رغم الاختلافات والفوارق المحلية بينها – فكان الميت يدفن في وضع القرفصاء وقد طويت ذراعاه فوق صدره والتصقت ساقاه المطويتان الى بطنه . والى جواره أودعت الأسلحة والأواني الفخارية والمادة الحمراء التي تستعمل لتلوين جثث الموتى . أما القبور نفسها فكانت اما بشكل حفرة في الارض بشكل خندق سقف بألواح من الحجارة – أو كومت فوقه الحجارة لحماية الموتى من المتطفلين – أو أن الجثث كانت تودع في الكهوف . وتنم الأواني الفخارية التي عثر عليها في المقابر أنها صنعت باليد وشويت على نار مكشوفة أي لم يستعمل في صنعها دولاب الخزاف ولا الفرن المغلق وتدل أشكال الآنية الوفيرة على الاغراض التي صنعت من أجلها وكان بعضها مزخرفاً بتحزيزات وبرسوم خطت بالالوان وكان الطابع الرئيسي لها هو الميل إلى الصور والاشكال الهندسية. ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن صناعات جنوب ايتاليا وصقلية في العصر النيوليتيكي كانت متفوقة في مادتها وجمالها على المواد المصنوعة في شمالي البلاد . ويرى المؤرخون في هذه الحقيقة تأكيداً على الدور الطليعي الذي اكتسبته جنوب ايتاليا في التطور التكنيكي والفني لهذه البلاد والناتج عن انفتاحها على مراكز الحضارات الاخرى في البحر المتوسط بفضل

موقعها الجغرافي . كذلك أمكن التأكد من وجود صناعات نسيجية - اعتمدت على الكتان وعلى الصوف - أخذت تحل محل الالبسة الاخرى المصنوعة من جلود الحيوانات . ومن المحتمل أن صيادي المناطق الداخلية في ايتاليا قد اقتبسوا عن سكان السواحل ادخال الزراعة في نظام معيشتهم . ويمكن الظن بأن سكان ايتاليا عامة قد انتقلوا نهائياً حوالي ٣٠٠٠ ق . م الى حياة الزراعة والاستقرار اي انتقلوا من مرحلة الصيد وجمع الغذاء الى مرحلة انتاجه عن طريق انشاء المزارع وهذا بالتالي يؤدي الى قيام المستعمرات السكنية وتجمعها . وقد كشفت الصور الجوية في منطقة ابوليا على سبيل المثال عن وجود ما يقارب من ٢٠٠ مستعمرة تتراوح بين أبنية متفرقة الى قرى ذات بيوت واكواخ مستديرة الشكل يحيط بها خنادق ، قامت جميعها في رقعة تبلغ مساحتها زهاء اربعين كيلو متراً في العرض وخمسة وستين كيلو متراً في الطول . ومن المؤكد ان رعي المواشي والقطعان يحتل الدور الاساسي في نمط الحياة الجديدة ويشكل طابعاً خاصاً تميزت ايتاليا به عبر الأزمنة . وقد اشتملت الحيوانات الأهلية تلك الحيوانات المعروفة في مناطق البحر المتوسط كالثيران ، والغنم والماعز ، والحمير ، والخنازير .

هذا ما كان عليه الوضع الحضاري في ايتاليا حتى منتصف الالف الثالث قبل الميلاد . وبالمقابل فان مقارنة التطور الحضاري فيها مع ماوصلت اليه المراكز الحضارية الكبرى في الشرق من منجزات تجلت في المدن السومرية الاكادية في بلاد الرافدين وفي شمالي سورية وفلسطين وفي مصر في عهد السلالات القديمة التي شيدت الاهرامات... يظهر البون الشاسع الذي يكمن بين المناطق الواقعة في شرق البحر المتوسط وتلك الواقعة إلى الغرب منه. ولسوف تضطر ايتاليا إلى البقاء على نفس المستوى قرابة **عشرة قرون أخرى** يتم خلالها

تفتح الحضارات الايجيه المينوسيه في جزيرة كريت والميسينيه في جنوب اليونان ، والتي ستمارس مع الحضارة اليونانية تأثيراً قوياً على جيرانها في شبه الجزيرة الايتالية . اذ تؤدي العلاقات التجارية وهجرات السكان إلى تلك البلاد الى انتقال الكتابة المينوسية إلى ايتاليا حيث يعثر على شواهد منها في جزر ليبارى وفي جزيرة صقيلية . فتكون دليلا أكيداً على التجارة المينوسية . ولا يوجد دليل آخر يدل على توغل التجار الايجيين فيما بعد إلى الشمال من هذه المنطقة ضمن الاراضي الايتالية . كذلك كان هنالك طريق يصل منطقة البحر الادرياتيكي ببحر البلطيق كان يطلق عليه اسم « طريق العنبر » يمر عبر جبال الالب عند ممر « برنر » الى أواسط أوربا على طول نهر الإلبه . وكما أن حلي العنبر الشهيرة التي انتشرت في كل شمال أوربا وانكلترا قد عرفت طريقها جنوبا نحو الادرياتيكي ومنطقة بحر ايجه ، فان المصنوعات المعدنية البرونزية صدّرت شمالا إلى أوربا الوسطى والشمالية عبر نفس الطريق وعلى ذلك نلمس أن ايتاليا لم تكن بمعزل عن التيارات التجارية في الالف الثاني قبل الميلاد . غير أن تكوينها الاجتماعي قسمها إلىمنطقتين مختلفتين شمالية وجنوبية،كانت الاخيرة منها على اتصال وثيق بالحضارات المزدهرة في بحر ايجه والشرق ومع اسبانيا ، أما ايتاليا الشمالية فكانت مرتبطة أكثر بأوربا الوسطى ووادي الدانوب بصفة خاصة . ويعتقد أن النحاس لم يستخرج من المناجم الايتالية بل أدخل اليها – بادىء ذي بدء – من جزيرة قبرص وكان هنالك مصادر عديدة له في الجزر تؤمن حاجات ايتاليا منه . وعلى الرغم من أننا نسمي الفترة التي أعقبت العصر النيوليتيكي في ايتاليا بالعصر النحاسي الحجري نرى أن استعمال المعدن في صناعة الادوات يبقى مقتصراً على

فئات معينة محددة كالأزاميل والخناجر النحاسية[1] . بينما تابع الايتاليون انتاج الادوات الحجرية وأبدعوا في اتقان صنعها وخاصة في صنع المطارق والفؤوس الحجرية التي زودت الآن بثقب يثبت فيه مقبض الاداة الخشبي الذي يضاعف مجالات استخدامها والاستفادة منها . وبصفة عامة يتصف الانتقال من العصر النيوليتيكي الى العصر الكالكوليتيكي بكونه انتقالا تدريجياً حتى ليصعب أحياناً التميز والفصل بين بقايا الفترتين المادية . كذلك لايتميز العصر الكالكوليتيكي بقدوم هجرات عرقية على نطاق واسع تغير طبيعة المجتمع النيوليتيكي السابق .

اخيراً يتمتع العصر **الكالكوليتيكي** بظاهرة فريدة تتركز في بناء القبور الكبيرة الحجم المشيدة من الحجارة الضخمة عثر عليها في جنوب ايتاليا وصقليه وساردينيا . يشبه بعضها الأوابد المعروفــة باسم دولمن Dolmen التي تتألف من غرف يتألف كل جدار منها وسقفها من قطعة وحيدة من كتلة حجرية ضخمة . ويقترن بهذه الأوابد المسماة **دولمن** الاحجار الضخمة المنتصبة على الارض المعروفة باسم **منهير** Menhirs . ويميل الرأي الى الاعتقاد بأن هذه القبور الميجاليتيه الكبيرة الحجم كانت مدافن جماعية دفنت فيها أجيال متعددة من سكان ايتاليا . وهذا الرأي ينطبق بصفة خاصة على « قبور العمالقة » المعروفة في جزيرة ساردينيا ، والتي تتألف من غرف طويلة بنيت نوعاً ما بشكل الدولمن وكانت سقوفها وجدرانها من صفائح حجرية كبيرة .

---

(١) هذه الظاهرة لها ما يقابلها في حضارة مصر في ما قبل السلالات القديمة وخاصة في ثقافات عمره وبدارى والفيوم B .

البحر البالطيكي التي استوردوا منها حلي العنبر . ويميل علماء الآثار للظن بأن الشعب البالافيتي قد مارس طريقة حرق جثث الموتى بدلاً من دفنها وكانوا يضعون رماد الجثة في جرار فخارية ترافقها حلي الميت وأدواته الخاصة .

تلت هذه الهجرة هجرة ثانية تمّت حوالي ١٧٠٠ ق . م . فجاءت بجموعة عرقية من أواسط أوربا لتتوضع في سهل البو في الجنوب والشرق في منطقة البحيرات . وقد أطلق علماء الآثار على مستعمرات القادمين الجدد اسم Terremara نسبة إلى التراب الاسود الخصب الذي يميز مواقع هذه المستعمرات ، وكان سكان مستعمرات تramara يركبون الحصان ويتميزون بصناعة أواني فخارية سوداء إلى رمادية اللون مصقولة السطوح كما كانوا ماهرين في صناعة الادوات البرونزية ويعتقد أن ذلك يعود إلى صلاتهم الوثيقة بحضارة السهل الهنغاري . ولعل من أبرز صناعات المعادن لديهم صناعة السيوف المزدوجة الحدين والسكاكين الطويلة . ولا عجب أن تسربت أفكار سكان ترامارا اذاً على طول الشاطيء الشرقي لايتاليا . أما بيوتهم فقد شيدوها على نمط بيوت البالافيتيين أي على أعمدة وأوتاد خشبية ولكن يختلفون عنهم في أن بيوت مستعمرات ترامارا لاتقوم فوق البحيرات ولعل نمط البناء قد اقتبس الآن ليشاد في مناطق يعتقد أنها كانت مستنقعية . وفي الحقيقة أثبتت الاكتشافات الحديثة في سويسرا أن نظرية انشاء البيوت على أعمدة فوق البحيرات نظرية خاطئة وأن الاسلوب نفسه كان يستخدم أصلا لبناء البيوت في مناطق جافة بعيدة عن البحيرات. كذلك يمكن نفي النظرية القائلة بأن قرى ترامارا كانت مصممة وفقاً لمخطط نظامي يظن بأنه الشكل الأولي لمخطط المعسكرات الرومانية التي بنيت فيمابعد . إذ لم تثبت التنقيبات وجود هذه المخططات النظامية . وكل ما أمكن

٢ - في حين أن جنوب ايتاليا وجزيرة صقيليه تمتعتا خلال عصر البرونز بحضارة متشابهة تعرضت كثيراً لتأثيرات الحضارة الايجيه نرى أن بقية ايتاليا تتعرض لهجرة شعب جديد قدم اليها حوالي ٢٠٠٠ ق . م . قادماً من الشمال عبر الممرات الالبية ليتوضع في منطقة البحيرات الشمالية وفي سفوح جبال الالب جالباً معه تأثيرات ثقافات منطقة حوض الدانوب الاعلى وسويسرا . هؤلاء المهاجرين تميزوا عن سابقيهم من سكان ايتاليا في العصر الحجري باستخدامهم أدوات مصنوعة من البرونز وبذلك يعتبر مجيء هذا الشعب علامة فاصلة تحدد نهاية العصر الكالكوليتيكي وبداية عصر **البرونز** حيث تختفي الادوات المصنوعة من الحجارة والعظام ليسود مكانها أدوات وأسلحة البرونز . ومن المنطقة التي توضع فيها المهاجرون الجدد يمكننا أن نشتق اسم مستعمراتهم التي توضعت فوق البحيرات فبنيت البيوت الخشبية فوق أعمدة وأسافين من جذوع الاشجار غرست في أرض البحيرة وكانت وسيلة لحمايتهم من الوحوش والاعداء ، فعندما يرفع الجسر الخشبي الذي يصل القرية أو البيت بالارض اليابسة يصبح السكان في عزلة تامة وأمان . ولذلك يطلق المؤرخون على هذا النمط من المستعمرات اسم المستعمرات البالافيتية Palafitte [١] .

أما نظام معيشة السكان البالافيتيين فقد كان نظاماً يجمع بين الزراعة والصيد ، خاصة وأن البحيرات التي سكنوا بجوارها كانت تؤمن لهم موارد وفيرة من الاسماك . وقد أنتج البالافيتيون أواني فخارية تختلف عن أواني المناطق الايتالية في العصر النيوليتيكي اذ زخرفت بالخطوط المنكسرة والدوائر . كما أن علاقاتهم التجارية كانت وثيقة مع مناطق

---

(١) هذه التسمية مشتقة من اللغة الايتالية وتعني كلمة Palafitte صف من الاعمدة أو الاوتاد .

التحقق منه هو احاطة القرى نفسها في بعض الاحيان بجدران ركيكة الصنع شيدت من تراب عادي وأحيطت بخنادق من الخارج .

مارست شعوب الترامارا عادات حرق الموتى وإيداع رماد جثثهم في جرار خاصة أطلق عليها اسم Urn ولعلهم اقتبسوا هذه الطريقة عن اسلافهم البالافيتيين . غير أن **التراماريكوليين** اختلفوا عنهم في البدء في أنهم لم يودعوا مع بقايا الجثث المحروقة الحلي والادوات الخاصة بالميت ، وكانوا يدفنون الجرار في صفوف متجاورة ثم ماتلبث الجرار أن تعزل عن بعضها فينشأ عن ذلك بالنتيجة قبر منفرد لكل ميت . ومع شيوع هذه الطريقة يلاحظ أن التراماريكوليين بدأوا في ايداع الادوات الشخصية والهدايا ضمن المدافن ولعل ذلك دليلاً على الثراء الذي وصلوا إليه خلال اقامتهم في المنطقة واكتسابهم لعادات أهلها . وعلى كل فان هجرة التراماريكوليين الى شمال ايتاليا ليست الهجرة الوحيدة التي حدثت هناك في عصر البرونز رغم إتساع انتشار عناصرها بل رافقتها هجرات أخرى أقل قوة . ورغم ذلك فلا يمكننا قبول الرأي القائل بأن التراماريكوليين قد قاموا بهجرة لاحقة توغلت جنوباً في شبه الجزيرة الايتالية وبالتالي فان الرأي الذي يرى في التراماريكوليين الاسلاف الاوائل للقبائل اللاتينية لايستند بالمثل الى براهين وثيقة . وفي الحقيقة جاء أسلاف الايتاليين الى المنطقة في شكل هجرات تالية قدمت من الشمال والشمال الشرقي في أعقاب هجرات التراماريكوليين . أما ايتاليا الوسطى والجنوبية فقد كانت حضارة عصر **البرونز** فيها تتمة لحضارة العصر الكالكوليتيكي ولا يخفى في تطور هذه المناطق التأثير الذي مارسه شعب التراماريكوليين رغم ضآلته ، وعلى العموم فقد بقي سكانها مجتمعاً يعيش على الصيد وعلى رعي المواشي . ولا يميز تلك الفترة إلا الاتصالات الحضارية الهامة التي تمت بين العالم

الايجي وبين مناطق جنوب ايتاليا وصقيلية ، خاصة مع الشواطيء الشرقية المطلة على البحر الادرياتيكي والتي كان من نتيجتها وصول مصنوعات وبضائع الحضارة الميكينية وفي مقدمتها الفخار الميكيني الجميل والاسلحة البرونزية الرشيقة من خناجر وسيوف الى جزيرة صقيلية في الفترة الواقعة بين ١٤٠٠ – ١٢٠٠ ق . م .

أما جزر سردينيا و كورسيكا فقد كان اتصالها الطبيعي مع اسبانيا حيث توفرت مادة الزنك الضرورية لصناعة البرونز . وستؤدي عزلتها في الفترة المقبلة الى انحطاط حضاري يصاحب عصر الحديد في هذه الجزيرة .

٣ – ايتاليا في أوائل الالف الاول قبل الميلاد :

رأينا في ماتقدم أن التطور الحضاري في ايتاليا لم يكن متسقاً في خلال العصور السابقة في كافة المناطق ، بل أن الطبيعة الجغرافية للبلاد والهجرات المتتالية التي حلّت في مناطق معينة كانت العامل الاساسي في تأخر أواسط ايتاليا وتقدم شمالها وجنوبها .

حوالي نهاية الالف الثاني قبل الميلاد تحدث في كل أوربا حركات واسعة وهجرات شعوب تؤدي إلى تسديد ضربة قاضية إلى بلاد آسيا الصغرى والعالم الايجي. ولقد كان من نتيجة غزوات الشعوب المسماة **«بشعوب البحر»** القضاء على معالم الحضارة في سورية وفلسطين وتدمير مدنها بالنار والحديد ، لذلك لن تفلح هذه المنطقة من النهوض من كبوتها الا بعد انقضاء قرون عديدة من العزلة . ولربما لم تتعرض أوربا إلى أضرار مماثلة نتيجة حركات هذه الشعوب ، ذلك أنها كانت غير متحضره آنذاك . وبالتالي مرت هذه الموجات فوقها دونما خسائر كبيرة . ومع ذلك لم تنج ايتاليا من الخراب حيث تلمس آثار التدمير فيها حتى أقصى الجنوب في صقيلية نفسها . رغماً

من أن الكثير من القرى الايتالية قد أقامت التحصينات حولها حوالي ١٢٥٠ ق . م . وكان من نتيجة الهجرات المدمرة أن تقلصت صلات ايتاليا وأوربا الوسطى مع العالم الايجي بصفة خاصة ومع منطقة شرقي البحر المتوسط بصفة عامة لمدة خمسة قرون . الا أن معدل التطور في غربي البحر المتوسط وفي أوربا يأخذ بالتسارع إلى درجة كبيرة اعتباراً من الالف الاول قبل الميلاد . اذ تحصل خلال هذه الفترة التوزعات اللغوية التاريخية وينشأ عنها تقدم حضاري ملحوظ ، وبالتالي كانت شعوب ايتاليا على ما يبدو متهيئة هذه المرة للاستفادة من تجدد العلاقات والصلات مع عالم الشرق المتحضر . ويتضح بنتيجة حركات الشعوب التي حدثت في اواخر الالف الثاني قبل الميلاد أن الشعوب المتكلمة باللغة **الهندو اوربيه** تتسلم السيادة في مناطق أوربا . أما كيفية دخول الشعوب الهندية ــ الاوربية الى ايتاليا وزمان حدوث هذه الهجرات فما يزال غامضاً على المؤرخين وهذا مرده إلى فقدان الوثائق الكتابية التي تستطيع وحدها القاء أنوار ساطعة على هذا الفصل الهام من تاريخ ايتاليا . وعلى العموم نرى كافة سكان ايتاليا في بداية العصور التاريخية يتكلمون لهجة من اللهجات الهندية ــ الاوربية ما خلا الليغوريون سكان مناطق الشمال الغربي والاتروسكيون الذين غزوا ايتاليا مؤخراً .

علاوة على ما أدخلته هجرة التراماريكولين إلى شمال ايتاليا من تقدم تكنيكي وفني نرى ان أدخال صناعة الحديد واستثماره تنطلق أول الامر من شمال ايتاليا نفسها ، وذلك على الارجح بفضل هجرات مجموعات جديدة من الشعوب الناطقة باللغة الهندواوربية القادمة من حوض الدانوب الاعلى . وتكون هذه الهجرات سبباً في اسراع عملية التطور الحضاري في شمال ايتاليا التي ستسبق أواسط أوربا في هذا المضمار ، وتتميز الحضارة الجديدة باستعمال معدن الحديد ومزاولة عادة حرق جثث الموتى بدلا من

دفنها ولسوف نطلق عليها اسم **الحضارة الفيلانوفية** Villanovan نسبة إلى الموقع الذي يحمل نفس الاسم والواقع قرب مدينة بولونيا في شمال ايتاليا . أما منطقة انتشار الحضارة الفيلانوفية الرئيسية فكانت سهل البو والمناطق الغربية الممتدة جنوباً حتى اللاتيوم . وبالطبع فقد امتصت هذه الحضارة العناصر المتبقية من الهجرات السابقة في عصر البرونز وتمثلتها . والملحوظ أن بيوت وأكواخ الحضارة الفيلانوفية كانت تماثل في مخططاتها الدائروية نماذج بيوت المستعمرات التراماريكولية كما أن القرى لم تكن مبنية وفق مخطط نظامي . وتنفرد الحضارة الفيلانوفية في فترتها الاخيرة بجرار برونزية ذات شكل نصف مخروطي فريد استعملت لايواء رماد وعظام جثث الموتى المتخلف عن عملية الحرق Cremation . كذلك تدل الادوات والحلي الوفيرة والاسلحة الحديدية من فؤوس وسيوف ورماح على درجة كبيرة من الثراء والرفاهية ، تتمثل أيضاً في أصناف الثياب الصوفية التي كانت تثبت على الجسم بواسطة مشابك من البرونز غنية بالزخارف والتزيينات . وفي الحقيقة لم يقض ادخال الحديد في صناعة الادوات المختلفة على مادة البرونز ، بل أنها بقيت قيد الاستعمال أيضاً وتوصل الفنانون الفيلانوفيون إلى تطوير صناعتها بفضل استعمال طريقة جديدة هي طرق المعدن لانتاج الصحاف البرونزية الجميلة والخوذ والدروع .. الخ وغيرها من الادوات المنزلية .

٤ ـ دخول الشعوب الشرقية الى ايتاليا :

الهجرات الاغريقية والفينيقية والاتروسكية :

لا بد لفهم الدور الهام الذي لعبته هجرات الشعوب الشرقية في تطوير ودفع عجلة الحضارة في ايتاليا من التعرف بشكل موجز على الوسط الذي نشأت فيه والظروف التي أدت الى توطنها في أراضي ايتاليا .

فبعد غزوات الشعوب المدمرة التي أصابت الشرق القديم بالشلل لقرون عديدة سنرى الشرق وسورية بصفة خاصة تستعيد نشاطها اعتباراً من القرن الثامن ق . م . حيث يستلم الآراميون أمور التجارة البرية بين سوريه وجوارها . ويتزعم الفينيقيون على الساحل حركة الملاحة والتجارة البحرية مستفيدين من الاستقرار الذي فرضته الامبراطورية الآشورية على المنطقة .أما العالم الايجي فقد انتقلت مراكز الحضارة منه إلى الوطن اليوناني الأم الذي لم تكن طبيعته الجغرافية تساعد على استيعاب هذه الاعداد الكبيرة من المهاجرين والمستوطنين فيه . لذلك نرى قيام حركة هجرة وتوسع كبيرة صدرت عن بلاد اليونان ساعدها تقدم وسائل الملاحة التي جعلت الوصول إلى أقاصي البحر المتوسط حتى اسبانيا أمراً ممكناً . وبالطبع كان من المحتم أن تصطدم مصالح الشعبين البحريين الكبيرين في شرقي البحر الابيض ونعني بهما **الفينيقيين واليونان** وأن تنشأ بينهما منافسات للسيطرة على الطرق التجارية من جهة وعلى استيطان المستعمرات التجارية العديدة المنتشرة على شواطيء البحر المتوسط من جهة أخرى والتي تعتبر بحق مفاتيح التجارة مع شعوب المناطق الداخلية ونقاط استناد رئيسية لتسهيل عمليات الملاحة الطويلة المدى .

وبالمقابل كانت المنطقة الغربية من البحر الابيض المتوسط وشعوبها المستوطنة على شواطيء هذا البحر ماتزال حوالي ٨٠٠ ق . م . تعيش في نظم اجتماعية تعتمد بالدرجة الاولى على الفلاحة والزراعة ويفصلها عن المستوى الحضاري والسياسي الذي كانت عليه شعوب المنطقة الشرقية بون شاسع . ويمكن القول أن المنطقة الغربية كانت ماتزال في حالة بدائية فهنالك إلى جانب الزراعة أعمال استخراج معادن الحديد والنحاس والزنك وتصنيعها اليدوي ، وصناعة الاواني الفخارية التي كانت تزخرف ببساطة

بالرسوم الهندسية في ايتاليا . أما التكوين الاجتماعي فقد تألف من طبقة من الزعماء المحاربين الذين يعتمدون على الفلاحين من أفراد قبائلهم في الاعمال العسكرية . كل هذه المقومات الاجتماعية والاقتصادية تشير بوضوح إلى التخلف الحضاري الذي تعيشه مناطق البحر المتوسط الغربية ، وتفسر الاتجاه الكامن لدى شعوب المنطقة الشرقية في التوسع والاستثمار هناك ، خاصة وأن شعوب المنطقة حتى في جنوب بلاد غاليا كانوا يتطلعون بشوق لشراء الاواني الفخارية اليونانية الجميلة ومصنوعات البرونز وحتى نراهم يقدمون على استعارة الابجدية اليونانية واستخدامها . ولعل الظروف الخاصة في ايتاليا هيأت هذا البلد قبل شمال أفريقيا واسبانيا لتلقي التيارات الشرقية وتمثلها والاستفادة من مقوماتها مما عجل في دخول شبه الجزيرة في العصور التاريخية .

الاغريق :

١ — قدم اليونان الى ايتاليا عن طريق البحر في الفترة الواقعة بين منتصف القرن الثامن ومنتصف القرن السادس قبل الميلاد وتوضعوا في مستعمرات عديدة ونشروا معهم تقاليد الحضارة الهللينية . ولا يخفى علينا أن الخط الذي اتبعه اليونان في استيطانهم قد اقتفى أثر أسلافهم التجار الميكنيين في الالف الثاني . إلا أن الموجة الحالية تمتاز عن سابقتها قوة وحيوية إذ تضع لمستعمراتها جذوراً قوية لا في الجزر الايتالية فحسب ولكن في أرض شبه الجزيرة نفسها أيضاً . وكانت أول محاولة من هذا النوع تأسيس المستعمرة اليونانية في **كوما** Cumae على ساحل كامبانيا حوالي منتصف القرن الثامن قبل الميلاد ، متوغلة بذلك شمالا ضمن ايتاليا وتعتبر أقرب مستعمرة يونانية أسست في جوار روما عاصمة الامبراطورية المقبلة . ولعل الدافع الذي يكمن وراء اختيار المستعمرين اليونانيين لهذا الموقع

قربه من طريق تجارة النحاس والحديد الذي كان ضروريا لليونانيين . وتلى انشاء مستعمرة كوما تأسيس عدد لابأس به من المستعمرات اليونانية على الشواطيء الجنوبية من ايتاليا كما وفي جزيرة صقيليه في أوائل القرن الخامس قبل الميلاد وهنا يجب التنويه بأن معظم هذه المستعمرات كانت ذات طبيعة زراعية توطن فيها العديد من اليونانيين الذين هاجروا من وطنهم الأم نتيجة خيبة أملهم هناك . وفي الواقع سيكون لهؤلاء المهاجرين الفضل الأكبر في نقل تأثيرات المدنيّة الاغريقية المادية والفكرية إلى الشعوب الايتالية البدائية . واعتباراً من القرن السابع ق . م . يبدأ الامراء الايتاليون باقتباس العادات الاغريقية وبالتفاخر بانحدارهم من أبطال وآلهة الاغريق كما أن الفنانين الاغريقيين المتوضعين في اتروريا الجنوبية يبذرون البذور الاولى للتقاليد الفنية ومنها بناء المعابد . وبالتالي تأخذ المؤسسات الدينية والعسكرية الايتالية باعتبار النماذج الهيللينية قدوة لها . اضافة إلى ذلك ندين الى المؤرخين والجغرافيين اليونان الاوائل في الحصول على وثائق مدونة عن ايتاليا والشعوب التي كانت تسكنها . كذلك كان الفضل لهؤلاء الكتاب في صياغة الاساطير التي تدور حول تاريخ ايتاليا الباكر .

الفينيقيون :

٢ ـ أما عن التيار الثاني الذي قدم من الشرق ونعني به الفينيقيين فان الظروف السياسية والجغرافية لم تسمح لهؤلاء أن يلعبوا دوراً مماثلاً لدور الاغريقيين في ايتاليا . ولا ننسى أن الفينيقيين في وطنهم الأم كانوا رغم كفاءاتهم التجارية والبحرية والفكرية العالية محدودون من الناحية السياسية . إذ لم تستطع الفردية الطاغية لدى مدنهم أن تخرجهم من نطاق دولة المدينة إلى دولة الشعب الواحد ناهيك عن التنافس الشديد

والخصومات التي كانت تفترس المدن الفينيقية على الساحل السوري . كذلك لم يتح للفينيقيين أن يتنفسوا الصعداء بعـــد زوال النفوذ المصري عن منطقتهم واضمحلال مدن الحضارة الايجية المنافسة لهم في البحر المتوسط حتى تفرض الامبراطورية الآشورية الحديثة نفسها وصية جديدة على سورية فيقضي احتلالها المنطقة على كل أمل في احتمال قيام مملكة فينيقية مزدهرة اقتصادياً ومتحررة سياسياً من الضغط الاجنبي . كذلك لا عجب أن تنعكس هذه التأثيرات المتعددة بصورة سلبية على النشاط التجاري والحضاري للفينيقيين وأن تحد بصورة خاصة مساهمتهم في استعمار جنوب ايتاليا وجزيرة صقيليه . وعلى الرغم من أن الفينيقيين قد أسسوا بعض المستعمرات في صقيليه وسردينيـــا وكورسيكا وكانت قرطاجة قلبها ونواتها فان ضعف المدن الفينيقية في الوطن الأم وعجز مدينة صور عن الدفاع عن هذه المستعمرات كان العامل الثاني في ضعف وزوال المستعمرات الفينيقية في ايتاليا ، بعد أن ناءت قرطاجة وحدها بحمل هذا العبء الثقيل ، وبمقارعة الاغريقيين طويلا في صقيليه وساردينيا ومن ثم بمواجهة العسكرية الرومانية النامية التي سدت على القرطاجيين السبل في منطقة البحر المتوسط الغربية كافة حتى طردتهم نهائياً منها [1] .

الاتروسكيين :

٣ ــ على الرغم من المكانة الكبيرة التي احتلتهـــا هجرة الشعب الاتروسكي إلى البلاد الايتالية فان تاريخ الاتروسكيين لايزال غامضاً حافلًا بالتضاربات واختلاف الرأي حول أصلهم . فالمؤرخ هرودوت يعيد رواية قصة تتحدث عن قدوم الاتروسكيين من الحوض الايجي أثر نشوب مجاعة اجتاحت المنطقة . ويميل المؤرخون المعاصرون إلى تأييد

---

(١) سنتعرض لذلك في تفاصيل الحروب البونية .

هذه الرواية مبررين ذلك في أن لغة الاتروسكيين الغريبة لاتنحدر من أصل هندي ـ اوربي وأن صلاتهم بالعادات الشرقية قوية لدرجة غريبة . وبالمقابل يعتبر المؤرخ الاغريقي ديونيزوس الهاليكارناسي أن الاتروسكيين ينحدرون من أصل ايتالي ويشاطره هذا الرأي علماء الآثار الذين يشددون التأكيد على عدم وجود انقطاع في تطور الحضارة في منطقة اتروريا ابتداء من الحضارة الفيلانوفية حتى العهد الاتروسكي نفسه . ويميل الرأي المعاصر إلى الاعتقاد بأن جماعات من الاتروسكيين هاجرت من آسيا الصغرى وليديا متجهة نحو الغرب حتى استقرت في الاراضي البركانيـــة المسماة اتروريا والتي تقع بين نهري الارنو والتيبر حوالي بداية القرن الثامن ق . م . وقد استولى الاتروسكيون على المنطقة وأخضعوا الشعوب الهندية الاوربية التي كانت قد هاجرت الى اتروريا في أوائل العصر الحديدي وبقايا السكان الاصليين الذين توطنوا هنا من العصر النيوليتيكي لسلطتهم . وكان الاتروسكيون يختلفون عنهم في اللغة والتقاليد الثقافيـة . وما أن يحل القرن السادس ق . م . حتى يتمكن الاتروسكيون من توسيع فتوحهم حتى تشمل الاقسام الشرقية والوسطى من سهل البو . وبنفس الوقت يؤسسون مستعمرات في جزر كورسيكا والبا وفي منطقة كامبانيا ويتوزعون في أنحاء متفرقة من منطقة اللاتيوم .

أخيراً وقبل أن نتعرض بالتفصيل لحضارة الاتروسكيين وتاريخهم يجدر بنا أن نلقي نظرة عاجلة على الشعوب الأخرى التي كانت تسكن شبه جزيرة ايتاليا في القرن السادس قبل الميلاد لكي تكتمل الصورة لدى الباحث عن هذا الموزاييك من العروق واللغات الذي يطبع باكورة التاريخ الروماني بطابع خاص من الغموض والتشابك .

كان الشمال الغربي من ايتاليا بما في ذلك سهل البو مسكونا في القرن

السادس ق . م . من قبائل الليغوريين الذين يمكن اعتبارهم الاحفاد المباشرين لشعوب ايتاليا في العصر النيوليتيكي والذين بقوا إلى حد كبير بمعزل عن الشعوب الاخرى التي هاجرت في الفترات التالية إلى ايتاليا وقد شكل الليغوريون القسم الاكبر من سكان جزيرة كورسيكا . ومع بداية العصور التاريخية نراهم يتكلمون اللغة الهندية الاوربية . إلا أننا لانعرف الظروف التي أدت إلى اكتسابهم لهذه اللغة .

أما القسم الشرقي من ايتاليا القارية واعتباراً من نهر البو حتى جبال الالب فقد كان يسكنه الشعب الايلليري المسمى بالفنيتي Veneti الذي تنتسب لغته إلى اللغة الهندية الاوربية ، وإلى جوارهم نحو الشمال والغرب تمركز شعب الراتي Raeti الذين خضعوا في القرن السادس لسلطة الاتروسكيين .

أخيراً وليس آخراً نذكر من بين الشعوب التي استوطنت المنطقة الواقعة جنوبي نهر التيبر شعب **اللاتين** الذين قدر لهم بعد عدة قرون أن يصبحوا زعماء الشعوب الايتالية الأخرى ، مقدمين بذلك مساهمة قيمة للحضارة العالمية دامت مئات من السنين . وفي الواقع يتألف سكان منطقة اللاتين من تمازج مجموعتين عرقيتين مختلفتين احداهما كانت تمارس دفن موتاها وهي من بقايا السكان النيوليتيكيين والاخرى كانت تتبع عادة حرق جثثهم وايداع بقاياها في جرار خاصة وتتكلم لغة هندية أوربية . ومن الواضح أن السيادة كانت لهذه الفئة الاخيرة التي غزت المنطقة واندمج معها في أوائل القرن السادس حفنة من الاتروسكيين الذين توضعوا في اللاتيوم مع قبائل أخرى متنوعة تعتبر من نفس طينة شعب اللاتين .

من هذا الاستعراض القصير لشعوب ايتاليا غداة نهاية القرن السادس

ق . م . يستطيع المرء أن يدرك أن ايتاليا لم تكن تشكل آنذاك وحدة عرقية في مقاطعاتها المختلفة ولا وحدة ثقافية . ولسوف تضيف طبيعة ايتاليا الجغرافية إلى هذه العقبة صعوبات أخرى تزيد عمليه تشكيل الأمة الايتالية القديمة وتوحيدها سياسياً تعقيداً .

الاتروسكيون والاغريق في ايتاليا

١ ـ الاتروسكيون وحضارتهم :

نظم **الاتروسكيون** أنفسهم بعد توضعهم في ايتاليا متبعين نظام حكم دولة المدينة في مدن veii و Caere و Tarequinia .. وغيرها من المدن التي اتحدت اثنى عشر دولة منها في حلف ديني ، احتفظ لكل من هذه المدن باستقلالها الذاتي كلية .

وقد نشأ عن تنظيمهم السياسي خلق تكنيك حربي متفوق ، استخدم الاتروسكيون فيه الالبسة المدرعة الثقيلة والعربات الحربية المصنوعة من معدن البرونز واستطاعوا بفضلها بسط نفوذهم ـ باديء ذي بدء تحت زعامة ملوكهم ثم تحت رئاسة الارستقراطيين منهم ـ على المناطق المجاورة بشكل سريع شامل . وبالنظر إلى أن مراحل هذا التوسع المسلح قد تمت في باكورة فجر التاريخ الايتالى فانه يتعذر على المؤرخين التعرف بشكل مفصل على خطواته وأساليبه . ومهما يكن الامر يبقى الاتروسكيون بالنسبة للشعوب الايتالية المعاصرة لهم ، أقلية ارستقراطية تمتعت بتفوق حضاري كبير وتنظيم عسكري مكنهم من فرض حكمهم ولغتهم على الشعوب التي أصبحت تابعة لهم . وقد عمد الاتروسكيون في تعاملهم مع هؤلاء الاتباع على ابقائهم في مركز التبعية ولم ينصهروا معهم اجتماعياً بل استغلوا قواهم البشرية وجهودهم لتدعيم قوتهم العسكرية .

أما القوة الرئيسية التي وقفت في وجه التوسع الاتروسكي وقامت تدافع عن مصالحها الحيوية والتجارية في المنطقة فقد كانت قوة المستعمرين الاغريق الذين توضعوا مقدماً في جنوب ايتاليا وجزيرة صقيلية وأسسوا مستعمرة Cumae قرب روما . وقد أدرك الاتروسكيون خطر هذا المنافس العنيد الذي لايقل عنهم حضارة ونفوذاً فحاولوا طرده أمامهم واحتلال مدنـــه ولكن محاولتهم احتلال مدينة كوما الاغريقية باءت بالفشل اذ استطاع الاغريقيون صدهم عنها . ازاء المقاومة العنيفة التي أبداها الاغريقيون لجأ الاتروسكيون إلى خطة أخرى أثبتت الاحداث نجاحها فقد عمدوا للتعاون ثم التحالف مع المستعمرين القرطاجيين – اعداء الاغريق الالداء – ومنافسيهم الرئيسيين في استغلال موارد وأسواق الشعوب الايتالية المتأخرة . وكانت الثمرات الاولى لهـذا التعاون نجاحهم في قهر المستعمرين الاغريقيين في جزيرة كورسيكا . عندما تمكنوا بمساعدة القرطاجيين من ارغام الاغريق على التخلي عن مستعمرة ألاليا Alalia حوالي العـام ٥٢٤ ق . م . بعد معركة بحرية كبيرة دارت بين اسطول الحلفاء القرطاجيين – الاتروسكيين واسطول أعدائهـــم . وبذلك توصلوا لوضع يدهم على غابات جزيرة كورسيكا الواسعة الغنية منطلقين اليها من الشريط الساحلي الضيق الذي كانوا يمتلكونه على الشاطىء الشرقي لهذه الجزيرة . كذلك أصبح البحر التيراني بحيرة خاضعة لنفوذهم .

ولم ييأس الاغريقيون من هذه الخسارة بل استمروا يقاومون الاتروسكيين بضراوة ويعرقلون سير التوسع الاتروسكي نحو الجنوب خاصة في مناطق كامبانيا الغنية ، ولعل هذه المقاومة سبباً في فشل الاتروسكيين توحيد كافة ايتاليا تحت حكمهم بعد أن دان لهم القسم الاكبر من مناطقها الوسطى والشمالية التي كان احتلالها ثمرة تحالفهم مع القرطاجيين ، وبالتالي

أخطأ الاتروسكيون في اتباعهم سياسة دول المدن بدلا من فرض سياسة مركزية شاملة تهيمن على كل المناطق التابعة لهم . علاوة على ذلك قتلت معاملة الاتروسكيين القاسية لأتباعهم كل أمل في تعلق هؤلاء بنظام الحكم الجديد بل ودفعتهم إلى خيانة أسيادهم والتمرد عليهم .

أدى انحلال عرى التحالف الاتروسكي وقيام الشعوب الايتالية إلى فقدان الاتروسكيين سيادتهم السابقة على أجزاء كبيرة من ايتاليا . وقد جاءت الضربة الاولى في منطقة اللاتيوم عندما طرد الرومان ملكهم الاتروسكي عام ٥٠٩ ق . م ومن ثم انحازت بعض المدن اللاتينية إلى جانب المستعمرين الاغريقيين في مدينة كوما وتمكنت معهم من هزيمة جيش أتروسكي . وكرر الاتروسكيون الهجوم على هذه المدينة من البحر الا أن نجدة حاكم سيراكوزه الذي قدم بأسطوله من صقيلية أدت إلى انقاذ المدينة وتدمير الاسطول الاتروسكي عام ٤٧٤ . وبهذا تداعت قوة الاتروسكيين البحرية أيضاً . واستمرت الاعمال العدائية ضد الاتروسكيين في مطلع القرن الرابع فكان من نتيجتها احتلال المرافيء الاتروسكية الواقعة في البحر الادرياتيكي . وفي حوالي ٤٤٠ ق . م يتمكن السامنتيون سكان المناطق الجبلية في أواسط الابنين من انتزاع مدينة كابوا وتسديد ضربة قوية إلى الحكم الاتروسكي . أما الضربة القاضية فقد سددتها اليهم غزوة القبائل الكلتيه القادمة من أواسط أوربا في أواخر القرن الخامس والتي استولت على سهل البو وعاثت فساداً في أواسط ايتاليا الى ان تمكن الرومان من ايقافها . ومن المرجح أن الاتروسكيين هزموا في مدنهم مدينة تلو الاخرى على يد القوة الرومانية الناشئة . واعتباراً من القرن الثالث ق . م . يكف الاتروسكيون عن ممارسة أي دور فعال في التاريخ الروماني ، رغم أن السادة الاتروسكيون استمروا في التمتع بعيش

مترف بفضل ماقدمته لهم حقولهم ومناجمهم من ثروات . وينتهي الكلام عن الاتروسكيين كشعب مستقل عندما يتم تمثلهم وامتصاصهم في المجتمع الروماني الجديد .

مكانة الاتروسكيين الحضارية :

على الرغم من دور الاتروسكيين السياسي في ايتاليا الذي تجلى في ادخالهم نظام حكم دولة – المدينة في معظم أرجاء ايتاليا الوسطى من جهة ، وفي اجبار الشعوب المحلية على التلاحم والتماسك سعياً وراء الاحتفاظ باستقلالها ، يتضح للمتتبع لتاريخ الشعب الاتروسكي أن دوره الحضاري كان أكثر أهمية وأعمق أثراً في التاريخ الروماني . فقد جلب الاتروسكيون الحضارة الشرقية معهم إلى ايتاليا الوسطى بصفة عامة وإلى الرومانيين بصفة خاصة . وكان من إحدى نتائج ذلك أن استعار الرومانيون الابجدية من الاتروسكيين الذين اقتبسوها بدورهم من الاغريقيين حوالي ٧٠٠ ق . م .

وفي الحقيقة إذا تكلمنا عن الحضارة الاتروسكية فلا يعني ذلك أن هذه الحضارة اتروسكية صرفة مائة بالمائة بل هي نتاج لعناصر اصلية أبدعها الاتروسكيون ، امتزجت خلال اقامتهم الطويلة في ايتاليا بعناصر قوية من الحضارة الاغريقية تلقوها سواء عن طريق المستعمرين الاغريق أو من بلاد اليونان الأم مباشرة حيث تاجروا مع أثينا نفسها ونقلوا بضائعها على سفنهم ، وبخصائص محلية تمتعت بها الشعوب الايتالية . ومما لا ريب فيه أن هذا الالتحام والتمازج لم يكن ليتم لولا العلاقات التجارية القوية التي نشأت بين العناصر البشرية الآنفة الذكر والتي وجدت في المستعمرات الاغريقية في الجنوب مركزاً قوي الاشعاع .

وأبسط مثال يمكن طرحه تأييداً لهذا الاستنتاج يتلخص في تطور

صناعة النقود لدى الاتروسكيين بعد أن توسعت تجارتهم إلى حد فرض عليهم استخدام العملة في المبادلات التجارية . فاعتباراً من نهاية القرن السادس ق . م . نرى الاتروسكيين يطرحون قطع النحاس الركيكة التي كانوا يستعملونها لهذه الغاية ، ويستعيضون عنها بنقود المدن الايونية الاغريقية ، وما يلبثوا في مطلع القرن الخامس ق .م . أن يأخذوا في صك نقودهم الخاصة من الذهب والفضة والنحاس . ومن الطريف بمكان أن توشح المدن الاتروسكية نقودها بصورة شعار مقتبس من **ليديا** في آسيا الصغرى ، مما يدفع المؤرخ الى الظن بأن استعمال هذا الشعار يخفي وراءه موضع الوطن الأصلي الذي نشأ الاتروسكيون فيه . على أن الاطرف من ذلك أن تفوز عناصر الحضارة الاغريقية المجاورة مرة أخرى عندما يتخلى الاتروسكيون عن هذا الشعار ليوشحوا نقودهم بشعار اغريقي كان شائعاً في شبه جزيرة أوبوئيا وفي منطقة كامبانيا .

وعلى العموم يحق القول بأن حضارة الاتروسكيين قامت على متابعتهم للزراعة والصناعة والتجارة بنشاط وخبرة كبيرين . فاليهم ينسب المؤرخون كثيراً من الاختراعات البارزة ، وتربية الخيل وزراعة الكرمة وحماية التربة من الإنجراف ببناء أنفاق وسدود في المناطق المهددة . كما أنهم استغلوا موارد ايتاليا المعدنية وطوروا صناعات الحديد والبرونز والفضة والذهب إلى حد بعيد ، بالاضافة الى اشتهارهم بانتاج الاواني الفخارية السوداء اللامعة الجميلة المعروفة باسم bucchero nero التي كانت في الاصل من صنع الشعوب المحلية ومن ثم تبناها الاتروسكيون وأصبحوا يصدرونها إلى بلاد اليونان نفسها . ولعل كميات الحلي الذهبية الكبيرة التي عثر عليها في المدافن الاتروسكية خير شاهد على ما بلغه هؤلاء من مهارة في صناعة

الصياغة وبالتالي ناطقاً بليغاً يفصح عن الإزدهار الاقتصادي الذي وصلته الارستقراطية الاتروسكية .

أما الميدان الذي أبدع الاتروسكيون فيه إلى حد كبير فكان ميدان الفن بصورة عامة والنحت والتصوير والعمارة بصفة خاصة ، ولقد تأثر فن النحت الاتروسكي الى حد كبير بالفن الاغريقي فكان يعرض في تطوره معالم التطور الطارئة على المنحوتات الاغريقية ويقلدها عن طريق منتجات المستعمرات الاغريقية في جنوب ايتاليا . بالإضافة الى ذلك تعرض التماثيل الاتروسكية المصنوعة من الحجر أو البرونز أو الصلصال المشوي ، تعرض في تنوعها الاختلافات المحلية التي تطبع المجتمع الاتروسكي بطابعها . وقد امتاز الفنانون الاتروسكيون بمهارتهم التكنيكية وباهتمامهم الكبير بالجسم البشري ، الذي تكشف التماثيل الجنائزية المنحوتة على التوابيت عن واقعية ساذجة في تصوير تعابيره . ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الواقعية نفسها ستكون القوة الكامنة في الفن الروماني فيما بعد .

يعكس لنا التصوير الاتروسكي تأملات ساحرة خلدتها مواضيع مستمدة من مشاهد الحياة اليومية : من مشاهد صيد سمك ومراكب ... الخ وصور نصفية لأناس موتى تطفح تعابيرهم بالوقار وجلال الموت . وفي هذا الفرع من الفن يستشف المشاهد أيضاً تأثيرات الفن الاغريقي جلية إلا أن الفرق بين المدرستين يتلخص في ميل الفنان الاتروسكي إلى النزعة الواقعية الأرضية[1] بينما يضفي زميله الاغريقي طابعاً ميثولوجياً سماوياً على مواضيعه .

كذلك كان هنالك فروق في مواضيع تسجيل الصور فهي تشيع

---

(١) يتجلى هذا الاتجاه في صورة الشاب العازف على قيثار مزدوج والذي خلدت صورته في قبر من مدينة Tarquinia .

في الفن الاتروسكي على جدران المدافن الواقعة تحت الارض بالدرجة الاولى . أما في الفن الاغريقي فميدانها الاول سطوح الاواني الفخارية الجميلة.

تشتمل القبور الاتروسكية على أجمل بقايا تخلد حضارة هذا الشعب. فقد بنيت على أنماط عديدة منها **قبور التلال** Tumuli الاصطناعية التي تحتوي غرفة المدفن ، أو **القبور الدائرية** الشكل Tholoi المبنية من الحجارة ، ذات السقوف المعقودة والتي توضعت على سفوح الهضاب والمرتفعات ، كما هنالك القبور المصممة بشكل ممرات طويلة وتحتوي غرفاً كثيرة حفرت في الصخر الاصم . وبالتالي كانت القبور تزود بالأعمال الفنية الرائعة كالنقوش المحفورة على جدارن الصخر والافاريز المصورة بالألوان ، والتي نستمد منها أكبر مصدر لمعلوماتنا عن الحضارة الاتروسكية بعادات أهلها وتقاليدهم وملابسهم وشعائرهم ... الخ .

أما المباني الدينية والمدنيّة فان عناصرها تفصح عن مزيج من الاتجاهات الشرقية والاقتباسات المحلية . فالمعابد بنيت مزودة بأعمدة صيغت على النمط الاغريقي ، بينما رفع المعبد على مصطبة عالية وحذفت الاعمدة من جانبيه وخلفه مما يشير إلى مخطط اتروسكي المنشأ . وهذا يؤكد الحقيقة الراهنة في أن الاتروسكيين لم يكونوا مجرد مقلدين أو مطبقين للقواعد الاغريقية الفنية أو المعمارية بل كان لهم مفاهيمهم الخاصة الاساسية التي قد تقتبس الشكل ولكنها تترك لنفسها معالجة الموضوع وتطبيق التكنيك المناسب .

وفي الواقع إذا تساءلنا عن طبيعة الفوارق التي تميز الاتروسكيين في تعابيرهم المادية ، لاحظنا في غالب الاحيان أن عامل الدين يكمن وراء ذلك . ولقد اختلف الاتروسكيون في ديانتهم في أنهم عبدوا على نقيض الشعوب الايتالية آلهة لها أشكال بشرية . وسنرى أن الرومان سيقتبسون

فيما بعد ثالوث آلهتهم الكبير **تينيا - أوني - مينرفا** بعد إعطائها أسماء ايتالية[1] .

ولعل وراء الديانة الاتروسكية مبادىء شرقية يمكن تشبيهها بما يقابلها في ديانات الحثيين . فيبرز في ديانتهم عقيدة الايمان بوجود حياة ثانية بعد الموت وتقديم الاضاحي الحيوانية والبشرية في أوقات معينة من السنة . كذلك تتجلى ارادة الآلهة بطرق شتى لمن يعرف قراءة أسرارها . ومن هنا نشأت عادة استخلاص كبد حيوانات الاضاحي لقراءة الغيب فيه ومعرفة مشيئة الآلهة . ومما لا ريب فيه أن عادة فحص كبد الحيوانات تعتبر دليلاً يربط الاتروسكيين بشعوب آسيا الصغرى . ختاماً لم يحجم الاتروسكيون عن تبني آلهة اغريقية وايتالية ضموها إلى مجتمع آلهتهم المقدس ، ومن البديهي أن يرافق عملية تبني الآلهة الاغريقية تبني الكثير من الميثولوجيا التي تدور حولهم .

نستخلص مما تقدم أن الاتروسكيين كانوا شعباً من المحاربين التجار ، توصلوا الى مستوى عال من الغنى والترف وكان لهم فضل نقل الحضارة إلى شعوب ايتاليا الابتدائية ، الذين خضعوا لهم ولعله يصح حكمنا عليهم في أنهم ساعدوا كثيراً في اسراع عملية تأثر الايتاليين بالحضارة الاغريقية بل وكانوا وسطاء ممتازين في هذا السبيل عندما أسرعوا هم أنفسهم باقتباس وتبني منجزات الشعوب الاخرى التي احتكوا معها في التجارة والحرب . أما العنصر الذي افتقدوا إليه في حياتهم وتنظيمهم فكان روح الانضباط والتعاون في سبيل توطيد دعائم منظمة سياسية مستقرة . وما أن تحل نهاية القرن الخامس قبل الميلاد حتى تولي فترة الازدهار الحضاري والسياسي التي تمتعوا بها . وفي الواقع لم يتمكن الاتروسكيون في خلال

---

(1) يصبح اسمها جو بيتر ، جونو ، منرفا .

اقامتهم الطويلة في شبه جزيرة ايتاليا من التوصل سواء الى الخصال الفكرية الديناميكية التي تميز الحضارة الاغريقية أو إلى البنيان السياسي والعسكري الذي حققه الرومان بعدهم في نفس المنطقة . هذه الصفات جميعها لاتنفي بشكل من الأشكال الدين الكبير الذي يدين به الرومان لأسلافهم الاتروسكيين.

٢ ـ الاغريق والأوضاع في غربي البحر المتوسط اعتباراً من القرن السادس ق . م .

اتصف التوسع الاغريقي نحو الشواطيء الغربيـة من البحر المتوسط خاصة ، والتوسع الشرقي نحو نفس المنطقة عامة ـ أن القوى المتوسعة كانت تتمتع بتفوق كاف في مضمار التكنيك الحربي والتنظيم الاجتماعي . إذ لايعقل أن تقوم مثل هذه الحركات التوسعية الـــتي تستهدف اقامة محطات تجارية ومستعمرات على طول سواحل المناطق الجديدة دون توفر هذه الشروط الأساسية في الوطن الأم . ولعل التاريخ يكرر نفسه مرة أخرى عندما يأخذ الاسبان والفرنسيون والانكليز ممارسة التوسع البحري نحو العالم الجديـــد عقب اكتشاف كولومبس لأمريكا . وكما رأينا في مقدمة هذا الفصل استطاع الاغريقيون خلال المائتي سنة التي تلت مطلع القرن الثامن أن يستقروا في شرق وجنوب شواطيء جزيرة صقيلية وأن يؤسسوا سلسلة من المستعمرات على الارض الايتالية نفسها ممتدة من تارنتوم حتى خليج نابولي كما توضعوا على مصب نهر الرون وشاطيء الريفيرا ، إلا أن مقاومة القرطاجيين لتوسعاتهم أغلقت في وجههم شبه جزيرة ايـــبريا والقسم الغربي من جزيرة صقيلية . ومـا يلبث الاتروسكيون أن يقفوا بدورهم أمام التوسع الاغريقي نحو شمال ايتاليا . والملاحـظ أن القوى المعنية احترمت في الفترات الاولى لهذه الحركة التوسعية مناطق نفوذهـا بشكل متبادل . ولكن الصراع المنتظر نشوبه مايلبث أن يظهر سافراً في

القرن السادس عندما تتضارب مصالح الشعوب الشرقية في منطقة البحر المتوسط الغربية . وفي الحقيقة لم تكن المشكلات التجارية والتنافس على الاسواق والمواد الاولية هي السبب الرئيسي في حدوث الاصطدام بين الفينيقيين والاتروسكيين من جهة والاغريق من جهة أخرى - بل كان توسع الاغريق المستمر ورغبتهم في امتلاك مساحات جديدة من الاراضي للمحطات التجارية وللمستعمرات في صقلية وافريقيا الشمالية وفي اسبانيا وفي كامبانيا مسؤولاً بالدرجة الاولى عن الحروب الطويلة التي عرفتها المنطقة لأكثر من قرنين تاليين . وقد كانت باكورة هذه الحروب تصادم المطامع على جزيرة كورسيكا - حسبما تقدم ذكره - حيث أسس الاغريق هناك مستعمرة ألاليا حوالي عام ٥٦٠ ق . م . وكان مرفأها هاماً بالنسبة لليونان باعتباره محطة على الطريق البحرية الطويلة التي تربط بين صقلية ومارسيليا . وقد شعر الاتروسكيون أنها تهدد طريق التجارة الاتروسكية بين اتروريا وقرطاجه من جهة وتهدد شواطئهم المقابلة لكورسيكا من جهة أخرى . وكان من الطبيعي أن يتحالفوا مع القرطاجيين لطرد خصومهم منها . وتم ذلك بالفعل عام ٥٣٥ ق . م . اثر معركة بحرية كبيرة . وعقب ذلك تمكن القرطاجيون من طرد الاغريق من جنوب اسبانيا ، وأخذوا يجمعون قواهم عام ٤٨٠ لشن حملة على جزيرة صقلية . وقد وصلت المستعمرات الاغريقية في القرن الخامس إلى أوجها في القوة والازدهار خاصة وقد تمكن الاغريقيون من التوغل ضمن الاراضي الداخلية في صقلية وأخضعوا سكانها لسلطانهم . وعلى الرغم من مظاهر هذا الازدهار القصير الامد الذي تجلى في انتصارين عسكريين كان الاول منها في معركة Himera عام ٤٨٠ ق . م . حيث استطاع جيلون Gilon حاكم مدينة سيراكوزه أن يؤمن للاغريقيين في صقلية احتلال أكبر قسم من هذه الجزيرة وأن

يدفع عنهم خطر الغزو القرطاجي لمدة تزيد عن سبعين سنة . أما الانتصار الثاني فقد حققه أخوه هيرون خليفته في حكم مدينة سيراكوزه الذي هب لنجدة أبناء وطنه في مدينة كوما واستطاع تسديد ضربة قوية للبحرية الاتروسكية في المعركة التي نشبت عام ٤٧٤ .

وفي الحقيقة كان الاغريقيون أقل ترابطاً وتماسكاً من خصومهم الاتروسكيين ، ولعلهم أقرب شبهاً بالفينيقيين في خصائصهم كشعب ملاح تاجر منهم بالاتروسكيين . فكل مدينة اغريقية كانت تشكل دولة مستقلة قائمة بذاتها لاتدين لأي مدينة أخرى بالولاء ، بل تعزلها عن هذه المدن القريبة فردية طاغية تنبع من طبيعة الشعب الاغريقي . ولا نعدو الحقيقة إذا ذكرنا أن المدن الاغريقية في المستعمرات الغربية تقدم صورة طبق الاصل عن خصائص المدن اليونانية في الوطن الأم، حيث تسود فيما بينهم المنازعات والمنافسات والحسد . ولا يطرح سكان المدن الاغريقية خلافاتهم المستمرة جانباً إلا لوقت قصير جداً حينما يرغمهم على ذلك خطر داهم جداً يتطلب منهم توحيد قواهم للحفاظ على بقائهم ودفع عدوهم المشترك .

هذه الصفات الاصيلة في نفوس الاغريقيين تكتب الفشل مقدماً لمحاولة ديونيزوس الاول طاغية مدينة سيراكوزه اخضاع المدن الاغريقية في صقيليه والبر الايتالي لسلطته بين ٤٠٤ الى ٣٦٧ أملًا منه في صهر اغريق الغرب في دولة موحدة . وسرعان ماينفك الرباط السطحي الذي يجمعها عقب موت صاحب المحاولة . هذه المحاولة أنتجت ثمرات تناقض الهدف الذي وضعت لأجله . إذ أن عملية توحيد المدن الاغريقية بالقوة تمت على حساب حرية وقوة هذه المدن . ولا عجب أن تركها موت ديونيزوس الاول أضعف من قبل بل وأكثر تفككاً .

الى جانب هذه العوامل الخارجية من تهديد الاتروسكيين والقرطاجيين

والايتاليين لكيان المدن الاغريقية وانقسام المدن الاغريقية فيما بينها ، يلعب انقسام الاغريقيين أنفسهم ضمن جدران مدنهم الى أحزاب وفرق متناحرة متفككة لم يهدأ تنافسها الا فترات وجيزة ، يلعب ذلك كله دوراً حاسماً في تمكين روما الناشئة من فرض سيطرتها على كل هذه العناصر المتنازعة ووضع حد لاستقلال المدن الاغريقية ولامتداد التوسع الاغريقي لا في ايتاليا فحسب بل وفي كافة المنطقة الغربية من البحر المتوسط . ومنذ حوالي ٣٣٩ ق . م . تحافظ قرطاجه على ممتلكاتها في النصف الغربي من جزيرة صقلية وفي اسبانيا مشكلة بذلك للاغريق خطراً دائماً ومصدراً للمتاعب لا يهدأ . وبالفعل سيساعد هذا التوتر الدائم والمنازعات الاغريقية القرطاجية المستمرة في المنطقة ، سيساعد روما على التوسع خارج الاراضي الايتالية أيضاً [1] .

خلاصة القول تبقى للاغريق في ايتاليا قبل كل شيء مساهمتهم الحضارية الكبرى التي تخلد لنا أسطورة نشوء روما جانباً صغيراً من طبيعتها. فهي تتحدث عن رجل اغريقي قدم من شبه جزيرة البيليبونيز ليتوطن على تل « البالاتين » أحد تلال مدينة روما حيث يعمل على تمدين أهل المدينة وتعليمهم القراءة والكتابة .

(١) سنتعرض لذلك في حديثنا عن الحروب البونية .

مراجع ومصادر الفصل الأول

F. Altheim, Aufstieg und Weltherrschaft Roms, Rheda 1964

G. Daniels, Megalith Builders of Western Europe. New York Praeger 1959.

G. Childe, Prehistory of European Society Penguin A 415, 1958.

L. Bernabo Brea, Sicily Before The Greeks, New York, Praeger, 1957.

D. Harden, The Phoenicians, New York : Praeger p 128 ,1960

B. H. Warmington, Carthage. London : Hale, 1960.

T. J. Dunbabin, Western Greeks, Oxford 1948.

D. H. Lawrence, Etruscan Palaces, New York : Viking Compass, 1957.

R. Bloch, The Etruscans, New York : Praeger 1958.

Etruscan Culture : Land and People. New York : Columbia University Press, 1962

الفصل الثاني

تاريخ روما حتى سقوط العهد الملكي

اللاتيوم وشعب اللاتين :

تقع منطقة اللاتيوم جنوبي نهر التيبر وتمتد على طول الساحل الغربي للبحر التيراني حتى رأس سيرسي وتنبسط في الداخل حتى سفوح جبال الابنين . وقد أطلق عليها هذا الاسم قديماً عندما توطن فيها في أوائل الحقبة التاريخية شعب ايتالي هو شعب اللاتين Latini . لقد كان اللاتين شعباً مزيجاً من عناصر بشرية متعددة ينتسب العنصر السائد فيها إلى أحفاد الغزاة الشماليين الذين استطاعوا الوصول في أوائل عصر الحديد إلى أواسط ايتاليا وامتزجوا مع سكانها الاصليين بقايا شعوب العصر النيوليتيكي . ومن ثم قدم إلى منطقة اللاتيوم بعد هذه الموجة من السكان – الذين يمارسون عادة حرق جثث الموتى – موجة أخرى من شعوب يتميزون بدفن موتاهم يحتمل أنهم فرع من فروع شعب السابيين الذين هبطوا إلى وادي نهر التيبر وتلاحموا على مر الزمن مع شعب اللاتين . أما نظام المعيشة الذي اتبعه اللاتين فكان يتلخص في حياة الرعي والزراعة إذ لم تؤثر فيهم كثيراً عادات وأنظمة الشعوب المجاورة لهم . وأبرز ما يميز مجتمعهم هي الاكواخ الدائروية التي بنو قراهم منها في مواقع كانت بمنجاة عن مياه الفيضان ويسهل الدفاع عنها مثل الجانب المنحدر من هضبة

البالاتين ، وبالتالي كانت مقابرهم خارج حدود مناطق السكن تحوي جراراً من الفخار المشوي الذي يماثل شكله شكل أكواخهم الدائروية أو الاهليلجية ، أودع فيها بقايا عظام ورماد الجثث المحروقة .

اعتباراً من القرنين السابع والسادس قبل الميلاد تتعرف منطقة اللاتيوم على حياة حضارية غنية لربما يصح أن ننسب الاسباب الدافعة اليها بالدرجة الاولى الى نفوذ الاتروسكيون الحضاري الذي كثيرا مااقترن ظهوره في أماكن عديدة مع بسط سيادتهم على تلك المناطق . وتذكر الروايات أن آخر ملوك روما كانوا من الاتروسكيين ، وهذا أمر غير غريب أن تصبح روما قاعدة أتروسكية ويتسع نفوذها كثيراً في القرن السادس خاصة بعد أن جعلها الملوك الاتروسكيين – يدعمهم في ذلك أتباعهم من ارستقراطيي هذا الشعب – من أقوى المراكز في ايتاليا الغربية ونقطة انطلاق للحملات الحربية التوسعية . علاوة على ذلك كانت منطقة اللاتيوم الساحلية على احتكاك وصلات مع التجار القرطاجيين والاغريقيين . فتطورت قرى المنطقة الى مدن ذات قلاع محصنة وأسوار تحميها وتضمنت معابد بنيت وزخرفت على النمط الاتروسكي . كما جرى استغلال الاراضي الزراعية على نطاق واسع تشهد عليه الاقنية والسدود التي أنشئت لحماية الاراضي من انجراف تربتها . كل هذه المظاهر الحضارية المزدهرة لانرى عناصر موازية لها في التنظيم السياسي لدى شعب اللاتين ، اذ لم تندمج المدن اللاتينية في دولة واحدة بل بقيت على العكس منقسمة الى جماعات بشرية مستقلة سميت كل جماعة منهم -Populi توضعت في منطقة معينة Pagus كانت مدينتها المحصنة Oppidum نقطة المركز فيها . وقد بلغ عدد المدن اللاتينية المحصنة ٦٥ مدينة .

تمثل أول تعبير عن الوحدة السياسية لدى شعب اللاتين في الأعياد

الدينية التي كانت تدور حول عبادات الخصب البدائية مثلما تمثلت وحدتهم في عبادة مجموعة من الهة دان لها الشعب اللاتيني بالطاعة . ويكفي أن نذكر أن سبعة وأربعين مدينة لاتينية كانت تساهم في نهاية القرن السادس قبل الميلاد في مهرجانات جبل ألبان Alpan الدينية التي كرست للاله جوبتر . وكانت كل جماعة تساهم في الاحتفال تلزم نفسها بتقديم كمية معينة من التقدمات وبالتالي كان لها نصيب معين من الاضاحي . لذلك نستطيع النظر الى هذه الروابط التي تركزت حول تقديس الالهين جوبتر وديانا بأنها أحلاف دينية ضمت عدداً كبيرا من المدن اللاتينية وكانت الخطوة الاولى على مايبدو للوحدة السياسية .

وبوجه الاجمال يتلخص تاريخ منطقة اللاتيوم في تاريخ مدينة روما التي تعتبر عاصمة المنطقة وبؤرتها الحضارية والسياسية وللأسف لايزال تاريخ روما في مراحله الاولى محاطا بالغموض وتضارب المعلومات ، التي نستقيها عادة من المؤرخين اليونان والرومان والمرويات القديمة التي بقيت في ذاكرة الشعوب . ومما يزيد مهمة المؤرخ الذي يعالج هذه الفترة صعوبة قيام مدينة روما الحديثة فوق الموقع القديم تغطيه وتخفي كثيرا من معالمه ومنشآته . ويكفينا للتعريف بهذه الحقيقة أن نذكر أننا لا نمتلك في مدينة روما نفسها بناء أو آبدة واحدة – ماخلا مايسمى بالسور « السرفي » [1] الذى بني بعد الغزوة الغالية – يمكن أن ننسبها الى الفترة موضوع هذا الفصل . ومع ذلك ساهم علم الاثار والتنقيب الاثري في كشف طبقات روما الستراتيجرافية رغم كل العقبات والحواجز التي تقيد التوسع في التحريات – ونستطيع اليوم أن نعتمد عليها بالدرجة الاولى في اعطاء صورة تاريخية هي أقرب ما يمكن من الصحة وأن نفحص على ضوئها مالدينا من معلومات وأساطير سابقة .

---

(١) نسبة الى سرفيوس توللوس .

أسطورة بناء روما :

تنسب الاساطير تأسيس مدينة روما Roma الى قدوم محارب طروادي الى منطقة شاطيء اللاتيوم حيث يتزوج بـ « لافينا » ابنة ملكها وقد اتصل الاله مارس بابنة نوميتور أحد أحفاد المحارب الطروادي واسمها ريا سيلفيا فولدت منه طفلين ذكرين هما رومولوس وريموس . ولكن أميلوس يتمكن من اغتصاب العرش من أخيه نوميتور وقتل ريا سيلفيا ويتخلص من أبنائها بالقائهم في نهر التيبر .

وتحدث المعجزة عندما يطفو مهدهما على وجه المياه ويرسو على ضفة هضبة البالاتين حيث تعثر عليها ذئبة ترضعهما من حليبها . ويكتشفهما أحد الرعاة ويشب الطفلان في كنفه وبعد أن يطلعا على عمل أميليوس يقومان بقتله ثأراً لوالدتهما ويعيدا جدهما نوميتور الى عرشه . وقد منح نوميتور سبطاه أرض التلال السبعة الواقعة على شاطيء التيبر حيث قرر رومولوس وشقيقه انشاء مدينة فيها بعد استشارة الالهة . ويدور رومولوس خلف محراثه وثوره الابيض حول تل البالاتين شاقاً ثلماً يمثل سور مدينته المقبلة . وعندما يجتاز ريموس حدود هذا الخط الوهمي استهزاء منه باخيه يقدم رومولوس على قتله ... الخ . ولعل في عملية القتل اشارة الى المصير الذي سيلقاه كل من يجتاز أسوار مدينة روما . كذلك تذكر الاساطير أن رومولوس الذي ينفرد الان بحكم المدينة يعمد الى اكثار شعب مدينته ، بان يدعو جيرانه السابيين الى حفل يختطف هو واتباعه خلاله بناتهن ويتزوجوهن . وبذلك تنشب الحرب بين الشعبين الروماني والسابيني ويكون من نتيجتها عقد الصلح بينهما وتنصيب رومولوس وتاتيوس السابيني ملكين عليهما . ثم يقتل تاتيوس ويختفي رومولوس أثناء أحد الاحتفالات في عاصفة . وبعد سنة من الخلاف بين السابيين والرومان على شخصية

الملك الجديد يتوصلوا الى الاتفاق على ان ينتخب الرومان ملكا من السابين يحكم عليهم معا وعلى هذا تم انتخاب الملك نومابامبيليوس الذي يتزوج من احدى الربات ... ثم يخلفه بعد اصلاحات عديدة قام بها المحارب الروماني هوستيليوس على الملك . وبمجيء هذا الملك يبدأ حكم الملوك البشر في روما .

لا حاجة بعد سرد هذه الأسطورة للقول أن ما ينسب إلى رومولوس أو إلى نومابامبيليوس وغيرهم من الحكام الأسطوريين عن تأسيس مدينة روما كان نتيجة جهود بذلت في فترات متأخرة كثيراً عن تاريخ هذه الاحداث استهدفت بالدرجة الاولى توضيح العادات الدينية والاجتماعية الرومانية . وبالتالي لا تعدوا مجرد أساطير قد تعكس في طياتها صورة باهتة عن الحقيقة التاريخية يمكن استخلاصها من بين السطور . وفي الحقيقة تكمن في سطور اسطورة روموللوس رغبة الاغريق الدفينة في نسبته تأسيس مدينة روما إلى حفيد أحد أبطال الميثولوجيا الاغريقية . وبالنظر لتفوق الاغريق الحضاري نرى الرومان يقبلون هذه الاسطورة المبتدعة في نهاية القرن الثالث ق . م . ومن ثم يتبنونها في أساطيرهم الشعبية .

أما المؤرخون الرومان في القرنين الثالث والثاني فيختلفون كثيراً حول التاريخ الذي بدىء فيه تأسيس مدينة روما . ولم تدعم الشواهد التاريخية بعد تأريخ عام ٧٥٣ ق . م . الذي وضعه مؤرخو القرن الأول ق . م . واعتبر منذ ذلك الحين عام تأسيس العاصمة الرومانية .

نمت مدينة روما نتيجة اتساع والتحام القرى التي بدأ انشاؤها من أكواخ دائروية الشكل في هضبة البالاتين . وتدل نتائج الحفريات الأثرية هناك عن وجود مقبرة للجثث المحروقة يمكن تحديد تأريخ القرية التي تعود اليها القبور بقبيل القرن الثامن قبل الميلاد . وتألفت المدينة مع

مرور الزمن من مجموعـة المنشآت المشادة على هضابها السبعة وهي هضـاب البالاتين ، الاسكيلين ، الكيرينال[1] ... الخ . التي نلمس وحدتها الأولى في الاحتفالات التي كانت تسمى بأعياد « الاتحاد السباعي » Septimontium الرامزة للهضاب السبعة الآنفة الذكر . هذا الاتحاد لا يخرج في طابعه عن الاتحادات الدينية التي عرفتها منطقة اللاتيوم ويعتبر تتمة لهـا ورمزاً لعمليات التلاحم التي صهرت شعوباً من جنسيات مختلفة في مجتمع موحد .

تظهر المشاهدات الأثرية في روما تطوراً خلاقاً يتناول المدينة بشكل جوهري اعتباراً من العام ٥٧٥ ق . م . تكون من نتيجته توحيد نويات المدينة ضمن مدينة واحدة هي روما القديمة . وقد تجلت هذه الفعاليـــات البناءة في تجفيف وتعبيد منطقة الفوروم Forum وتهيئتها لتصبح مركزاً للنشاطين الاقتصادي والسياسي ، مثلما تعبر عنها الابنية المشادة إلى الغرب من الفوروم على هضبة الكابيتولين . وخلال المائة السنة التاليـة يتضاعف عدد المباني والأوابد في رومـا بشكل يدفع الى الاعتقاد أن التطور والتقدم اللذان يرافقان بداية تاريخ روما ليسا في الحقيقة إلا انعكاساً للفعاليات الاقتصادية المتزايدة والوعي الثقافي ودليلاً على تأثر مجتمع مدينـة رومـا بالتيارات الحضارية التي احتك بها . ومن المسلم به أن هذه النتيجـــة حصيلة – بالدرجة الاولى – لموقع روما الجغرافي الممتاز الذي يضعها على مقربة من طرق التجارة البرية الرئيسية المارة بين اللاتيوم واترووريا ويصلها بالبحر التيراني بواسطة نهر التيبر ، ونتيجة لنمو فعاليات شعبها السياسية وصفاته المتميزة بالدرجة الثانية . إلى جانب هذه التطورات التي تنـاولت معالم مدينة روما بالتغير لا بد من ذكر التطور الاجتماعي الذي رافقها ، فقد تطور أهل المدينة من نظـــام معيشة كان يقوم على صعيد الاسر

---

(١) استناداً إلى عادة دفن الموتى التي لوحظت في مقابر هضبة الكيرينال يمكن التأكيد بأن السابيين كانوا سكان هذه الهضبة .

الكبيرة والعشائر إلى نظام دولة المدينة المقتبس على الأرجح من النماذج الاغريقية والاتروسكية . هذا التحول الجوهري ينجزه شعب روما بمهارة سياسية نادرة قد يكون عامل النجاح فيها وجود مدينة روما في القرن السادس قبل الميلاد تحت سلطة الاتروسكيين . ويقتضي تطور المدينة احاطتها بسور دفاعي شيد من الحجارة ومن الطين مقتفياً في تخطيطه على الأرجح الحدود المعروفة باسم الحدود المقدسة Pomerium . ويتم توسيعه في القرن الرابع قبل الميلاد ليضم هضبة الأفنتين وجزءاً من الارض الواقعة خلف هضبة الاسكيلين .

خلاصة القول نشأت مدينة روما التي ينم اسمها عن أصل أتروسكي[1] وتطورت خلال قرون عديدة اعتباراً من القرن التاسع ق . م . فكانت حصيلة لالتحام عناصر بشرية مختلفة هي اللاتين والسابين والاتروسكيين مع بقايا الشعوب الاولى التي سكنت المنطقة منذ عصور ما قبل التاريخ. ومما لا شك فيه أن الشعب اللاتيني وهو الشعب الرئيسي في المجتمع الروماني فرض لغته وديانته ومؤسساته السياسية والعسكرية على بقية العناصر حتى أصبحت جميعها تشكل كلًا اجتماعياً يشتق اسمه التاريخي من اسم هذه المدينة العظيمة .

النظم الاجتماعية في روما خلال العهد الملكي

تدل كتابات تاسيتوس على أن نظام الحكم في عهود روما الباكرة كان ملكياً ويؤكد ذلك وجود عدة كتابات تشير إلى لقب الملك Rex الذى ظل مستعملًا فيما بعد من قبل رئيس الكهنة المشرف على الاضاحي.

---

(١) يدل نظام تسمية الافراد والعشائر في روما على أنه ينحدر أيضاً من أصل أتروسكي . ويقال أن الأبجدية اللاتينية المتألفة من ٢١ حرفاً قد اشتقت من الأبجدية الاتروسكية . بالمقابل لا يظهر في المفردات اللاتينية إلا بعض كلمات مأخوذة من الاتروسكية .

وكان اسمه الرسمي ملك الاضاحي Rex Sacrorum . كما تذكر الروايات الرومانية أن عدد هؤلاء الملوك كان سبعة – حكموها منذ تأسيس روما حتى ادخال النظام الجمهوري اليها – ويعتقد أن رومولوس ابن اله الحرب مارس الاسطوري كان على رأسهم .

حيال مثل هـذا الموقف الذي ينزع البشر فيـه إلى نسب أصولهم ومنشآتهم إلى القوى الالهية يتضح لنا أن الحقيقة التاريخية تفقد كثيراً من قيمتها نتيجة مزجها بالأساطير . لذلك قد يكون من العبث أن نحـاول التعرف على هؤلاء الملوك الاوائل وعلى المنجزات التي حققوها في مدينـة روما . ونكتفي بالقول أن الملوك الثلاثة الاخيرين حكموا رومـا على ما يبدو خلال فترة السيادة الاتروسكية عليها فمن المرجح أنهم كانوا من أصل أتروسـكي أيضاً ، هذا الظن تدعمه أسمـاء هؤلاء الملوك الذي كان آخرهم من سلالة تاركين .

استطاع الحـكم الملـكي في روما أن يحول هذه المدينة إلى زعيمة لمدن منطقة اللاتيوم . فقد أمتدت المدينة واتسعت أراضيهـا على ضفاف نهر التيبر حتى شاطيء البحر التيراني ، كما استطاع التوسع الحربي والتقدم الاقتصادي أن يحققا بناء مجموعة من الابنية الدينية في العهد الملـكي تنوف على خمسة عشر بناء وهي كميـة تفوق كل ما شيد في روما في العهد الجمهوري . وقد أعيد تشييد بناء معبد Vesta الدائروي الشكل وأقيم عبر الطريق المقدس المشهور القصر الملـكي ، وكان أبرز الابنية التي تحققت المعبد الفخم الذي شيد على هضبة الـكابتول وكرس للإله جوبتر ولرفيقاته جونو ومنيرفا . إذ فاق بحجمه الـكبير كل ما عرفته منطقة اترووريا حتى تلك الفترة من معابد وأبنية دينية [1] . ومنذ ذلك الحين أصبـح الاله

(١) يبلغ طول معبد جوبتر حوالي سبعين متراً وقد تعرض للحريق مراراً بالنظر لأن سقفه كان من الخشب .

جوبتر اله دولة مدينة روما الحامي ، تتجه إلى معبده على مر القرون مواكب النصر الرومانية .

بعد هذه اللمحة عن تطور مدينة روما العمراني يجدر بنا أن نقف ملياً عند تنظيماتها الاجتماعية التي لا تقل أهمية عن المباني الكبيرة التي خلدت شهرتها . وإذا كنا سنتعرض لها بالتفصيل فذلك لان أنظمة المجتمع الروماني وتقسيماته وأعرافه وقوانينه الرئيسية أخذت طابعها التقليدي منذ هذه الفترة الهامة في تاريخ روما وبقيت متبعة لقرون عديدة ستتلو .

اتصف المجتمع الروماني في عهوده الملكية بنظام دولة المدينة المشتق على الراجح من أنظمة دول المدن الاغريقية التي قامت في جنوب ايتاليا وصقيلية . فالى جانب الملك الذي لم يكن يصل إلى عرشه عن طريق الوراثة بل عن طريق الانتخاب ضمن الاسرة الملكية – وجد مجلس هو مجمع لممثلي الشعب من المواطنين الاحرار حسب الفئات والطبقات التي تألف منها آنذاك وبالطبع كان المجتمع يتكون من عائلات familia تنتسب الى جماعات بلغت ثلاثين جماعة أطلق على كل منها اسم curiae ينتمي اليها الافراد بطريق الوارثة ، ولكل منها عباداتها الخاصة التي يحرم على الاغراب الاشتراك فيها . هذه المنظمة الاجتماعية القوية كان تجمّع عشرة عناصر منها يشكل ما يسمى بالقبيلة . وقد تركز المجتمع الروماني في ثلاثة قبائل منها عرفت باسم Luceres ، Tities ، Ramnes وبقيت أسماؤها خالدة في المجتمع الروماني [١] . أما اجتماعات أعضاء الـ Curiae فكانت تتم في مجلس خاص اسمه مجلس الجماعات Comitia Curiata ، كانت اجتماعاته تعقد وفقاً لرغبة الملك في سماع مواضيع تهم المجتمع بكامله مثل مواضيع

---

(١) خلدت أسماء هذه القبائل فيما بعد عندما سميت بها قطعات الخيالة في الجيش الروماني ولعل ذلك يدل على أن التطوع في الجيش الروماني كان يتم في الاصل وفق التقسيمات القبلية .

التبني والوصايا والهبات ومنح حق المواطنة .. الخ . ولم يكن لهذه الجمعية قوة اصدار المراسيم التشريعية بل انحصرت مهمتها في اتخاذ القرارات الهامة كاعلان الحرب أو الموافقة على تعيين ملك جديد . ولم يكن يحق لافرادها التكلم أثناء الاجتماعات إلا إذا دعاهم الرئيس لذلك والذي كان يحصر بالمتكلمين حق التصويت .

أما المؤسسة الثالثة التي وقفت بصفة هيئة استشارية إلى جانب الملك فكان مجلس الشيوخ Senatus الذي تألف من كل ذوي النفوذ ممن كان الملك يدعوهم الى الاشتراك في هذا المجلس . وبالطبع كانوا في الغالب من شيوخ القبائل الراجحي التفكير ولكن فيما بعد نرى هـذا المجلس يتحول إلى مجلس للنبلاء أو الارستقراطيين في المجتمع الروماني . وعلى العموم كان لمجلس الشيوخ في العهد الملكي طابع الهيئة الناصحة الاستشارية أكثر من كونها الهيئة المشرعة ذات السلطات العليا . وكان يطلق على عضو مجلس الشيوخ اسم Patres .

تجمعت الطبقة الارستقراطية في روما والمسماة Patricii في شكل أسر أوعشائر صغيرة Gents . كان الفرد فيها يطلق عليه اسم الاسرة قبل اسمه الخاص Nomen . وقد بلغت بعض هذه الاسر أعداداً كبيرة تجاوزت أحياناً الـ ٥٠٠ عضو مثل أسر كورنيليوس وفابيوس وجوليوس . . . قسّمت في الفترات التالية إلى فروع وشعب Cognomen . وعلى سبيل المثال نرى أن اسم لوسيوس كورنيليوس سيبيو يتألف من اسمه الخاص ثم اسم اسرته ثم اسم عائلته أما اسم جايوس يوليوس قيصر الاخير Caesar فيدل على فرع الاسرة التي ينتمي اليها[1] . ومن البديهي أن يكون للاسر الارستقراطية في روما نفوذ وقوة ماليـة نتجت عن امتلاكهم

---

(١) كان ترتيب الاسماء يتم كالتالي: Praenomen, Gens, Nomen, Cognomen

للاراضي وضاعفوها عن طريق التزاوج فيما بينهم وعقد التحالفات والروابط في سبيل أهداف سياسية معينة مثل الانتخابات لمجلس الشيوخ ووظائف القنصلية المرموقة ... الخ . والملاحظ بصورة عامة أن النبلاء كانوا منذ العصور الباكرة في تاريخ روما تابعين للدولة وقد حافظوا على امتيازاتهم بامتناعهم عن التزواج مع الطبقات الغير نبيلة وعلى اغلاق الباب في وجه كل من يريد الانتساب إلى طبقتهم . خاصة أن كان من اتباعهم المسمون Clients أو الزبائن .

كان الزبائن أتباعاً للنبلاء يعتنون بأراضيهم وممتلكاتهم يخضعون لهم كلية في أمورهم الاقتصادية والسياسية . وبالتالي كانوا يسخرون في تقديم الجنود لأسيادهم للحرب وفي تنفيذ أوامرهم ورغباتهم . وبالمقابل كان السيد أو النبيل مسؤولاً عن حماية أرواح ومصالح تابعيه وقد نظمت هذه العلاقة المتبادلة بين السيد والتابع بشكل جعل استمرارها بالنسبة للطرفين أشبه بقوانين الوراثة . ويمكن القول أن نظام التبعية هذا ما هو إلا تطور لنظام القنانة مارسه المجتمع الروماني اعتباراً من عهد الملكية القديمة .

عرف المجتمع الروماني بين طبقات السادة والاتباع نوعاً ثالثاً من المواطنين كانوا وسطاً بين الفئتين . هؤلاء كانوا يتألفون من المواطنين الاحرار ، ذوي الاملاك المحدودة ، ومن التجار والصناع والكادحين Proletaires . . الذين نطلق عليهم اجمالا اسم العوام Plebs . ويختلفون عن النبلاء بأنهم لا أتباع لهم ولا يتمتعون بحق الوصول إلى مجلس الشيوخ أو بالمشاركة المباشرة في الاعمال الادارية لكنهم كانوا يتمتعون بصفتهم أعضاء في جماعات الـ Curiae بحق التصويت في مجلس الجماعات الانف الذكر . وبحلول العهد الجمهوري نرى الاتباع يشاركون العوام في المكاسب الاجتماعية التي ظفر هؤلاء بها وبالتدريج اعتبر الاولون جزءاً من طبقة العوام . وفي

الحقيقة يتميز المجتمع الروماني في مراحل حياته الطويلة بالتقدم والازدهار والتطور ، إلا أن الصفة الرئيسية التي تطبعه بطابعها البارز في العهود الباكرة تتبلور في استمرار التأكيد على الحدود السياسية والاجتماعية التي تفصل بين الخواص والعوام ، وفي هذا التميز الطبقي الحاد تكمن التطورات السياسية المقبلة التي تعطي للدولة الرومانية شخصيتها التقليدية .

نهاية العهد الملكي :

رأينا في ما تقدم أن نظام الملكية في العهود الرومانية الباكرة كان يعتمد على انتخاب الملك من أعضاء الاسرة المالكة ويعني ذلك أن وصول الملك إلى العرش ليس حقاً إلهياً ترثه سلالته مثلما هو الحال لدى الملوك الشرقيين كالفرس مثلا ، بل يتوقف على رأي مجلس الجماعات الذي ينتخبه مدى الحياة ويعطيه مجموع السلطة التنفيذية أي الامبريوم Imperium بعد موافقة مجلس الشيوخ على ذلك بمقتضى سلطته الأبوية . وفي حال موت الملك فان صلاحياته ترجع للشعب ممثلا في مجلس الشيوخ الذي ينتخب ملكاً موقتاً من بين أعضائه حتى يتم انتخاب الملك الجديد . وبموجب سلطة الامبريوم نرى الملك الروماني يركز في شخصه صلاحيات واسعة تشمل السلطات القضائية والدينية والعسكرية والمدنية ، وهو قبل كل شيء قائد عسكري ورئيس ديني لأنه قادر على تأمين مساندة الالهة له وقراءة الطالع أي التعرف على مشيئة الالهة . وهذه السلطات الواسعة تشكل الجذور الأساسية لمفهوم الرومان للسلطة التنفيذية العليا أي الامبريوم الذي أصبح لمجلس الشيوخ فيما بعد حق منحه لمن يشاء من القناصل والقادة الرومان خلال اضطلاعهم بمهات معينة تكلفهم الدولة بأعبائها لمدة محددة . مثل هذا التحول يكفي ليشير الى أن الشعب الروماني لم يعد يقرن سلطة الامبريوم بشخص معين هو الملك الروماني . وبالتالي تفقد مؤسسة الملكية باعتبارها نظاماً اجتماعياً عناصر مقوماتها الرئيسية في القرون التالية .

اعتباراً من العام ٥٠٩ق.م تتلقى الملكية في روما الضربة الفاصلة عندما تلغى كمؤسسة سياسية في التنظيم الاجتماعي الروماني . ومن المؤكد أن زوالها يقترن بعوامل عديدة ساهمت تدريجياً في ايصالها إلى هذا المصير . فنحن نعرف أن ملوك روما الاخيرين كانوا من الاتروسكيين وان ازدهار مدينة روما الاقتصادي في القرن السادس اقترن بأوج التوسع الاتروسكي والرفاه المادي الذي نتج عنه . ومن الطبيعي جداً أن يقترن مصير ملوك روما آنذاك بمصير القوة السياسية التي تدعمهم ، ومع أفول نجم الاتروسكيين تأخذ سلطة الملك نفسه بالأفول . ولربما استطاعت الملكية أن تطيل عمرها وتثبت نفسها لو أن سكان روما كانوا يتألفون من الاتروسك فقط . فعلى خلاف الارستقراطية الاتروسكية التي دعمت الملوك الاتروسكيين بادىء الأمر ، نرى نبلاء اللاتين يأخذون في مقاومتها عندما تزايدت قوتهم — ولعلهم في ذلك يحتذون المثل الذي سلكه نبلاء أثينا تجاه نظام الملكية في بلاد اليونان نفسها — مضافاً اليه قبل كل شيء رغبتهم في الخلاص من أسرة مالكة غريبة عنهم كانت تحابي طبقة العوام. هنا تقع المصادر التاريخية المعاصرة لنهاية النظام الملكي في شيء من الغموض إذ تتضارب المعلومات التاريخية مع المكتشفات الأثرية الحديثة في مدينة روما نفسها . فالمرويات الرومانية تذكر أن الرومانيين قاموا عام ٥٠٩ بزعامة بروتوس بطرد آخر ملك من أسرة « تاركين » الاتروسكية وأقاموا عوضاً عنه نظاماً جمهورياً ارستقراطياً يستند على أسر النبلاء في روما ، الذين غدوا بفضل مجلس الشيوخ السلطة الحقيقية في المجتمع . وقد تركزت السلطة الآن في يد موظفين كبيرين ينتخبان لمدة سنة واحدة وتتوزع عليهم السلطة الملكية القديمة المسماة بالامبريوم Imperium

ورمزها العصي والفؤوس Faces [١] بالتساوي [٢] وذلك رغبة في تجنب اغتصاب شخص واحد للسلطة . وقد أطلق على هذين الموظفين في البدء اسم Pratoren ثم تحول اللقب فيما بعد إلى شكله المعروف في العهد الجمهوري وهو قنصل Konsul [٣] . وكان باستطاعة كل قنصل مراقبة أعمال زميله وتعليقها إذا لزم الامر عن طريق استخدام حق النقض Veto . وإلى جانب القنصلين رأت الدولة ايجاد قنصل آخر أو « ديكتاتور » كان يسمى « قنصل الطوارىء » يزود بسلطة الامبريوم لمدة معينة لمجابهة الاحوال الخطيرة الطارئة ويتم تعيينه بتوصية يقدمها مجلس الشيوخ إلى القنصلين . وتنتهي مدة سلطاته الاستثنائية بعد انقضاء المدة القصوى المحددة لها وقدرها ستة أشهر . وكان للديكتاتور حق تعيين مساعد له يسمى المشرف على الخيل Magister equitum او قائد الفرسان .

لم تيأس الاسرة المالكة الاتروسكية في استعادة سلطتها المنتزعة ، بل حاولت ذلك عدة مرات . وبنتيجة ذلك انفصلت منطقة اللاتيوم عن روما بانضواء ثمانية جماعات من جماعات الحلف اللاتيني تحت لواء مدينة تسكالوم الاتروسكية وأعلنت مقاومتها لروما . وقام أحد أقرباء البيت المالك بتدشين معبد ديني خاص بالحلف الجديد في مدينة أريسيا فكانت حركته رمزاً لتكتل الفريق المناهض لروما وانفصالاً عن معابد جوبتر وديانا القديمة المشيدة في روما والتي تقع الآن تحت نفوذ الجمهوريين . ولم

---

(١) كان أتباع الملك المسمون Lictors يتولون حمل هذه الحزم .

(٢) يعتقد أن ايجاد قنصلين بدلا من قنصل واحد يخلف شخص الملك كان ترضية للرومان وللسابيين في روما وتحقيقاً للتوازن في السلطة .

(٣) اعتباراً من هذا الحدث والى قرون أخرى تليه أصبحت السنوات في التأريخ الروماني تؤرخ باسم قناصل كل سنة .

تتأخر روما في اتخاذ اجراءات الهجوم المناسبة لوضع حد لهـــذه الحركة الانفصالية المناهضة للاسر النبيلة خاصة وأن بورسينا Porsena أمير مدينة كلوزيوم أحرز انتصارات مرموقة في روما نفسها زعزعت موقف اللاتين وأجبرتهم على التنازل عن المناطق التابعة لهم على الضفة اليمنى لنهر التيبر وتقديم كل مالديهم من معدن الحديد خلا الأدوات الزراعية ، مع تسليم رهائن من رجالهم ضمانة للمستقبل . وتذكر الرواية أن بورسينا تراجع عن موقفه ورضي بعقد الصلح مع روما تجاه ما أظهره بعض أبطالها الاسطوريين من شجاعة في مقاومته ... الخ .

على خلاف ما تقدمه المرويات الرومانية عن هذا الصراع الهام حول نظامي حكم مختلفين ، تكشف التحريات الاثرية في مدينة روما نفسها على تل البالاتين أن المدينـة تعرضت في الفترة المعاصرة للاحداث إلى حريق كبير دمرها . وهذا بالطبع يتناقض مع رواية التراجع السلمي وعقد الصلح مع روما . ومن المرجح أن تراجع الاتروسكيين بعد الحروب التي خاضوها مع روما لايمكن تفسيره إلا بضعف السيادة الاتروسكيـة في ايتاليا الوسطى من جهة ، وبانضمام الاغريقيين أعداء الاتروسكيين الألداء الى صف الحلف اللاتيني أما عداوة الاقوام اللاتينية المجاورة لروما فمرده تعلق مصالحهم المادية بمصالح الاتروسكيين في المنطقة والتي كان المستفيد الاول من زوالها في مدينة روما طبقة النبلاء وحدها . وبنتيجة التحالف الاغريقي اللاتيني تمكن اللاتين من هزيمة الاتروسكيين في معركة حربية جرت عام ٥٠٧ ق . م . في أريسيا أجبرت الاخيرين على التراجع عن اللاتيوم . اتبعها الاغريقيون بتسديد ضربة قاسية للقوة البحرية الاتروسكية في المعركة الشهيرة التي دارت عام ٤٧٤ ق . م . أثناء الصراع حول احتلال المستعمرة الاغريقية في كوما .

الفصل الثالث

الدولة الرومانية في العهد الجمهوري

الحروب مع جيران روما وتوسع روما حتى توحيد شبه الجزيرة الايطالية .

ما تكاد روما تنتهي من تثبيت دعائم نظام الحكم الجمهوري الجديد الذي أضعف مركزها كثيراً في منطقة اللاتيوم بعقد المعاهدة المعروفة باسم معاهدة كاسيوس عام ٤٩٣ ق . م . بينها وبين الجامعة اللاتينية ، يشكل المتعاقدون فيها حلفاً عسكريا دفاعياً يحدد نصيب كل فريق من القوات التي يتوجب عليه تقديمها ومن الغنائم التي سيحصل[1] عليها، حتى تنهال عليها في القرن الخامس ق . م . أخطار ومشاكل هامة تهدد كيان شعب اللاتين في ايطاليا الوسطى عامة ، وطبقة النبلاء في روما خاصة . تمثلت هذه الاخطار في اندفاع أقوام الشعوب الجبلية الجائعة كالسبيليين والايكيين والفولسكيين نحو مدن اللاتيوم التي أصبحت بعد معاهدة كاسيوس تشكل حاجزاً يحمي

---

(١) كان التحالف العسكري بين روما والجامعة اللاتينية ضرورة تنبع من مصالح الطرفين المتعاقدين ومن تراثها العرقي والثقافي بالنظر للاخطار التي تتهددهم على يد الشعوب الجبلية والاتروسكية . وقد تضمن الحلف اتفاقاً تجارياً يسهل أعمال التجار في المنطقتين وحمايتهم . كما يضمن حق التملك والاعتراف بالابناء الناتجين عن زواج رعايا الفريقين (حق المواطنة) وحقهم في الارث وقد احتفظت روما بالمعاهدة حتى عام ٣٣٨ق.م .

روما . مستهدفين بذلك مدينة روما أيضاً حيث كان العوام يقاسون الامرين من استبداد النبلاء وتحكمهم بهم .

كانت أقوام الشعوب المستوطنة في الجبال تتحرك نحو اللاتيوم بدافع من فقر مواطنهم الجبلية وعجزها عن تأمين الغذاء والمأوى الكافي لأعدادهم المتزايدة . ومن الطبيعي أن تشكل سهول اللاتيوم الخصبة نقطة جذب قوي لهؤلاء الجبليين نظراً للرفاه المادي الذي وصلت اليه المنطقة خلال فترة السيادة الاتروسكية . وقد بدأت التحركات بشكل تسرب سلمي تلته سلسلة موجات لم تقتصر على منطقة اللاتيوم فحسب بل شملت كل المدن الايتالية بما فيها المستعمرات الاغريقية في الجنوب . ويتمثل عنف هذه الموجات في هزيمتهم لمدينة تارنت الاغريقية عام ٤٧٣ ق . م . واحلالهم الذعر والخراب في كثير من المناطق الايتالية . كذلك استطاع السابينيون عام ٤٦٠ ق . م . القيام بهجوم مفاجيء على روما استولوا فيه على قلعة الكابتول ثم تراجعوا عنها بعد حروب طويلة انتهت بعقد صلح مع الرومان . أما نتيجة الهجمات فكانت إما ارتحال السكان الاصليين عن قراهم ومناطقهم كلية أو بقاؤهم فيها وخضوعهم للمغيرين وكثيراً مادمرت المحاصيل الزراعية وافقرت الاراضي . وعلى هذا الاساس نرى حدوث تغير كبير يطرأ على خارطة ايتاليا السياسية في فترة القرن الخامس .

رأت روما تجاه خطر الاقوام الجبلية أن تعزز مركزها عن طريق التقرب الى جيرانها الاقربين وقد رأينا أن بداية هذا الاتجاه تمثل في عقد معاهدة الصداقة مع الجامعة اللاتينية . رضيت روما فيه أن تضع قواتها تحت امرة قائد من الجامعة اللاتينية للدفاع عن اللاتيوم ضد الاتروسكيين والسابنيين والفولسكيين والايكيين . ثم سعت روما فأدخلت الهرنكيين المقيمين وراء الاعداء الاخيرين ضمن الحلف الروماني ـ اللاتيني ، مثلما

تحالفت مع مدينة كايري لنفس الهدف . وفي أواخر القرن الخامس نرى روما تنتقل الى الاعمال العسكرية مستلمة المبادهة في مهاجمة أعدائهـــا الجبليين والاتروسكيين . وساعدها في حربها للاتروسكيين فرصة اختلال التوازن السياسي ضمن المدن الاتروسكية التي قلبت النظام الملكي السائد فيها لتعلن الحكم الجمهوري ، اضافة الى انشغال الاتروسكيين أنفسهم بصد غارات الغاليين على حدودهم الشمالية . وكانت الحرب سجالا بين الرومان والاتروسكيين لاحتلال مدينة فئي Veii في مقاطعة اتروريا وقد دامت أكثر من عشر سنوات ولما فشلت جميع جهود الاتروسكيين لامداد هذه المدينة قام ارستقراطيوها بالاتفاق مع الرومان خوفاً من العوام وتم احتلالها عام ٣٩٦ ق . م . عن طريق نفق سري ولاقت الدمار الشامـــل . وقد نتج عن انهزام مدينـــة فئي سقوط كافة اتروريا الجنوبية بيد الرومان وحلفائهم الذين توغلوا عقب ذلك حتى اتروريا الوسطى وأمنوا فيها خطوط الدفاع عن حدودهم الشمالية . وبفضل التحالف العسكري مع اللاتين والهرنكيين استطاعت روما في أواخر القرن الخامس صد الغارات الجبلية ، وايقافها إلى حد كبير وتوسعت ممتلكاتها في اتروريا .

الأوضاع الادارية والاجتماعية في العهد الجمهوري :

مجلس الشيوخ :

احتفظت الدولة الرومانية بالمؤسسات العامة الخاصة بالعهد السابق مثل مجلس الشعب ومجلس الشيوخ . الا أن هذا الاخير زيدت صلاحياته كثيراً حتى كان له حق الفصل في الخلافات التي تقع بين القنصلين . وقد أصبح أعضاء المجلس في القرن الثالث ق . م . محددين بثلاثمائة عضو وعلى الارجح لم يكن المجلس بهذا الحجم في بداية العهد الجمهوري . وكان القنصلان يعينان أعضاء مجلس الشيوخ من أسر النبلاء الذين يحتفظون بعضويتهم

مدى الحياة إلا اذا ثبت اتهامهم بسلوك شائن في قضية خاصة أولها مساس بالسلامة العامة . وتتلخص مهمة مجلس الشيوخ بالدرجة الاولى في كونه مجلساً استشارياً للقنصلين مثلما كانت وظيفته بالنسبة للملوك . وفي الواقع أصبحت السلطة الفعلية الآن بيد هذا المجلس نظراً لأن القناصل يتحولون بمجرد انتهاء سنة ولايتهم إلى مواطنين عاديين . لذلك كان من البديهي أن يتكون لمجلس الشيوخ نفوذ كبير — بصفته السلطة الدائمة — يمارسه على القنصلين . علاوة على ذلك كان للمجلس حق اقرار أو رفض القرارات التي يقدمها اليه مجلس الشعب ، والتي لا تتخذ صفة القانون دون موافقة الشيوخ عليها .

مجلس الشعب :

استمر مجلس الجماعات Curiate الذي عرفناه في العهد الملكي يمارس صلاحياته في أوائل العهد الجمهوري وكان من امتياز هذا المجلس أن ينتخب القناصل لكل سنة وان يقر أو يرفض المقترحات التي يتقدم بها القناصل اليه . وفي الحقيقة كانت سلطات المجلس مقتصرة على التصويت لأنه لم يكن له حق التشريع أو مناقشة الاجراءات الضرورية المقدمة له . زيادة على ذلك كان حق النقض الذي يتمتع به مجلس الشيوخ يحد كثيراً من سلطات مجلس الشعب التشريعية . أما عمليات التصويت في هذا المجلس فكانت تتم برفع الايدي وبصوت أعضاء كل جماعة Curia بشكل وحدة وتقرر الاكثرية في كل جماعة فيما إذا كان من اللازم أن يكون تصويتها ايجابياً أو سلبياً . في مثل هذه الشروط يبدو للعيان جلياً تأثير النبلاء على هذا التصويت يمارسونه عن طريق نفوذهم الشخصي ونفوذ أتباعهم Clients الذين لم يكونوا بالطبع ليجرؤا على مخالفة رغبات أسيادهم .

المنظمة الدينية :

أما سلطات الملك الدينية فلم تنتقل بعكس سلطة الامبريوم إلى القنصلين بل عهد بها إلى كاهن يمارسها أطلق عليه اسم « ملك الاضاحي » Rex sacrorum كان تابعاً للكاهن الاعظم Pontifex maximus الذي جمع في يده العديد من السلطات المدنية والدينية مثل الدعاء للآلهة والتعرف على ارادتها ، والاشراف على التقويم ، والتشريع الديني ، واجراء مراسم الزواج الشرعي والولادات والتبني ، وتحديد أيام الاعياد العامة ... وأيام العمل والبطالة ... الخ .

كان يساعد الكاهن الاعظم في انجاز مهماته مجمع من الكهنة يعينون في وظائفهم مدى الحياة . أما الكاهن الاعظم فكان ينتخب منذ العهود الباكرة من قبل الشعب . وعلى العموم لم تشكل فئة الكهان جماعة منفصلة في المجتمع لأن وظائفهم كانت مفتوحة أمام القناصل وغيرهم من رجال مجلس الشيوخ يشغلونها عند الحاجة . من هذا نلاحظ أن ديانة الدولة الرومانية الرسمية كانت تابعة لرغبات الدولة مما أدى مع مرور الزمن إلى اكتسابها صفة شكلية محضة ، وعلى ذلك كان للكهنة نفوذ واسع في المجتمع الروماني مارسوه من خلال تمتعهم بصلاحيات القضاء الديني وتنفيذ العقوبات في حق من يخالف القانون الديني أو من يقترف جرائم قد ينظر اليها باعتبارها اساءة بحق الآلهة . ولم يقتصر نفوذهم على المواضيع الخاصة في المجتمع بل شمل مجالات أوسع، فاعتراض مجمع الرهبان على أي حدث أو احتفال عام يسبب تأجيل اجرائه بمجرد ادعاء الكهان أن الطالع لايشجع عقده في الموعد المقرر . ومن البديهي ان اهتمام النبلاء الشديد في املاء مناصب الكهانة من أبناء طبقتهم لم يكن مجرد ورع وتفاخر بل كان مفتاحاً للسيطرة على شؤون المجتمع والدولة .

بنجاح. إذ قدّر الأولون أن ارتحال كتلة العوام البشرية سيؤدي الى فراغ مدينة روما من الايدي العاملة علاوة على احتمال اتحاد هؤلاء مع أعداء روما أو اقدامهم على بناء مدينة جديدة تنافسها . وقد أسفرت هذه الثورة عن عقد معاهدة بين العوام والخواص تعرف باسم معاهدة « **الجبل المقدس** » تنص على اعطاء الاخيرين جانباً من السلطة التنفيذية تمثلت في انشاء نظام المحاماة ، والمشاركة في السلطة التشريعية عن طريق انشاء مجلس القبائل . وفي الواقع كسب العوام من ثورتهم اعتراف الدولة بهم وبمنظماتهم الجديدة ولسوف نرى أنها ستلعب دوراً بارزاً في المستقبل في قيادة حركة الشعبيين لتحقيق مزيد من العدالة الاجتماعية .

يقضي نظام المحاماة بانتخاب العوام أربعة محامين من أجزاء مدينة روما يكونوا ممثلين لهذه الطبقة أمام الدولة . وقد أعطيت لهؤلاء المحامين الحصانات الشخصية والاعتبارية لكي لايقعوا فريسة لأي ضغط أو تهديد بالقتـــل . كما شملت الضمانات بيوتهم التي أصبح يعتصم بها المطاردون والمضطهدون . أما علاقتهم بمجلسي الشيوخ والشعب فكانت أشبه بالمراقبين الذين لايحق لهم التدخل في المناقشات أو في التصويت الا عندما يمس الموضوع أحد العوام المضطهدين فعندها يحق لهم ممارسة حق النقض Veto لايقاف قرارات مجلس الشيوخ أو القضاة أو الموظفين الاداريين . وقد أمن لهم حق المساعدة (Jus auxilii) صلاحية تقديم مساعدتهم لكل من يرجوها . وقد ازداد عدد المحامين في القرن الخامس حتى وصل الى عشرة محامين وامتدت سلطتهم على المزارعين في الارياف ايضاً . كما أوجد إلى جانبهم ممثلون للعوام من الحكام الاداريين Ediles تخصصوا في وظائف الشرطة والوظائف الادارية .

أما مساهمة العوام في السلطات التشريعية عن طريق مجلس القبائل (Concilium Plebis) فكانت أشبه بالتوصيات يرفعها هذا المجلس إلى الدولة عن طريق القرارات والاستفتاءات التي يتخذها والتي لاتلزم الدولة الرومانية بالتقيد بها .

استناداً الى ما تقدم يتضح للمتتبع لشؤون المجتمع الروماني في القرن الخامس أن عملية الغاء الملكية عادت بأخصب الثمار على طبقة النبلاء الذين أصبحوا يقبضون تماماً على مقاليد الحكم . فقد استطاعوا احتكار وظائف القناصل وعضوية مجلس الشيوخ والكهانة أي كافـة السلطات التنفيذية والتشريعية والروحية . ومن احصاء الأسر النبيلة في رومـا يقدر المؤرخ بيلوخ Beloch عددها بحوالي ألف أسرة تنتظم في ٤٠ الى ٥٠ عشيرة ويبلغ تعداد أفرادها قرابة ٤٥٠٠ شخصاً أي أن أقلية صغيرة من النبلاء لم تكن تشكل أكثر من ٨٪ من مجموع السكان العام كانت تسيطر على كل مرافق الدولة والمجتمع وتتحكم فيها لتأمين مصالحها الخاصة (١). بينما كان على طبقة العوام وهي الاكثرية دفع الغرم الفاحش بقبولها الحرمان من كل شيء .

كفاح العوام للحصول على المساواة السياسية :

كان من جراء الحروب التي خاضتها رومـا واللاتيوم اضطرار الارستقراطيون من مالكي الاراضي ترك مزارعهم والمساهمة في الاعمال العسكرية التي ازهقت أرواح الكثيرين منهم . وقد نتج عن اقامـة الارستقراطيين في المدينة أن احتكوا أكثر واكثر بالعوام وشعروا بموجة التذمر العنيفة التي صدرت عنهم . فهؤلاء الاخيرون محرومون من الاشتراك بالاعمال السياسية والدينية والادارية ، يباعون كالسوائم في حالة تخلفهم عن ايفاء ما عليهم من ديون . وحتى خبزهم اليومي كانوا لايحصلون عليه بسهولة لأن تجارة القمح كانت بيد الارستقراطيين . وما يلبث العوام ان يعبروا عن تذمرهم بقيامهم بثورة سلمية عام ٤٩٤ ق . م هددوا فيها بالهجرة من روما والارتحال عنها للاستيطان في منطقة الجبل المقدس المجاورة . وبالفعل كان هذا التهديد ضغطاً سياسياً واجتماعياً على النبلاء مارسه العوام

(١) s. Beloch, Römische Geschichte, S. 220 - 223.

توسع روما وتوحيد شبه جزيرة ايتاليا بين ٥٠٨ و ٢٦٤ ق.م .

ذكرنا آنفاً أن روما استطاعت بفضل سياسة التحالفات التي عقدتها أن تؤمن جبهة قوية في ايتاليا الوسطى تمكنت من ايقاف اندفاع الشعوب الجبلية وتسديد ضربات قوية للاتروسكيين أفقدتهم قواهم . وبنفس الوقت كانت الحكومة في مدينة روما منهمكة في اجراء التعديلات على منظماتها الحكومية لكي تستطيع أن تواجه متطلبات مجتمع يتزايد أفراده بسرعة من جهة ولكي تستجيب لمطالب العوام الذين هبوا يدافعون عن حقوقهم السياسية والمدنية من جهة أخرى . ويلاحظ المتتبع لاحداث التاريخ الروماني في القرون الاولى من العهد الجمهوري أن هذه الاحداث جرت قبل بدء عمليات كتابة التاريخ الروماني بصورة منتظمة . لذلك كانت المعلومات عنها شحيحة اقتصرت على أساطير ومرويات بقيت في الاذهان بصورة غامضة متضاربة فشملت ملابسات القضاء على الملكية والهجرة إلى الجبل المقدس وقصة القائد الروماني كوريولان ... الخ [١] . وقد ساد في الفصول الاولى منها اعادة تركيب مجريات الحوادث على يد الكتاب الرومان التالين الذين أعادوا تأليفها وفق رغباتهم الخاصة ومعتقداتهم السياسية مضيفين اليها الكثير من الحوادث ذات الطابع الدراماتيكي ... لتصبح قصصهم شيقة ممتعة . وللأسف لم تستطع الدراسات التاريخية والابحاث الحديثة التي كرست لهذه الفترة أن تخرج تفاصيلها من الغموض والنقص اللذين يلابسانها لذلك تبقى الصورة المقدمة للمهتمين بالتاريخ الروماني عن ارساء قواعد النظام الجمهوري أو توسع روما في عملية توحيد ايتاليا مضطربة المعالم .

---

(١) قام القائد الروماني كوريولان وهو من النبلاء الذين طردتهم روما بالانضمام إلى أعداء قومه من الجبليين وقادهم لفتح مدينة روما عام ٤٩١ ق.م . ولم يتراجع عن أسوار المدينة الا ازاء استعطاف والدته وزوجته وأولاده له برفع الأذى عن قومه والعفو عنهم.

للتعرف على طبيعة أعمال التوسع التي خاضتها روما لابد للقارىء أن يكون بادىء ذي بدء فكرة عن الاوضاع التي كان عليها النظام العسكري الروماني ، نظراً لأن المؤسسة العسكرية كانت الركيزة الاولى في خلق الدولة الرومانية وفي تأمين توسعها الاستعماري الذي لم يقتصر على المناطق المجاورة لايتاليا بل سيشمل بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط بكامله .

الجيش الروماني وانظمته العسكرية :

اعتمد نظام العسكرية الرومانية على مبدأ التزام كل المواطنين الذكور بأداء الخدمة العسكرية . وانما تختلف مدة الخدمة وعدد المكلفين بحسب مقدرة المواطنين المالية . وفي العهد الملكي كان تكوين الجيش الروماني يشابه كثيراً الجيوش الاغريقية وفق ما تصفها لنا ملاحم هومروس . فكان الجنود يدعون من بين القبائل والاسر الرومانية أما الدور الرئيسي فكان يلعبه النبلاء بسبب تفوقهم على المواطنين الفقراء سواء في التدريب أو في المعدات الحربية . فالنبلاء كانوا يذهبون إلى المعركة ممتطين الخيول أو العربات ، مشكلين بذلك الفرق المتحركة أو الخيالة Equites وفي خلال المعركة كانوا يترجلون ، بينما يخدم بقية المواطنين في الجيش بصفة مشاة Pedites . وقد انتقلت هذه الانظمة نفسها الى العهد الجمهوري ما خلا العربات التي استغني عنها وأصبح الرومان يتبعون نظام الفالانكس Phalanx [1] في تشكيل وحداتهم متأثرين بذلك من أنظمة القتال الاغريقية في القرن الخامس، ومركزين الاهتمام على دور فرق المشاة في الحرب والتي انقسمت إلى مشاة خفيفة وثقيلة جهزت الفئة الثانية منها بأسلحة ثقيلة وكانت تتحد خلال المعركة في نظام الفالانكس . ومنذ تلك الفترة أصبحت

---

(١) تتألف الفالانكس في الجيوش الاغريقية من كتلة متراصة من المشاة الثقيلة التسليح نظمت في ثمانية صفوف . وقد تم تطوير هذه الفرقة المحاربة كثيراً في عهود فيليب المكدوني وابنه الاسكندر الكبير .

فرق المشاة في الجيش الروماني عماد قوته بينما تراجع دور الخيالة كثيراً. وفي الواقع كان تشكيل فرق المشاة الثقيلة والخفيفة يستند على أساس الثراء المالي .

اعتباراً من حصار مدينة فئي بدأت الدولة تنفق على القطعات في الميدان مما خفف على فقراء الجنود العبء المادي الذي كانوا يتحملونه بسبب الخدمة العسكرية وبنفس الوقت مكن الرومانيين من القيام بحملات طويلة الأمد. على كل حال لم يدم العمل بنظام الفالانكس طويلاً بل حل محله قبل الحروب السامنيتية على الغالب تشكيلات الفرق العسكرية التي تتألف كل فرقة منها من ٤٢٠٠ جندي ينخرط كل ١٢٠ أو ٦٠ جندي منهم في وحدة Manipule لها استقلالها وحريتها في الحركة والمناورة، مما أمن للجيش الروماني المرونة والقدرة على العمل حتى في المناطق الصعبة . واقتبس الرومان لزيادة فعاليات قواتهم الدروع المتطاولة الشكل والرماح الخفيفة السهلة القذف التي كان يتسلح بها الجنود السامنيتيون . كذلك أخذوا عن الاتروسكيين الشارات العسكرية والاسلحة البرونزية . أما تطوير فرقة الخيالة فلم يتقدم كثيراً خاصة وأن الرومان اعتمدوا في هذا السلاح على قوى الخيالة المتوفرة لدى حلفائهم .

وبالخلاصة قامت الدولة الرومانية بتطوير جيشها بسرعة كبيرة مقتبسة من أعدائها أفضل مالديهم من فنون الحرب ولم يعد توزيع الجنود والقوى يتم على أساس امكانيات هؤلاء المالية بل تدخلت الدولة وأمنت نفقات الجنود وأسلحتهم بنفسها ووضعت كل فرد في رتبة تتناسب مع سنه وخبرته في القتال . واعتبارا من القرن الثالث أصبحت الخدمة العسكرية في الجيش والبحرية الزامية على كل من تتوفر فيه اللياقة الجسمانية من الذين يمتلكون حداً معيناً من الثروة وكان العمر الوسطى لجنود الجيش يتراوح

بين ١٧ – ٤٦ سنة ، ومن تجاوز هذا السن تكون خدمته في الثكنات والحاميات ضمن المدينة . علاوة على ذلك حددت الدولة عدد الجنود المطلوبين في كل عام بأربعة فرق تجمع في جيشين يضاف اليها ١٨٠٠ فارس يمكن مضاعفتهم وقت الحاجة . ثم ان القوات الرومانية كان يعضدها في ميدان القتال عدد مقابل لها على الاقل من جنود حلفاء روما الايتاليين الذين تقع نفقات اعالتهم وتجهيزهم على المدن الحليفة . أما قيادة الجيش فقد عهد بها الى القنصلين . وقد أدت كثرة الحروب الرومانية وطول مدة الخدمة العسكرية إلى وجود جماعة كبيرة من الجنود المحترفين ضمن كل وحدة استطاعوا أن يحافظوا فيها على مستوى لائق من الكفاءة العسكرية . وبصورة عامة كان القناصل أنفسهم جنوداً خبيرين في الاصل ، هذا ان لم يكونوا قادة عسكريين قديرين . اذ كان المشترط في المرشح لشغل وظيفة في الدولة أن يكون له رصيد خدمة في عشرة حملات عسكرية على الاقل . وبالمثل كان مساعدوا القناصل من المحامين Tribune العسكريين جنوداً متطوعين لهم في الجيش خدمة تتراوح على الاقل بين خمسة الى عشرة سنوات . وفي الحقيقة لم تكن القيادة القديرة هي العامل الاول في نجاح الجيوش الرومانية وانتصاراتها بقدر ما كان **الانضباط الصارم** الذي ساد في أنظمتهم العسكرية المسؤول عن سيادة روما على الشعوب . فسلطة الامبريوم خولت القناصل حق التصرف المطلق في حياة جنودهم خلال المعارك . ولكم كانت عقوبة الموت تطبق في حق المتقاعسين أو الفارين أو الجبناء منهم . ويتجلى هـذا النظام الصارم والاطاعة العمياء في انشاء المعسكرات أثناء سير الفرق . فرغم التعب والارهاق كان الجنود يقومون عقب كل مسيرة ببناء معسكر دفاعي محصن محاط بالخنادق والاسوار الترابية ينفذ مخططه وفق قواعد تقليدية لاحياد عنها . وفي هذا

الانضباط وتنفيذ الاوامر تتميز الجيوش الرومانية كثيراً عن الجيوش الاغريقية . وفي الحقيقة كان المعسكر المحصن نواة لتكنيك الجيوش الرومانية حتى خلال المعارك : سواء في عمليات الهجوم أو في عمليات الدفاع . وعند الهزيمة كان المعسكر مركزاً للتراجع والمقاومة، خاصة إذا وجدت هذه الجيوش في أراضي الاعداء . ومن الملاحظ أن مثل هذه المقومات العسكرية والخلقية لم تكن تتوفر لدى الشعوب المجاورة للرومان مما أتاح لروما أن تظفر بمناهضيها في شبه الجزيرة الايتالية . ولا ننسى أن عدد القوات التي توفر لروما تجنيدها من دولة روما نفسها بلغ حوالي ٢٥٠ ألف جندي يقابلها ٤٢٣،٠٠٠ جندي قدمها حلفاء روما الايتاليين ، أي كان باستطاعة القوة الجديدة في أواسط ايتاليا مقابلة أعدائها بقوة عسكرية ضخمة تزيد عن الثلاثة أرباع مليون مقاتل . هذه القوات البرية أمنت لروما الدفاع عن أراضيها ومكنتها من احتلال المناطق المجاورة في شبه الجزيرة الايتالية وتوحيدها . أما قوتها البحرية فلا تبدأ بالتكون الحقيقي الا اعتباراً من منتصف القرن الرابع حيث تبدأ مطامع روما في التوسع خارج ممتلكاتها . وقد توفر لها آنذاك قوة صغيرة تتألف من ٢٥ مركباً سيرت نحو جزيرة كورسيكا لتأسيس مستعمرة رومانية هناك . وكانت طبيعة العلاقات مع الشعوب الشرقية كالاغريقيين والقرطاجيين تتطلب من روما تعزيز قوتها البحرية لتطردهم من أراضيها ومن ثم لتغزوهم في عقر دارهم . وعلى العموم لم تعتمد روما في توسعها الداخلي على السلاح البحري الذي كان ضئيلاً ، يعتمد بالدرجة الاولى على ملاحين أجانب . ولعل مرد ذلك في الأصل كون الشعب الايتالي شعب مزارعين وفلاحين .

مراحل الوحدة في شبه جزيرة ايتاليا

١ ـ رأينا أن سياسة روما اقتضت عقد **تحالفات** مع جيرانها من

اللاتين – وهم المرتبطين معها قبل ذلك بروابط من الدم والمصالح المشتركة – ومع بقية الشعوب الايتالية أي المستوطنة في شبه جزيرة ايتاليا كالايتاليين والاغريق والايلليريين والاتروسكيين الذين أطلق عليهم اسم socii Italici . وقد تضمنت معاهدات روما العديدة مع هؤلاء الفرقاء التزامهم بتقديم المساعدة العسكرية إلى روما من جهة ، وان يسلموا لروما الاشراف على علاقاتهم السياسية مع الدول الاخرى من جهة أخرى . مقابل ذلك لم يكن يحق لروما فرض أي رسوم عليهم كما كانت لقواتهم حرية الاستقلال عن الجيش الروماني ، بكل ما يتضمنه ذلك من تجهيز وتمويل هذه القوات وتعيين ضباطها . أما قيادتها العليا فكانت تابعة للقادة الرومان . ومن الطبيعي أن يتشارك الحلفاء في الواجبات العسكرية ويتحملوا أقساطهم من الخسائر والغنائم بنسبة كان لروما على الغالب نصيب الاسد فيها . واستفادت روما من حلفائها المستعمرين الاغريق Socii navales الخبيرين بالملاحة بأن فرضت عليهم تزويد الاسطول الروماني بالسفن الحربية والرجال وأعفتهم مقابل ذلك من الخدمة في القطعات البرية . وقد رأينا كيف قدمت روما لحلفائها التسهيلات التجارية والمعاملات المالية ... في مدينة روما نفسها بموجب معاهدة كاسيوس على أساس المعاملة بالمثل واحترام الاستقلال الداخلي واللغة والقوانين والمؤسسات السياسية الخاصة بكل جماعة من الجماعات المتحالفة . ولا يغرب عن البال أن هذه التحالفات عززتها أواصر من الصداقة والمصلحة المتبادلة التي كانت تجمع الطبقة الارستقراطية في روما بزميلاتها في المدن الحليفة ، بما فيها المدن الاتروسكية نفسها . خاصة وأن هذه السياسة التي اتبعتها روما مع حلفائها كانت تنبع عن مجلس الشيوخ أي عن طبقة النبلاء المهيمنة عليه . وبكلمات أخرى يمثل التحالف المعقود بين روما والمدن الحليفة تحالف وتلاقي مصالح الطبقات الحاكمة التي تستطيع فرض ارادتها على الطبقات الدنيا في مجتمعها وتسييرها في الاتجاه الذي ترغبه .

٢ ــ الى جانب سياسة التحالفات طبقت روما طريقة **الحاق** الاراضي المفتوحة بمدينة روما وهي طريقة سهلة ، فما لا يمكن اجتذابه الى الوحدة بالسياسة والترغيب يمكن اخضاعه عن طريق القوة والفتح . وكان مصير أهل المنطقة المفتوحة اما الابادة في حالة التعنت في المقاومة والبيع في أسواق الرقيق أو ترحيلهم بشكل اجماعي إلى روما . وإمّا ابقاء سكان المنطقة المفتوحة في مقاطعاتهم مع مصادرة قسم كبير من أراضيهم لتصبح أملاكاً للدولة أو لانشاء مستعمرات رومانية عليها . ونتج عن هذه السياسة اتساع الاراضي التابعة لروما . وازدياد عدد سكانها .

وفي القرن الرابع تعدلت طريقة الالحاق بأن أظهرت روما بعض التسامح في معاملة المغلوبين عندما كانت تعطي منطقتهم **صفة البلدية** Municipe وتمنحهم الحقوق المدنية باستثناء الحقوق السياسية من تصويت وانتخاب . وقد طبقت هذه الطريقة الثالثة على عدد كبير من المدن الايتالية كان أولها مدينةتسوكولوم . وكانت القاعدة السائدة في كل هذه العمليات هي احلال سياسة التوازن في عدد السكان الذين يمنحون حق المواطنة في المجتمع الروماني بأن لاتزيد نسبتهم فتطغى على المواطنين الرومان قاعدة الكيان السياسي للدولة الرومانية . وانطلاقاً من هذا المبدأ عرف المجتمع الروماني الباكر التصنيفات التالية لسكانه :

آ) **مواطنين رومان** يتمتعون بحق المواطنة الكاملة .

ب) مواطنين ذوي حقوق خاصة فقط .

ج) **أحلاف الرومان** وهم الحلفاء اللاتين .

د) شعوب ايتاليا المتحالفة مع روما فدرالياً .

وقد أظهرت روما في محاولاتها المتعددة مرونة وسياسة حصيفة أعطت لكل حالة الحلول المناسبة لربط المنطقة الملحقة بروما ادارياً وسياسيا . ولا

أدل على ذلك أنها لم تتبع نفس سياسة الالحاق مع المناطق العالية التحضر مثل اللاتيوم وجنوب ايتاليا الاغريقي وكامبانيا وأبوليا الشمالية وأومبيا بل تركت هناك دول المدن قائمة . ولانخطيء القول اذا عبرنا عن عمليات التحالف والالحاق بأشكالها المختلفة بأنها استعمار روما السافر لشبه جزيرة ايتاليا مارسته بمزيج من البطش والدهاء السياسي والتسامح . وعلى العموم قابلت روما المدن والشعوب الايتالية المقهورة بشروط معتدلة . فقد كان هدفها الرئيسي بسط السيادة الرومانية على ايتاليا أكثر من الانتقام من مناهضيها والتنكيل بهم . وبالفعل أثبتت هذه السياسة جدارتها عندما تعرضت لمحك التجربة خلال الحروب التي انفجرت في القرون التالية ، وكان أن قابل الحلفاء الايتاليون تسامح روما بالاخلاص لها والتضامن معها . إلا أنه على الرغم من هذه النتائج الايجابية التي توصلت اليها السياسة الرومانية في العهد الجمهوري لم تنجح روما بعد في تكوين الشعب الايتالي . أما الخطوة المميزة لهذه الفترة فهي تتمثل في بدء اطلاق اسم ايتاليا – الذي كان الاغريق ينادون المناطق الواقعة في جنوب شبه الجزيرة الايتالية – على سكان ايتاليا عامة .

الفتوحات الرومانية في شبه جزيرة ايتاليا

الغارات الغالية - القضاء على الأتروسكيين - احتلال جنوب ايتاليا

خلافاً لما يتوقعه القاريء من وجود خطة منتظمة رافقت عمليات توسع روما ومقارعتها لأعدائها حتى ظفرها بتوحيد ايتاليا ، تجابهنا تطورات هذه الأحداث بحقيقة راهنة تتلخص في أن الظروف التاريخية والاعتبارات المحلية وحدها هي التي أملت الخطوط الأساسية لمهمة روما القائدة . فلم يكن هناك خطة مدروسة ولا عمل منهجي يتبع مبادىء معينة ، ولعل

الصدفة لعبت دوراً كبيراً في الوصول إلى مثل هـذه النتائج الباهرة .
واذا بدأنا بتفنيد سياسة روما في اقدامها على عقد الحلف مـع جامعة اللاتين – وهي الخطة الأولى لانشاء قاعدة تكون مركز استقطاب لبقية المدن والدويلات في شبه الجزيرة – نرى أن الحافز لها دوماً كان وجودها وسط خضم من الشعوب المعادية تحيط بها وتـكاد تخنقها في عقر دارها وهي لم تكد بعد تقطف ثمار النظام الجمهوري الجديد . لذلك كان تحالفها مع جيرانها الذين لم يكونوا يضمرون لها الود المخرج الوحيد من الطوق الذي يهددها بالضيق يوماً بعد يوم . خاصة وأن قواتها كانت تحمل عبئاً كبيراً في الدفاع عن المدينة وممتلـكاتها في جبهات عديدة . كذلك كانت لديها حاجة ملحة للتوسع بالنظر لتزايد عدد سكانهـا وعجز سهول اللاتيوم – التي استنفذت امكانياتها خلال قرون من الاستثمار الحثيث – عن تأمين الغذاء اللازم لهم .

ولقد أدى انهزام الاتروسكيين المتكرر في الـلاتيوم وفي الساحل (**معركة كوما**) وفي اتروريا بعـد احتلال مدينه Veii وبعد اغارات الـكلتيين على مناطق اتروريا الشمالية – التي سددت الضربة القاضية للمتلـكات الأتروسكية في شمال ايتاليا وهي المنطقة المسماة Cisalpin Gaul . أدى ذلك إلى نشوء فراغ في ايتاليا الوسطى والشماليـة عمل الغزاة من برابرة الكلتيين والغول جاهدين لاملائه ، رغم كل المقاومة التي بذلها الاتروسكيون لمدة تزيد عن نصف قرن ، ومن ثم للانطلاق إلى مواقع أخرى جديـــدة يقتطعونها من ايتاليا الوسطى . فالفراغ الناشيء يمتلىء بعدو خطر لايرحم كان يدمر المدن التي يفتحهـا ويحل في المنطقة الذعر والتشرد . هذه الغزوات الـكلتية والغالية والسامنتية كانت المحرض الاول لروما لتكريس جهودها منذ عقد الحلف اللاتيني على شمال ايتاليا بدلاً من جنوبها . فالاغريق

لم يكونوا يشكلون خطراً على رومـــا بقدر مايشكله الغزاة البرابرة . وعلى العكس كان اغريق الجنوب الايتالي حلفاء روما في القضاء على الاتروسكيين عدوهم المشترك . وقد تمكن الرومان كما رأينا من انتزاع اتروريا الجنوبية من الاتروسكيين وجعلها الحدود الشمالية لممتلكاتهم تتلقى صدمات الشعوب المغيرة . وسهل لهم هذه المهمة أن القرطاجيين حلفاء الاتروسكيين تلقوا ضربات قاسية في جزيرة صقيلية خاصة في **معركة هيمير** عام ٤٨٠ ق . م . أجبرتهم على توقيف نشاطهم في مساعدة الاتروسكيين ضمن الارض الايتالية نفسها . وهكذا نرى ان انحلال الاتروسكيين اجتماعياً وكقوة لها وزنها في مناطق هامة من وسط وشمال ايتاليا ، وتغير نظام الحكم لديهم الى نظام جمهوري أضعف الطبقة الارستقراطية واستحث روما لأن تلعب دورها التاريخي المذكور .

الغزوات الغالية

ما كاد الرومان ينتهون من حصار مدينة فئي ويظفرون على أعدائهم الاتروسكيين حتى جاءتهم لطمة جديدة لم يحسبوا لها حسابا . فقد عبرت جماعات من **القبائل الكلتية** [١] حواجز جبال الالب حوالي ٤٠٠ ق . م مندفعة نحو وادي نهر البو الخصب قادمـة من مواطنها الاصلية في حوض الدانوب الاوسط التي اضطروا لمغادرتها نتيجة ضغط الشعوب الجرمانية المتوطنة في الشمال . وقد استطـــاع الغزاة التغلب على الاتروسكيين الذين كانوا قد توضعوا في أواسط نهر البو وشكلوا الطبقـــة الحاكمة فيـــه . وقبـل أن نحـل نهـاية القرن الرابع نرى الكلتيين يحتلون كافة الاراضي الممتدة من نهر تيسينوس وبحيرة ماجيورى نحو الجنوب الشرقي إلى بحر الادرياتيكي في رقعة تنحصر ما بين مصب نهر

---

(١) ينتسب الغزاة إلى ذلك الفرع من الكلتيين الذي يطلق عليه اسم الغاليين .

البو وأنكونا [١] . واعتباراً من تلك الفترة بدأت جماعات كبيرة منهم تتوغل جنوباً ضمن شبه الجزيرة الايتالية سعياً وراء أسلاب جديدة . وقد توغلوا عام ٣٩١ عبر جبال الابنين إلى أواسط اتروريا حتى وصلوا إلى مدينة **كلوزيوم** Clusium الاتروسكية التي كانت تعتبر ضمن النفوذ الروماني بعد انتزاع الرومان لاتروريا الجنوبية من الاتروسكيين . وألقوا الحصار عليها ، لذلك رأى الرومان أنفسهم مضطرين لمجابهة هذا الخطر الجديد بأن أوفدوا رسلا للتوسط بين الغاليين والاتروسكيين أهل المدينة. ويقال بأن المبعوثين الرومان الذين كانت مهمتهم اقناع الغاليين بالانسحاب اشتركوا في معركة نشبت وانحازوا إلى الاتروسكيين . فتحول الغاليون عن حصار مدينة كلوزيوم المنيعة ليتجهوا نحو عدوهم الاصلي قاصدين غزو مدينة روما نفسها. وبالمقابل انطلق الرومان من مدينتهم بقوات كبيرة أملا في ايقاف العدو الزاحف عند أحد روافد نهر التيبر، فجرت هناك **معركة اليا** Allia الشهيرة التي أدت إلى اندحار الجيش الروماني. وبذلك وقفت مدينة روما دون حول أو سور يحميها تجاه الغزاة ، بينما انسحبت فلول الجيش المنهزم للاختباء في أطلال حصون مدينة فئي . أما سكان روما فقد اضطروا لاخلاء المدينة والنجاة بأرواحهم هاربين الى المدن الرومانية المجاورة ولم يبق فيها الا حامية صغيرة اعتصمت في حصن الكابيتول . دخل الغاليون إلى المدينة [٢] وعاثوا فيها دماراً ونهباً غير أنهم عجزوا عن

---

(١) أطلق الرومان على هذه المنطقة اسم Cisalpin Gaul أي بلاد الغول الواقعة في الجهة الجنوبية من جبال الالب .

(٢) يصف المؤرخ الروماني (تيت – ليف) أن أعضاء مجلس الشيوخ أظهروا شجاعة كبيرة عندما صمموا على البقاء في مدينتهم . وجلسوا في مقاعدهم في مجلس الشيوخ مرتدين شعاراتهم. وقد حدث الاصطدام بينهم عندما تعرض جندي غالي بمس لحية أحد الشيوخ الذي بادره بضربة من عصاه كانت كفيلة ببدء المجزرة الرهيبة .

اقتحام الكابيتول [١] . ومن الجدير بالذكر أن طبيعة غزوتهم لم تكن تستهدف احتلال المناطق المهاجمة بقدر ما كانت تسعى لجمع الاسلاب والعودة بها إلى قواعدهم في اتروريا . لذلك لم يكن لدى الغاليين رغبة في البقاء في منطقة اللاتيوم بل كانوا يستحثون العودة إلى الشمال بعد أن وصلت اليهم أخبار غزوات الفنتيين لمستعمراتهم في وادي البو . وتم عقد الصلح بعد أن قدم الرومان لهم غرامة مالية باهظة . دفعت من الذهب [٢] .

لم تكن هذه الغزوة المدمرة التي تخلدها الروايات التاريخية ، الاولى والاخيرة ، اذا ما تلبث الغزوات على شبه الجزيرة الايتالية أن تتكرر قادمة من الشمال متوغلة حتى مناطق أبوليا. وفي حوالي ٣٥٧ يظهر الغاليون من جديد في منطقة اللاتيوم . ولم ينبر الرومان هذه المرة للتصدي لهم بل قبعوا خلف اسوارهم التي شيدوها حول روما عقب الغزوة الاولى [٣] . وعندما تقدم الغاليون مرة ثالثة عام ٣٤٩ ق . م . كان باستطاعة الرومان أن يسدوا عليهم الطريق بمعونة حلفائهم مما اضطر الغاليين الى الانسحاب. وبهذا الانتصار أصبحت روما رمزاً لمقاومة البرابرة الذين (لايقهرون) وارتفع اعتبارها بين مدن ايتاليا الوسطى .

بعد انسحاب الغاليين عاد الرومان لتوطيد نفوذهم في مناطقهم السابقة في جنوب اتروريا ، واتبعوا سياسة اسكان القبائل الرومانية في المناطق الجديدة المفتوحة مثل سهول البو الغنية . ثم هزموا الفولسكيين وكان

(١) ترافق قصة حصار الكابتول أسطورة الأوزات التي نبهت حراس الحصن بصيحاتها إلى محاولة الغاليين اقتحام الحصن بغفلة عن حراسه .

(٢) تقدر قيمتها حالياً بمليون ونصف ليرة سورية ونستبعد كثيراً أنه كان باستطاعة روما بمواردها المحدودة آنذاك تقديم مثل هذه الغرامة الفادحة ، ورغم ما يذكر عن أن الغرامة جمعت من أصدقاء روما من سكان مرسيليا فان المبلغ نفسه مبالغ فيه كثيراً .

(٣) بني السور عام ٣٧٨ من الحجارة ، وبلغ طوله حوالي ٦,٥ كيلو متراً .

عليهم أثناء ذلك صد هجمات الغاليين من آن لآخر حتى تم لهم طردهم نهائياً وكانت غزوتهم عام ٣٣٢ آخر مرة يصلون فيها إلى منطقة اللاتيوم .

انفراط الجامعة اللاتينية وتحالف الرومان مع أهل كامبانيا

كان لاحتلال روما على يد الغاليين صدى عميق لدى الشعوب المجاورة، ولكنّ هذه الغزوة لم تترك آثاراً مستديمة في روما نفسها بل كانت محركاً لشعوب ايتاليا الوسطى التي خضعت لروما سابقاً خوفاً منها . ونذكر منهم على الاخص شعوب الآكيين والفولسكيين والاتروسكيين الذين أملوا في اندحار روما أن يستعيدوا ما فقدوه على يدها . وما أن يأتي عام ٣٥١ ق . م . حتى يكون الاتروسكيون قد انهزموا كلية وتخلوا عن محاولاتهم مهاجمته روما ناشدين السلام. وقد لاقى **الفولسكيون** مصيراً مماثلاً بنتيجة الحرب التي خاضتها روما ضدهم بعد أن كان املهم يتركز في الاحتفاظ باستقلالهم وتوطيد نفوذهم على المقاطعات الجنوبية من اللاتيوم . ونجح الرومان عام ٣٥٨ في الحاق قسم كبير من اراضيهم بروما التي اسكنوا فيها مستعمرين رومانيين جدد . ومع سقوط عاصمة الفولسكيين **أنيتوم** عام ٣٣٨ تم اخضاعهم وقبلوا التحالف مع الرومان .

نهاية الجامعة اللاتينية عام ٣٣٨ ق.م لم تقتصر محاولات التمرد على روما على الفولسكيين والاتروسكيين ، بل شملت أيضاً شعوب اللاتين التي رغبت في فصم عرى تحالفها مع روما . فأعلنت عدد من مدنهم انفصالها قبل أن تتمكن روما من التخلص من الخطر الغالي وأخذت تتحدى سيادة روما في منطقة اللاتيوم . ولكن مسعاهم باء بالفشل واضطروا مثل بقية الفولسكيين والهنريكين لقبول تجديد تحالفهم القديم مع روما عام ٣٥٨ ق . م [١]

---

(١) المعروف باسم معاهدة كاسيوس والمعقود عام ٤٩٣ ق . م .

وعلى الرغم من أن غالبية شعوب اللاتين بقيت مخلصة لروما حتى عام ٣٨٠ نرى اللاتين الآن يهبون للمطالبة بحقوقهم ويرفعون السلاح في وجه روما ، بعد أن تبين لهم في تجارب عديدة أن تحالفهم معها لن يكون من استمراره الا توطيد سيطرتها عليهم واحتفاظها بالمكاسب لنفسها . وقد جاءت التجربة عندما حرمتهم روما من حصتهم في أراضي الفولسكيين التي ألحقتها روما بها . فعقدوا عام ٣٥٤ حلفاً من شعوب السامنتيين المتوطنين في الجبال الواقعة إلى الجنوب الشرقي من اللاتيوم كان الغرض الاساسي منه مقاومة الغاليين ، ثم مالبث أن تحول إلى حلف ضد روما ذاتها . وتقدم اللاتين بطلب الى الرومان يرجون فيه اعادة تحقيق المساواة السياسية التي كانوا يتمتعون بها سابقاً . وجاء رفض الرومان يحمل معه نذير الحرب ، وبنتيجة الصدام الذي دام ثلاث سنوات تم الظفر للرومان إذ هزموهم هزيمة ساحقة قرب **نهر استورا** . ثم بادروا لحل الجامعة اللاتينية والحلف الروماني الهرنيكي وأرغموا المدن اللاتينية على القبول بشكل منفرد بشروط روما وبسيادتها عليهم . من جراء ذلك فقدت خمسة مدن لاتينية استقلالها وضمت إلى الدولة الرومانية . بينما حوّلت المدن الباقية ومستعمراتها إلى أحلاف للرومان ملزمين بتقديم الجنود لهم عند الحاجة . كذلك فقدت المدن اللاتينية حق التجارة والتزواج مع بعضها ، وكان من شدة وطأة روما عليهم أن ربطتهم جميعاً بها وسمحت لهم بالتجارة معها فقط وضاع من اللاتين آخر أمل في اعادة تشكيل وحدة تجمعهم .

روما والمدن الكامبانية : كان أهل كامبانيا قد عقدوا معاهدة تحالف مع اللاتين ازاء الخطر الذي يتهددهم من قبل السامنتيين . فاستطاع الرومان أن يضربوا هذا الحلف خلال السنة الاولى لحرب اللاتين بأن فصلوا الكامبانيين عن حلفائهم ، وأقنعوهم بقبول شروط صلح مرضية مع

روما . وبموجب ذلك تم منح المدن الكامبانية كابوا وكوما حق المواطنة الرومانية ، مما أفقدها بالوقت ذاته استقلالها وألحقها بالدولة الرومانية . وعلى هذا النحو استطاعت روما توسيع حدودها نحو البحر التيراني حتى خليج نابولي ، ملتهمة مدن كامبانيا واحدة تلو الاخرى ، بعد أن تلوّح لها ببريق الحصول على حق المواطنة الرومانية . ونذكر في مطلع هذا الفصل أن اعطاء حق المواطنة للمدن الحليفة استثنى ممارسة الحقوق السياسية بما فيها التصويت والترشيح لانتخابات المجالس العامة « Cives sine suffragio » . أما ما كسبته مدن كامبانيا لقاء حق المواطنة فيأتي بالدرجة الاولى تمتع تلك المدن بالأمن ، أي بحماية روما لها ضد هجمات الاعداء ، وممارستها لبعض الاستقلال المحلي ، ثم سيادة القانون الروماني في معاملاتها مع المواطنين الآخرين . الا أنهم كانوا مقابل ذلك ملزمين بأداء الخدمة العسكرية شأن المواطنين الرومان .

الحروب السامنية

بعد أن وطدت روما سيادتها في مدن كامبانيا واللاتيوم بالالحاق والتحالف وتأسيس المستعمرات الرومانية الجديدة في النقاط الستراتيجية نجدها تتفرغ لحرب قبائل السامنتين الجبليين عدوهم المشترك ، خاصة وأنها ضمنت الآن اشتراك اللاتيوم وكامبانيا في الحرب وأمنت الارتباط بين هاتين المقاطعتين . أما بالنسبة للسياسة الخارجية فقد بادرت عام ٣٢٧ بعقد **معاهدة مع قرطاجة** تجديداً لمعاهدتها القديمة كانت اعترافاً من قرطاجة بنتائج الحروب في اللاتيوم وكامبانيا والتغيرات الطارئة على ايتاليا الوسطى ، كما سمحت للتجار الرومان بالمتاجرة مع افريقيا واسبانيا

اختلفت طبيعة الصراع بين روما واعدائها **السبيليين** عن الظروف التي أدت لنزاعها مع اللاتين والكامبانيين . فقد كان هؤلاء الاخيرين شعوباً

زراعية وفلاحين لا همّ لهم الا حماية أنفسهم وممتلكاتهم تجاه المعتدين وكسب أراضي زراعية جديدة . أما السبيليين فكانوا أقواماً جبلية خشنة تعيش في ظروف معيشة قاسية حيث تشح الارض عن تأمين القوت لاعداد القبائل المتزايدة . وبالطبع كان المخرج الوحيد من هذه الضائقة الخانقة هي انحدار السبيلين إلى السهول المجاورة للتوطن فيها وطرد سكانها. وقد رأينا في القرن الرابع أن المدن الاغريقية والابوليين في جنوب ايتاليا قاست الامرين من توسعات القبائل السبيلية واضطرت لخوض دفاع مرير مع فروعهم العديدة كاللوكانيين والبروتيين والسامنتيين . هذه الشعوب كانت تتدافع في موجاتها العديدة نحو السهول ولا تتورع أن تطرد المستقرين من أجيال الهجرات الجبلية السابقة لتحل مكانهم . ولعل هذه الظاهرة صفة خاصة تنطبق في كل زمان ومكان إذا توفر العنصران المتضادان على صعيدين متجاورين : من بدائية وتحضر إلى فقر وغنى ، نجد مشابهاً له في هجرات الشعوب السامية من الصحراء أو السهوب مندفعة نحو بلاد الهلال الخصيب موجة اثر الاخرى .

كان الاصطدام المتوقع بين السامنتيين والرومان في كامبانيا نتيجة التزامات روما بحماية حلفائها ضد هجمات الشعوب الجبلية . ونذكر أن كثيراً من مدن كامبانيا تنازلت عن استقلالها وامتيازاتها عند قبولها التحالف مع روما أملاً في توفير روما الحماية الضرورية التي تمنع عنهم خطر السامنتيين . ولكي تستطيع روما الايفاء بالتزاماتها نحو حلفائها أو بالاحرى كي تتمكن من ابقاء سيادتها عليهم كان عليها أن تخوض حروباً ضروساً مع الشعوب الجبلية ، لأن النزاع معها كان كفاحاً في سبيل البقاء شمل كل شعوب الاجزاء الشمالية والوسطى لشبه جزيرة ايتاليا . واجتازت روما التجربة القاسية بنجاح . ونذكر أن روما في حروبها مع اللاتين

قامت بعقد تحالف مع السامنتيين أمنت شرهم بواسطته وضمنت عدم انحيازهم إلى اللاتين.. وبالفعل لم يكن عدم تدخل السامنتيين في الحروب اللاتينية مبعثه عدم مبالاتهم بأحداث المنطقة والتغيرات الكبيرة التي أدخلتها عليها بقدر ما كان بسبب انشغالهم بالحرب مع مدينة تارنت الاغريقية في أقصى الجنوب ، التي هبت تحاربهم تحت قيادة الاسكندر ملك الاغريق الذي نجح في صد اللوكيانيين . لذلك يلتفت السامنتيون في تطلعهم نحو ممتلكات جديدة الى كامبانيا ، فيتدخلوا في الصراع الداخلي الناشب بين أحزاب المدن الاغريقية في نابولي وكوما مما يضطر كوما لطلب النجدة من الرومان ، الذين ينجحون بمعونة أنصارهم في طرد الحامية السامنتية من مدينة نابولي .

المرحلة الاولى من الحروب السامنية (٣٢٦ — ٣٠٤ق.م)

من استعراض خصائص القوتين الكبيرتين المتصارعتين على سيادة ايتاليا نرى أن الرومان وخاصة مشاتهم كانوا بارعين في القتال في المناطق السهلية ولديهم نظام عسكري ومدني يخولهم إنشاء القوة العسكرية المتطلبة ، بينما مهر السامنتيون الاشداء في حرب الجبال حيث شبوا هناك ولديهم محاربون بقدر محاربي روما . إلا أن نقطة الضعف فيهم كانت عزلة مناطقهم الجبلية عن بعضها خاصة في فصل الشتاء وعدم تمكنهم من تركيز قواتهم وجهودهم لمدة طويلة . ومع ذلك استطاع السامنتيين أن يكيلوا لخصومهم خسائر فادحة بلغت أوجها في هزيمتهم في معركة كوديوم الجبلية عام ٣٢١ بعد أن عبأت روما كل قواها العسكرية لتطويق خصومها والالتفاف عليهم عبر مقاطعة ابوليا . وتم عقد الصلح في شروط مهينة للرومان منها تخليهم عن مستعمراتهم الواقعة على التخوم الشمالية وتعهدهم بعدم تجديد الحرب .

استطاع الرومان خلال السنوات القادمة أن يوطدوا مركزهم في ابوليا وأن يعيدوا تنظيم قواتهم بشكل يتلاءم مع متطلبات الحرب في في الجبال وتؤمن لهم سرعة الحركة . واستأنفت الاعمال الحربية عام ٣١٦ إلا أن حظ الرومان لم يكن أفضل هذه المرة ، وهزيمتهم الجديدة في معركة كاو"اسينا في جنوب اللاتيوم ليست بأقل مرارة اذ أن الطريق يصبح الان مفتوحاً أمام السامنتيين نحو روما . وزاد موقف روما حرجاً تململ الشعوب الحليفة في كامبانيا التي أملت أن تتخلص من نير روما . غير أن روما تقضي على ثورة سكان كابوا ، وتدعم ذلك بانشاء مستعمرات جديدة كانت أشبه بالحصون العسكرية تسد الممرات في وجه السامنتيين . وترسل موظفين إلى مدن كامبانيا لمراقبة اخلاص أهلها لروما . وعبّدت الطريق المعروف باسم Via Appia والذي يصل روما بكابوا مما آمن حسن اتصالها بكامبانيا حتى في فصل الشتاء والأمطار . وإلى هذا المدى لم يتمكن السامنتيون من تحقيق نصر حاسم يجبر الرومان على ترك كامبانيا لهم .

المرحلة الثانية من الحروب السامنتية (٢٩٨ ـ ٢٩٠ ق.م)

اتصفت المرحلة الثانية من الحرب بين روما والسامنتيين الجبليين باقامة السامنتيين لتحالف واسع شمل كثيراً من العناصر البشرية المناهضة لروما في جنوب ايتاليا مثل الاتروسكيين والأمبريين والهرنيكيين ، وذلك رغبة في تحقيق نصر يقضي على تفوق روما وسيادتها . وقد أثبتت التجارب أن التحالف لم يستطع تحقيق أهدافه بالنظر للاختلافات التي كانت موجودة بين أعضائه ، ونجاح روما خاصة في اثارة تخاوف المدن الاغريقية من مطامع السامنتيين القساة وايقاعها الفرقة بين المتحالفين . وقد كرست روما جهودها لاخضاع مدن اتروريا الوسطى . كما أرسلت جيشاً الى المناطق السامنتية

عاث فيها فساداً وتدميراً خلال أربع سنوات واحتل عام ٣٠٥ ق . م . عاصمة السامنتين بوفيانوم Bovianum وأجبرهم على عقد صلح تخلّوا بوجبه عن كامبانيا وأبوليا مع احتفاظهم بأراضيهم الأصلية . واضطر هؤلاء مع حلفائهم للدخول في العام التالي في حلف مع روما فساد الصلح مدة أربع سنوات . وقد انتهزت روما هذه الفرصة لتأمين طرق مواصلاتها عبر الاراضي الجبلية السامنتية وانفسح أمامها المجال لاخضاع أعدائها الاخرين من الهرنيكيين والايكيين . كما أمنت جانب القرطاجيين بأن عقدت معهم معاهدة ثالثة تم الاتفاق فيها على عدم تدخل روما في صقلية مقابل تعهد القرطاجيين اطلاق يد روما في ايتاليا . إلا أن السلام الذي ساد مدة أربع سنوات لم يكن يعني استتباب الامر لروما نهائياً وخلاصها من الحرب المريرة مع السامنتيين الذين هبوا عام ٣٠٠ ق . م . لتأليب كل الاقوام المجاورة بما فيهم اللوكانيين والغاليين ضدها . وقد تمكنت روما من الثبات في وجه هذا الخطر عندما ظفرت على أعدائها في معركة فولتيرا في اتروريا ونقلت الحرب والخراب إلى اراضي السامنتيين أنفسهم . ثم سددت إلى السامنتيين والغاليين ضربة قاضية في معركة سانتينوم Sentinum . وبذلك تم لروما عام ٢٩٠ اخضاع القبائل الجبلية التي قاومت سبعة وثلاثين عاماً دفاعاً عن استقلالها وكان عليها الآن ان تفقد الاستقلال عندما تجبرها روما على الدخول في تحالف معها . ولسوف تبقى ذكرى هذه الحروب المريرة ونتائجها المذلة باقية في أذهان السامنتيين الذين سينقلبون على روما في أول فرصة تسنح لهم ، وذلك عندما يتوغل القرطاجيون بقيادة هانيبال في بلاد ايتاليا أملاً في قهر روما عدوتهم المشتركة . وبالطبع لم تكن في هزيمة السامنتيين نهاية لمقاومة الشعوب الايتالية المناهضة لروما . فرغم أن الكثير من هذه الشعوب لم تكن متحمسة في حربها للرومان، نرى أن اللوكانيين والاتروسكيين والغاليين يتابعون الاعمال العدائية

ضد روما فينتصر الاخيرون عليها عام ٢٨٤ في معركة **آراتيوم**. ولكن روما تستطيع تحمل الهزيمة والعودة عام ٢٨٣ لتسديد ضربة إلى خصومها في معركة قرب بحيرة **فاديو** رغم الاعداء بنتيجتها على عقد الصلح معها. وتم بالتالي اخضاع اللوكيانيين، كما ألحق السابيون القاطنون شمال شرقي روما بالدولة الرومانية وأعطوا حقوق اللاتين. ثم اخذت المدن الاتروسكية تدخل الواحدة تلو الاخرى تحت السيادة الرومانية املا في الحصول على الحقوق الرومانية. وبهذا النصر الذي تم على مراحل طويلة الأمد اصبحت روما تضع يدها على ايتاليا الوسطى، وبذلك تكون عمليات التوحيد قد قطعت شوطاً كبيراً في هذا السبيل وسيكون اخضاع المدن الاغريقية في الجنوب ختاماً لعملية تشكيل الدولة الرومانية الشاقة.

احتلال الرومان لجنوب ايتاليا (٢٨١ – ٢٧٠ ق.م.)

ما كاد الهدوء يستتب بالنسبة لروما في ايتاليا القارية حتى عادت للتورط في الصراع الدائر في جنوب شبه الجزيرة الايتالية بين المستعمرات الاغريقية وأهالي المنطقة الايتاليين من ماسابين ولوكانيين وبروتانيين، الذين انتهزوا فرصة تداعي امبراطورية **ديونيزوس الاول** ملك مدينة سيراكوزة عام ٣٦٧ ق.م. ليهاجموا المدن الاغريقية، ويستولوا عليها الواحدة بعد الاخرى. ولقد بدأ **الانحسار الاغريقي** عن ايتاليا منذ سقوط مستعمراتهم الهامة كوما بيد السامنتيين عام ٤٢٠ والتي تعتبر أبعد قاعدة اغريقية نحو الشمال. ثم تبعتها مدن ديكاركيا وبوزيدونيا وتوريا ولوس ... الخ في الجنوب. واستطاعت مدن أخرى أن تدافع عن نفسها ولكنها أصبحت أشبه بالجزر في وسط خضم معاد ينتظر الفرصة للاطاحة بها. ولقد كانت مدينة **تارنتوم** أهم قاعدة اغريقية وأقواها، أرادت أن تتخذ لنفسها صفة

حماية الاغريق الايتاليين ، إلا أن قوى التارنتيين لم تستطع الصمود في وجه الايتاليين مما أجبرها في كثير من الاحيان على طلب النجدة من المغامرين في بلاد اليونان الأم . وقد كان أول من هب لنجدتها الملك **ارخيدا موس** ملك مدينة اسبارطة ثم تلاه في هذه المهمة الملك **الاسكندر** ملك الابيروس وعم الاسكندر الكبير الذي تمكن من صد اللوكيانيين ورفع خطر البروتيين عن مدينة تارنتوم . كذلك قام بعقد معاهدة مع مدينة روما شملت مدينة تارنت نفسها وكان بعمله هذا يحاول انشاء امبراطورية له في جنوب ايتاليا مما جلب عليه نقمة التارنتيين ودفعهم للتخلي عن مساندته وبالتالي لقي مصرعه على يد الايتاليين عام ٣٣٠ ق . م .

وحينما يشترك القائد **كليونيموس** في نجدة مدينة تارنت يتمكن في بادىء الامر من صد اللوكانيين ويجبرهم على عقد الصلح الذي وافقت عليه حليفتهم روما أيضاً . ويقول المؤرخ الايتالي ليفي أن اللوكانيين والرومان استطاعوا التغلب على كليونيموس إلا أن في هذا الادعاء مبالغة ومحاولة من المؤرخ المذكور لتمجيد روما . وبموت الملك **أجاثوكلس** ملك سيراكوزه عام ٢٩٨ تداعت مملكة سيراكوزه واضمحلت وأصبحت المستعمرات الاغريقية في جنوب ايتاليا دونما نصير أو حامي . وكان من الطبيعي جداً ان يلتفت الاغريقيون سكان مدينة توري الان نحو روما طالبين منها العون والحماية ضد هجمات اللوكيانيين القوية التي تهدد مدينتهم . فقبل الرومان هذه المهمة بالنظر لان اللوكيانيين نقضوا حلفهم مع روما بعد انتصار الغاليين على السامنتيين . واستطاع الجيش الروماني هزيمة اللوكيانيين والبروتيين وإنقاذ مدينة توري ، لكن الرومان لم ينسحبوا من المدينة بل تركوا حاميتهم فيها . هذا الاجراء كان مقدمة للاستعمار الروماني الذي أصبح يترك حامياته في المدن الاغريقية المستضعفة مثل مدن لوكرى وريجيوم التي ارتبطت مع روما بحلف دفاعي . ومن الطبيعي جداً ان تثير هذه الخطوة مخاوف مدينة

تارنت التي رأت في الحاميات الرومانية تهديداً لسيطرتها على المدن الاغريقية ، فبادرت لاتخاذ موقف عدائي منها في اول مناسبة سنحت وذلك عندما اقتربت سفن حربية رومانية من خليج تارنت خلافاً لشروط الاتفاقية . واستطاعت تارنت اغراق عدد من هذه السفن وأعقبت الحملة البحرية بحملة على مدينة توري طردت الحامية الرومانية من المدينة ووضعتها تحت حماية القوات التارنتية . وقد ذهبت محاولات الرومان عبثاً في المطالبة بتعويضات عن الخسائر التي لحقت بهم وأهين سفراؤهم علنا ، مما اضطر روما لاتخاذ الخطوات العسكرية التي ترغم التارنتيين على اعادة ماغنموه . وكان أن تقدم جيش روماني إلى مقاطعات تارنت . وبالمقابل شعر التارنتيون بضرورة الاستعانة بحلفاء أقوياء يردون عنهم خطر روما المحدق بهم . وقد لبى دعوتهم **الملك بيرهوس** Pyrrhus حاكم أبيروس طمعاً في وضع يده على قواعد المدن الاغريقية البحرية المشرفة على تجارة الشرق . وانحاز الى صفهم شعوب السامنتيين واللوكيانيين والبروتيين والسابيين . واستطاع جيشه الذي أنزل على الارض الايتالية والمدرب على فنون القتال الماكدونية أن يضع ٢٠ ألف جندي من المشاة الثقيلة و ٣٠٠٠ فارس و ٢٠٠٠ من الرماة تحت تصرف المدافعين عن مدينة تارنت . اضافة الى ذلك جهز بيرهوس جيشه بعشرين فيلا . وجرت المعركة الاولى قرب **هراكلية** عام ٢٨٠ ق . م . فاستطاعت مهارة بيرهوس في قيادتها والاضطراب الذي انزلته فيلته في صفوف الرومان أن تطردهم من أرض المعركة ، ولكن بعد أن كبدهم الرومان خسائر جسيمة أصبحت مضرب المثل [1] . ويعود الفضل في ذلك إلى كفاءة المشاة الرومان وخبرتهم التي اكتسبوها خلال الحروب السامنتية . سار بيرهوس عقب المعركة متقدماً نحو الشمال حتى وصل إلى منطقة اللاتيوم

---

(١) يقال عن القائد الذي يظفر بالمعركة بثمن باهظ بأنه انتصر «على طريقة بيرهوس».

ويقال أنه شارف أسوار روما ولكنه سرعان ما اضطر للانسحاب دون أن يحقق أي مكسب ذي بال . وأرسل وفداً إلى روما يقترح عليها عقد الصلح إلا أن روما رفضت شروطه، إذ استطاع الرومانيون أن يعقدوا الصلح مع الاتروسكيين ويعيدوا جيوشهم التي كانوا قد أرسلوها إلى اتروريا . وجرت المعركة الثانية مع الرومان قرب مدينة **أسكولوم في** مقاطعة أبوليا أصيب بيرهوس خلالها بجرح . وقد رأى الرومان أن من الأفضل لهم ان يبدأوا المفاوضات مع بيرهوس وهذا ما كان الملك اليوناني ينتظره. وفي هذه الاثناء يظهر في الافق عدو جديد لبيرهوس يتمثل في شخص القرطاجيين أعداء الاغريق الالداء الذين يتقدمون من الرومان ـ أعداء الامس وحلفاء الاغريق السابقين ـ يعرضون عليهم تأييدهم في حرب بيرهوس بالمال والسفن . ذلك أنهم شعروا بالخطر الذي يهدد مصالحهم في المنطقة بوجود ملك قوي يوحـــد المستعمرات الاغريقية ويوجهها لحرب القرطاجيين . وبما أن الرومان قبلوا هذا العرض فقد انقطعت المفاوضات مع بيرهوس وتم بين الحليفين الجديدين عقد اتفاق للدفاع المشترك ينص على عدم الانفراد في توقيـع الصلح مع عدوهم .

في خلال هذه الفترة التفت اغريق صقلية نحو بـيرهوس يطلبون منه العون لصد غارات القرطاجيين التي استفحل أمرها بعد موت الملك أغاثوكلس . وقدز ادت مصيبتهم مصيبة في قيام بقايا المرتزقه من جنود هذا الملك بالاعتصام في ميسانا وجعلها قاعدة لعملياتهم اللصوصية في نهب المدن الاغريقية . فما يلبث بيرهوس أن يترك جنوب ايتاليا مسرعاً لنجدتهم واستطاع أن يخلصهم من القرطاجيين بأن أجبرهم على التخلي عن كافة ممتلكاتهم في الجزيرة ما عدا مدينة ليليبايوم Lilybaeum . وتتكرر في هذه الحملة ايضا تجربة الاغريقيين السابقة مع الملك الاسكندر ملك ابيروس،

فينفضّون عن بيرهوس بعد ان تجددت مخاوفهم من مطامعه الاستعمارية . ويسرعون لعقد الصلح مع أعدائهم مما يرغم بيرهوس على التخلي عن حملته في صقيليه . وفي خلال عودته إلى ايتاليا يخسر جزءاً من أسطوله البحري في معركة تنشب مع سفن القرطاجيين . ومع ذلك نراه يتوجه لملاقاة الرومان من جديد بعد ان اعاد تنظيم قواته آملا في ان يأخذ المبادهة من الرومان فيباغتهم في هجوم خاطف قرب مدينة **بنفنتوم** ، ولكن امله يخيب ويتمكن الرومان من صده عام ٢٧٥ ق . م . فيعود إلى تارانتوم تاركاً فيها حامية من جنود بقيادة ابنه هيلينوس ثم يغادرها مع جيشه عائداً إلى بلاده حيث كان يأمل في احتلال مكدونيا . ويموت بيرهوس خلال حصاره لمدينه ارغوس في اليونان تضطر حامية مدينة تارنت لتسليم قلعة المدينة للرومان حيث تحل فيها الان حامية رومانية دائمة وتفرض عليها غرامات قاسية وتهدم اسوارها .

بانتهاء الاعمال العسكرية في جنوب ايتاليا تتفرغ روما الان لتصفية حسابها مع الاقوام السامنتية واللوكيانية خلال ثلاث سنوات. فتصادر قسماً كبيراً من اراضي الاولين لتنشيء فيها مستعمرات لاتينية ، اما الاخرون فتتسامح في معاملتهم . ويتنازلون لروما عن مدينة **بائستوم** الاغريقية التي كانوا قد احتلوها وعن المقاطعات التابعة لها . ويصبح البروتيين حلفاء لروما بعد ان يجبروا على التخلي عن نصف غاباتهم في جبال سيلا . وعندما تتم روما تصفية الاوضاع تكون بذلك قد اخضعت جنوبي ايتاليا لسلطتها التامة . وتفقد كثير من المدن الاغريقية حريتها بعد فرض الحاميات الرومانية في اراضيها . وفي الحقيقة جاء انتصار روما على المستعمرات الاغريقية في جنوب ايتاليا نتيجة طبيعية للاوضاع التي وصلت اليها هذه المدن المتحاسدة المتنافسة التي انهكتها الصراعات الداخلية بين الاحزاب السياسية والثورات

يضاهي ثراء الارستقراطيين . وكان اثرياء العوام باعتبارهم الطبقة الجديدة في المجتمع الروماني ، مصممين على أن يمارسوا حقوقهم السياسية ، وأن يفسحوا لأنفسهم مكاناً في الوظائف الحكومية التي عمل الارستقراطيون قروناً على إغلاقها في وجوههم . وقد شكل المتنفذون مثل سبوريوس كاسيوس ،وسبوريوس ماليوس وماركوس مانليوس عناصر القيادة التي التفت حولها كتل العوام في نضالها ، وأصبح ينظر اليهم باعتبارهم أبطالاً شعبيين . إلا أن العامل الحاسم في تحقيق المطالب الاجتماعية جاء عن طريق العسكريين من أبناء العوام الذين تحملوا العبء الكبير في حروب التوحيد ، وفي مقارعة الغارات الجبلية . وبالتالي كان مجلس الشيوخ مضطراً لكسب ودهم ومنحهم بعض التنازلات مقابل خدماتهم للدولة ، وتجنباً للاصطدامات العنيفة التي لا بد وأن تؤدي إلى حرب أهلية بين طبقات المجتمع الروماني . ويمكن القول أن التطورات السياسية التي سنستعرضها في هذا الفصل تلخص في مجملها مراحل وصول العوام إلى بعض حقوقهم الاجتماعية . فهي تمثل عمليات تفاعل عناصر المجتمع الروماني التي ستتبلور في نهاية العهد الجمهوري في قوالبها التقليدية . وهنا لا بد أن نشير إلى أن تفاصيل هذه الاحداث لم تدون بشكل واف واضح في القرون الاولى من العهد الجمهوري ، ولعل هذا سبب دفع الكتاب الرومان في الفترات التالية إلى اعادة تركيب تاريخها ، وتصويره من زاوية نظر معينة تلائم أفكارهم السياسية الخاصة . لذلك يكاد يكون من المتعذر على المختصين في التاريخ الروماني أن يقدموا لنا صورة مرضية لعملية إرساء أسس منظمات العهد الجمهوري وتطوراتها السياسية والحقوقية .

١ — المؤسسات العامة في العهد الجمهوري :

للتعرف على التطور الذي عانته هذه المؤسسات التي كنا أشرنا إلى

والفتن من جهة وتكالب الاعداء الطامعين بها من جهة اخرى . ولم تنفعها في تغيير هذا المصير كل النجدات المتعاقبة التي تلقتها من الوطن الأم لأن الفردية الاغريقية كانت أقوى من كل محاولة لتوحيد المستعمرات في مملكة كبيرة . كذلك كان الوطن اليوناني الام ممزقاً في فترات كثيرة، يدافع عن نفسه ضد الحملات الفارسية التي أدت إلى حدوث معارك ترموبيلي وسلاميس وبلاتيا . أما بالنسبة لروما فقد وقفت الان تطل على البحر الابيض المتوسط بعد أن سقطت في أيديها أهم المرافيء الاغريقية الغنية في الجنوب ، وتجمّع قواها للانطلاق الى مهمتها الكبرى في اخضاع منافستها الكبرى فيه وهي قرطاجه .

بعضها سابقاً[1] ، لا بد أن نتعرض قبل ذلك إلى التغيرات التي طرأت على تنظيم المجتمع الروماني نفسه . إذ أن هذا التغير الذي تناول أسس نويات المجتمع أي خلاياه الحية ، قد أصاب بالواقع تقسيم القبائل الرومانية نفسها . فعوضاً عن نظام القبائل الثلاثي الذي كان متبعاً في العهد الملكي ، نرى حلول تقسيم جديد اعتباراً من النصف الثاني للقرن الخامس ق . م . ، توزعت كتلة الشعب بموجبه إلى عشرين قبيلة ، أربعة منها تشكل سكان مدينة روما ، يستثنى منهم أولئك الذين يمتلكون الاراضي خارجها . أما الستة عشر قبيلة الباقية فقد شملت سكان الريف من أبناء المقاطعات الرومانية في اللاتيوم . وما يلبث عدد القبائل أن يصل حوالي منتصف القرن الثالث إلى ثلاثة وثلاثين قبيلة ، وذلك نتيجة لاتساع الاراضي الزراعية التي يمتلكها المواطنون الرومان . وبموجب هذا التقسيم تصبح القبائل الرومانية الوحدات الاساسية في تحديد الضرائب المتوجبة ، وفي تحديد عدد الافراد المدعوين للخدمة العسكرية ، وفي تشكيل الوحداث الانتخابية الجديدة . أي أن هذا التصنيف كان له أغراض عميقة اقتصادية وسياسية واجتماعية تركت أثرها البالغ في المؤسسة الشعبية الرئيسية التي ستنبثق عنه وهي « **الجمعية المئوية** » .

الجمعية المئوية :

مع إدخال التغير في نظام تصنيف القبائل ، توجب إعادة النظر في التنظيمات العسكرية ، وبصفة خاصة في نسبة عدد الجنود الذين تقدمهم كل قبيلة للخدمة في الجيش الروماني . فبعد أن كان النظام القبلي الثلاثي في العهد الملكي يحدد عدد جنود القرعة العسكرية بثلاثة آلاف جندي من المشاة وثلاثمائة من الفرسان ، توزع نسبها بشكل متساوي على القبائل . نرى عدد الجنود الذين يجب تقديمهم بموجب التصنيف الجديد يرتفع إلى

---

(١) راجع الصفحات ٨٤ - ٨٧

٩

التطورات السياسية والحضارية في العهد الجمهوري حتى القرن الثاني ق . م

آ – التطورات السياسية :

كان من بين العوامل الرئيسية التي ساعدت الرومان على فتح ايتاليا وحكم شعوبها قدرتهم على اعادة تنظيم شكل دولة – المدينة البدائي الذي عرفناه في مطلع العهد الجمهوري ، والذي بوشر بتطبيقه اعتباراً من عام ٥٠٩ ق . م . وقد تمثل التطور الداخلي في إعادة تنظيم المؤسسات الاجتماعية على أسس جديدة تتلاءم مع التطورات السياسية الأخيرة ، وفي توسيع آلة الحكم الروماني . وكان من العوامل الهامة في هذا الصدد اتساع رقعة الأراضي التي تخضع لسيطرة روما ونشوء علاقات جديدة مع الشعوب الحليفة والمقهورة . علاوة على ذلك وجد الرومان أنفسهم مضطرين لاعادة تنظيم أنفسهم داخلياً أي دستورياً ، نظراً للتطور الاجتماعي المحسوس الذي طرأ على الطبقة الارستقراطية التي تحولت الآن إلى مزيج من النبلاء والعوام . ذلك أن الحروب الطويلة التي خاضتها روما خلال عمليات التوحيد ساعدت العوام على الدخول في الجيش وبالتالي على الوصول إلى مناصب حساسة فيه . كذلك ساعدت على أثراء الكثيرين عن طريق التجارة مع المدن الحليفة ، ومما لا ريب فيه أن اعطاء حق المواطنة الرومانية إلى عدد كبير من الافراد الجدد دعم طبقة العوام بروافد جديدة قوتها . وبالمقابل كانت طبقة النبلاء تضمحل بعد أن تناقص عدد أسرها التي كانت على ما يظن تبلغ حوالي ٧٣ أسرة في الاصل ، فغدت في أواخر النصف الثاني من القرن الرابع زهاء عشرين اسرة .

وفي الحقيقة أصبح يوجد في صف العوام أشخاص ذوو ثراء ونفوذ

أربعين **وحدة مئوية** Centuries تتألف كل واحدة منها حسبما يدل اسمها على ذلك من مئة جندي ، يستدعون للخدمة بنسبة وحدتين من كل قبيلة . هذا العدد المتزايد يدل بوضوح على تكاثر أعداد المواطنين الرومان الذين يستطيعون تجهيز جنود المشاة بالعتاد اللازم . ثم ما تلبث النسبة أن ترتفع من جديد وذلك خلال حرب مع مدينة فيئي فتصبح ستة آلاف جندي ، تبلغ عام ٣٦٦ ق . م ٨٤٠٠ جندياً ينتظمون في فرقتين عسكريتين . ومما لا ريب فيه أن هذا التغير في التنظيم العسكري كان له تأثير بليغ انعكس أيضاً على الحياة السياسية في الدولة الرومانية ، إذ تصبح الطبقات الفقيرة بذلك نواة الجيش الرئيسية .وبالتالي يزيد ضغطها على الدولة وعلى مجلس الشيوخ للحصول على حقوقها السياسية .

استناداً إلى التنظيمين القبلي والعسكري تم احداث جمعية للشعب اطلق عليها اسم « **جمعية المئة** » Comitia Centuriata . فكان المواطنون الصالحون للخدمة العسكرية يصوتون فيها على أساس الوحدات المئوية بنسبة صوت لكل وحدة منها . وذلك وفقاً لتسلسل طبقي معين روعيت فيه نسبة الثراء والممتلكات التي بحوزة المواطن من جهة ، ومن جهة أخرى كان عدد هذه الوحدات المئوية يتناسب مع عدد الذين تقدمهم كل طبقة . فكان للفرسان ستة وحدات مئوية أي كان لهم ستة أصوات في الجمعية . وتضم الطبقة الأولى ٤٠ وحدة مئوية ، وهي للرجال الذين يتراوح متوسط أعمارهم بين ١٧ – ٤٦ سنة . أما الطبقات الثانية والثالثة فقد خصص لكل منها عشرة وحدات . وبذلك يكون مجموع وحدات الطبقات الثلاثة ستين وحدة تقابل ستين ألفاً من الجنود المشاة . ولكي يستطيع المتقدمون في السن من الشيوخ الذين تزيد أعمارهم عن النسبة المحددة آنفا الاشتراك في هذه الجمعية : السياسية في طبيعتها ، العسكرية في مظهرها ، فقد

خصص لهم نفس عـدد الوحدات المئوية التي اعطيت للشبـاب . ومن الواضح أن « **الجمعية المئوية** » تختلف كلية عن « مجلس الجماعات » التي عرفها الرومان منذ العهد الملـكي . وقد بلغ عدد الوحدات التي تتألف منها « الجمعية المئوية » في نهاية القرن الرابـع اجمالاً ١٨٦ وحـدة من الشباب والكهول تنتظم في خمس طبقات ، يلحق بها سبعة وحدات اضافية من الميكانيكيين والموسيقيين والرديف غير المسلح ... ، ومن الاشخاص الذين لا يملكون ما يؤهلهم للانضمام إلى الطبقـــة الخامسة والمسمون بروليتاريا[١] . وبذلك يكون مجموع الوحدات ١٩٣ مئوية يقابلها عـدد مماثل من الاصوات الانتخابية . ومع مرور الزمن تفقد هذه الجمعية صفتها العسكرية إلى حد كبير ، خاصة عندما تتحول وحدات الفرسان فيها من طبقة عسكرية محضة إلى طبقة جديدة تتألف من النبلاء والاثرياء والعوام أصحاب الاملاك . وعندما ينضم اليها أعضاء من أفراد الشعب لا يصلحون للخدمة العسكرية . لذلك ليس بغريب أن تصبح الجمعية المئوية المجمع الرئيسي للشعب الروماني ، خاصة وأنها أتخذت لنفسها أهم اختصاصات مجلس الجماعات السابق . فقد أصبح من صلاحياتها انتخاب الحكام الكبـار ، ولها حق اعلان الحرب والتصويت على المقترحات التشريعية التي يقدمها القناصل أو الحكام الآخرون اليها . كذلك كانت هذه الجمعية محكمـة الاستئناف يلتجيء اليها المواطنون الذين صدرت بحقهم أحكام الاعدام أو الجلد أو فقدان حق المواطنة ... الخ . وبالواقع لم تتمكن هذه الجمعية من التحرر كلية في أعمالها من مراقبة مجلس الشيوخ ، الذي احتفظ لنفسه بحق تصديق الاجراءات المتخذة من قبلها . فتكتسب قوة القانون إذا حظيت

---

(١) البروليتاريا او المعدمون: م الاشخاص الذين لا يمتلكون شيئاً يسددون عنه ضريبة للدولة . ولا يملكون إلا أولادهم المسمون Proles .

بموافقته . كما كان له سلطة ممارسة حق النقض ضدها[1] . وبما أن وحدات الفرسان الثمانية عشر والوحدات الثمانين الخاصة بالطبقة الاولى كانت تشكل أكثرية مرموقة من الاصوات الانتخابية . كما كانت تصوت عادة أولاً، أي أن التصويت كان يجري بحسب المركز الطبقي . وكثيراً ما كانت أصوات هاتين الفئتين تتفق على نتيجة التصويت مقدماً . وعندما تحصل العملية على الاكثرية المطلوبة كان التصويت يتوقف دون أن تتاح للطبقات الدنيا فرصة التعبير عن آرائها أو الادلاء بأصواتها . ومن هذا يتضح أن تشكيل **الجمعية المئوية** قد وضع الطبقات العليا الثرية في المجتمع الروماني في مركز مشرف على التصويت في الانتخابات واصدار التشريعات ... وبالتالي ضاع نفوذ الخواص الذين كانوا يمارسونه في مجلس الجماعات . إذ أن تنظيم المواطنين الاجتماعي أخذ يعتمد الآن على مقياس جديد هو الثروة التي يمتلكونها لا الطبقة التي ينتسبون اليها . ومن البديهي أن الدور الرئيسي في هذا التنظيم ترك للطبقة التي تشترك في تقديم اكبر مساهمة في القوة العسكرية ، وهذا ما يخولها إياه مركزها المالي .

ومما لا ريب فيه أن اعادة توزيع الاشراف السياسي في المجتمع يعكس إلى حد كبير نمو طبقات جديدة كان الازدهار المالي الذي حققته عنصراً أساسياً في دفعها إلى عتبة المسرح السياسي . أما اجتماعات الجمعية المئوية فقد كانت الدعوة الى عقدها من صلاحيات الموظفين المتمتعين بسلطة الامبريوم ، وذلك لانتخاب الحكام الكبار ، ولإصدار القوانين والتصديق على المعاهدات ولاعلان الحرب أو السلم .

مجلس الجماعات :

فقد مجلس الجماعات الذي كان يعتمد على الاسر والعشائر

---

(١) هذا التقييد مايلبث أن يزول عام ٣٣٩ ق.م عندما يلزم الشيوخ بموجب قانون خاص التصديق مقدماً على الاقتراحات التي سوف تعرض على الجمعية المئوية .

الرومـــانية القديمة فقـد حيويته حتى غدا وكأنـــه غير موجود . وأصبحت هذه الجمعية تجتمع برئاسة الكاهن الاكبر لتكون شاهدة على شكليات منح الموظفين الكبار حق الامبريوم ، أو أن تقوم بالاحتفالات التي كان لها طابع ديني بحت . ومما لا شك فيه أن اتساع صلاحيات الجمعيـــة المئوية تطلب الآن اقامة حدود واضحة بين اختصاصات هذه المجالس الشعبية . وعلى كل يغدو عمل مجلس الجماعات شكلياً كلية ، حتى أن اجتماعاته في الفترة الاخيرة لم يعد يحضرها الا ٣٠ شخصاً من اللكتورات Lectors الذين يمثلون الجماعات .

مجلس القبائل Comitia tributa :

كان باستطاعة المواطنين الرومان الاجتماع في مجلس للقبـــائل يقوم المحامون بالدعوة الى جلساته . في حوالي العام ٢٦٤ق.م. كان المواطنون يتخرطون في ٣٣ قبيلة ، ازداد عددها اعتباراً من عام ٢٤١ ق . م فبلغت ٣٥ قبيلة . وكان من مهام هذا المجلس انتخاب المحـامين العشرة الممثلين لطبقة العوام ، بالاضافة الى انتخاب حاكمين بلديـين واقرار التشاريـع الخـــاصة بالعوام المعروفة باسم Plebiscita أي مقررات العوام . هذه المقررات لم يكن لها قوة القوانين الا اذا حصلت على موافقة مجلس الشيوخ .

وفي الحقيقة ظهرت الجمعية القبلية بصفتهـــا صوتاً اضافيـــاً كسبه العوام اعتباراً من القرن الخامس . وقد اطلق عيها فيما بعد اسم « المجلس القبلي » اذ انها كانت تقتصر على العوام فقط . ثم ماتلبث ان تصبح في العام ٢٦٤ ق.م جزءاً اساسياً من آلة الدولة . ومن الجدير بالذكر ان كلا الجمعيتين الشعبيتين لم تكن تمارس عقد جلساتها بشكل متكرر . اذ ان العمل الحكومي كان يتركـز الى حد كبـــير في يد السلطة التنفيذية التي يمارس الشيوخ مهمة تقديم النصح لها .

٢ – توسيع الوظائف الحكومية الرئيسية :

تألفت الوظائف الكبرى في الدولة الرومانية من عدد من الهيئات كان لكل منها نطاق عمل مستقل وذلك باستثناء وظيفة الخازن المالي .وبالطبع كانت وظيفة **القنصلية** في قمة تسلسل مراتب الدولة فهي البديـــل الذي حل مكان سلطة الملك ، وتركز في شخصي قنصلين أو حاكمين ينتخبان سنوياً ويتمتعان بسلطات تنفيذية واسعة تجسدت في سلطة الامبريوم . واذا كانت الوظائف الهامة تشترك في لقب **الحاكمية** Magistracy إلا ان لكل منها اختصاصات تتبع تسلسلاً معينـــاً ، يتوجب على العاملين في مصالح الحكومة اتباعه اثناء حياتهم السياسية صاعدين من الوظائف الادنى حتى وظيفة القنصل وعضوية مجلس الشيوخ .

ولم يكن باستطاعة المواطن الرومـــاني التقدم إلى ادنى الوظائف الكبيرة وهي وظيفة **الخازن** الا بعد ان يتم الثامنة والعشرين من عمره ، وبعد ان يؤدي الخدمة العسكرية . وقد تمتع الحكام ذوي الرتب العليا بسلطات اوسع يمارسونها على كل الحكام الاخرين الاقل رتبة . خاصة انهم يستطيعون تعليق أو منع اعمالهم عن طريق حق النقض . اي ان اشراف الحكام الكبار كان سلبيا على الاقل على فعاليـــات الحكام الآخرين . ومن ناحية اخرى كان لكافة الحكام صلاحية فرض اطاعة اوامرهم بوسائل الزامية من بينها اعتقال من يرفضون اطاعتهـــا . وفي نفس الوقت كان الحكام الرومان يتمتعون بالحصانة طيلة وجودهم على رأس وظائفهم . هذه الحصانة وحرية التصرف والسلطات الكبيرة تعتبر مظاهر بارزة من مظاهر الدستور الروماني ، وخاصة احترام السلطة العامة التي كانوا يمثلونها . وهي من الصفات الخاصة بالمجتمع الروماني الباكر .

من الواضح ان **ازدياد عدد وظائف الدولة** وتشعب مجالاتها كان استجابة طبيعية لحاجات هذه الدولة المتزايدة من جهة ، ونزولاً عند ضغط العوام من جهة اخرى . ومن الطبيعي أن يعجز القناصل عن تحمل كافة الاعباء وعن القيام وحدهم بتصريف كافة الشؤون الادارية في مدينة روما وفي المقاطعات على السواء . لذلك نجد ظهور وظائف إدارية تشارك القناصل في مهامهم الى حد كبير . ومن بين اولى هذه الوظائف ذكرنا وظائف محامي الشعب [1] وهؤلاء يختلفون عن المحامين العسكريين الذين يتمتعون بسلطة الامبريوم ، والذين ظهرت وظائفهم لأول مرة عام ٤٤٤ ق.م . ويدل لقب المحامي العسكري على الاصل الذي نشأ عنه وهو كونه ضابطاً في التنظيمات القبلية الآنفة الذكر. اذ كان هؤلاء المحامون العسكريون قواداً للفرق المجندة من كل قبيلة ، يشرف كل منهم على الف جندي . وقد كان عددهم قبل عام ٤٢٧ ثلاثة محامين عسكريين عندما كانت القرعة تتألف من ثلاثة آلاف رجل ، ثم يرتفع حتى يصبح اربعة محامين في نهاية القرن الخامس . ويتزايد العدد حتى يصبح ستة محامين يقابلون قرعة تتألف من ستة آلاف جندي ، ويستمر ذلك العدد حتى عام ٣٦٧ ق.م . وكما نعرف كان انتخاب المحامين العسكريين يتم في مجلس الجماعات . واذا حاولنا تفسير الاغراض التي اوجدت لها هذه الوظيفة وجدنا في وضع البلاد الايتالية في القرنين الرابع والثالث خير مبرر . ذلك ان الحرب الطويلة المتلاحقة التي كانت تهدد مدينة روما وحلفاءها اقتضت وجود اكثر من حاكمين رئيسين للاشراف على قيادة المعارك في الخارج ، وتصريف الامور الادارية في الداخل . ويقال بأن وظائف

---

(١) انظر الصفحة ٨٨ .

المحامين العسكريين اوجدت لكي يتمكن العـــوام من الوصول الى مناصب قيادية في الدولة الرومانية ، نظراً لان وظائف القناصل كانت مغلقة في وجوههم . الا ان عدد العوام الذين شغلوا هذه الوظائف لمدة قرن اعتباراً من عام ٤٤٤ ق.م. لم يتجاوز ستة اشخاص الامر الذي يدفعنا لعدم قبول هذا الرأي .

واعتباراً من عام ٣٦٦ نرى أن الدولة الرومانية تحاول اعادة الاهمية لوظائف القنصلية التي افقدها قيام المحامين العسكريين الى جانبها الكثير من سلطاتها . وتنبذ نهائياً وظيفة المحامي العسكري المتمتع بسلطات قنصل ، ويعود المحامون العسكريون إلى القطعات ليخدموا فيها بصفة ضباط تحت إمرة الحكام الكبار المتمتعين بسلطات الامبريوم . ولتلافي الضعف الذي لوحظ مقدماً في وظيفة القنصلية انشئت وظيفة حاكم جديدة اطلق على صاحبها اسم **البريتور** الذي كانت اعماله منحصرة في الاهتمام بالتشريعات المدنية وحمل عبئها عن القنصل. وبما انه كان يحق له التمتع بسلطة الامبريوم فانه كان بالامكان تكليفه بقيادة احد الجيوش اذا لزم الأمر ، وان يمارس وظائف القنصل الأخرى ايضاً . وعلى العموم كان البريتور ينتخب سنويا في الجمعية المئوية .

علاوة على وظيفة البريتور ظهرت في العهد الجمهوري وظيفة مزدوجة هي وظيفة **المراقب** . وقد كان المراقبون في الاصل موظفون مهمتهم اجراء الاحصاءات Census مرة في كل خمس سنوات . وعهد الى الجمعية المئوية بانتخاب مراقبين تدوم مهمتها ثمانية عشر شهراً ولا يتمتعون على نقيض البريتور بسلطة الامبريوم . وفي الواقع كان انشاء هذه الوظيفة جزءاً من عملية توسيع وظيفة الحاكمية لسد مطاليب الدولة الرومانية المتزايدة . فالمراقبون اصبحت مهمتهم مساعدة القناصل في القيـــام بعمليات تسجيل

كافة الرومان وممتلكاتهم بحسب القبائل التي ينتمون اليها ، وبالتالي تحديد خدماتهم العسكرية وحقهم في التصويت في الجمعية المئوية . وكما هو متوقع لم يكن لدى البريتور أو القناصل أو المحامين العسكريين متسع من الوقت لانجاز هذه المهام . أي أن عمل **المراقبين** كان اشبه باختصاصات الدوائر المالية ، خاصة في موضوع طرح الضريبة على الممتلكات في ايام الحروب وتأجير عقود الدولة الى الافراد . ويشتد ساعد جهاز المراقبة اعتباراً من نهاية القرن الرابع ق.م عندما يعهد للمراقبين بتنقيح قوائم اعضاء مجلس الشيوخ وبتدقيق سلوكهم من الناحيتين الخاصة والعامة . وهذا يشمل مراقبة الناحية الاخلاقية بالدرجة الاولى . وبما ان هـــذا الحق الذي كان يمارسه القناصل قد انتقل منهم إلى المراقبين ، فان ذلك يتضمن ضعف سلطة القناصل على اعضاء مجلس الشيوخ .

من بين الوظائف التي ادخلت لأول مرة في العهد الجمهوري في مدينة روما كان منصب **الحاكم الاداري** aediles إذ أن اتساع المدينة وتزايد عبء الادارة البلدية فيها تتطلب وجود موظفين متفرغين للاشراف على الاعمال العامة وعلى الاسواق بالإضافة إلى مهام الاشراف على الشرطة . كان عدد هؤلاء الحكام في البدءاثنان ثم مايلبث أن يضاف اليهما موظفان آخران ينتخبان من طبقة الخواص ، بينما كان الأولون عادة من طبقة العوام . ويتصف الحكام الجدد بتمييزهم بحق شغل مقعد في مجلس الشيوخ كان إلى ذلك الحين وقفاً على كبار الحكام . أما واجباتهم فكانت نفس واجبات الحكام الاداريين من العوام .

وتأتي في المرتبة الاخيرة من وظائف الدولة الرومانية مناصب **الخزان** quaestors الذين كان القناصل يعينوهم نوابا عنهم في قضايا الجرائم . وقد ازداد عدد هؤلاء الموظفين في نهاية القرن الخامس إلى اربعة خزان

أصبحوا ينتخبون عن طريق الشعب ، ورفعت مراتبهم إلى مرتبة حاكم . وبنتيجة ذلك توزعت الاختصاصات بينهم . فانفرد اثنان منهم بالعمل كمساعدين للقناصل يرافقانهم إلى الحرب ، ويهتمان بدفع رواتب الجنود وتأمين المؤن للقطعات . بينما بقي الاخران يمارسان مهمة خزن الاموال العامة وفي حوالي عام ٢٦٤ أصبح عدد الخزان ثمانية .

واجهت القناصل مشكلة نتجت عن طبيعة وظيفتهم ، فهولاء كانوا ينتخبون لمدة قدرها سنة يتحولون بعد انتهائها إلى مواطنين عاديين ، ولا يمكن اعادة انتخابهم لنفس الوظيفة الا بعد مضي فترة زمنية فاصلة قدرها عشر سنوات . وكثيراً ما كان فترة حكم احد القناصل تنتهي بينما يكون في مهمة عسكرية كلفه بها مجلس الشيوخ خارج روما ، أو في المقاطعات الاخرى .

وفي هذه الحالة كان من الضروري على القنصل أن يتخلى عن القنصلية وعن قيادة الحملة العسكرية ، وان يسلم اعماله إلى خليفته الذي يختاره مجلس الشيوخ . ومن البديهي أن استبدال قائد كفء اظهر خبرة وحنكة في ساحات القتال ، بآخر قد لايتمع بنفس مميزات سلفه ، لا يعود على الدولة الرومانية بالفائدة المتوخاة . لذلك يلجأ مجلس الشيوخ لمعاملة هذا القنصل معاملة خاصة بان يمدد له مهمته إلى أجل غير محدود ، فيتابع هذا القائد اعماله **كما لو انه كان يشغل مركز القنصل** ويسمى الآن Prokonsul . وما يلبث هذا التجاوز الذي بدأ مجلس الشيوخ بتطبيقه اعتباراً من الحروب السامنتيه والحملة على مدينة نابولي ، ما يلبث أن يعم وينتقل إلى وظائف الدولة الاخرى .

بالاضافة إلى وظائف الحكام الكبيرة عرف المجتمع عدداً كبيراً من **الموظفين الثانويين** مثل الليكتور : مرافقي الملك أو القنصل ، والكتاب

العاملين في الوظائف الكبرى لتنفيذ الأمور الروتينية . كذلك كان يوجد موظفون دينيون منهم تسعة احبار يشرفون على الاضاحي والاحتفالات العامة ، وكان هؤلاء من طبقة الخواص يمارسون بالوقت نفسه نشاطهم في ميادين السياسة الأخرى .

ختاماً يلاحظ المرء من خلال الوظائف الجديدة التي احدثت في جهاز الحكم الروماني ، أنها أوجدت لتلائم حاجات مجتمع متطور ينمو افراده بسرعة . ومع ذلك يثبت الواقع ان كثرة هذه الوظائف وتعدد صلاحياتها المتضاربة احياناً مع اختصاصات القنصلين الاصلية لم يكن نابعاً عن ضرورة ملحة فحسب ، بل كان يخدم مصالح مجلس الشيوخ بصورة غير مباشرة . وذلك عن طريق اضعاف نفوذ القناصل وتقليص صلاحياتهم ، وبالتالي ارتفاع سلطة مجلس الشيوخ فوق منصب الحاكمية [1] .

٣ ـ التشاريع والقوانين الرومانية

لم تقتصر التغيرات الطارئة على المجتمع الروماني على مؤسسات الدولة الدينية وعلى توسيع الوظائف العامة ، بل اقترنت كل هذه التطورات وتعلقت بمطالب فئه كبيرة من الشعب هي فئة العوام الذين سعوا جهدهم لتحقيق بعض العدالة في توزيع وظائف الدولة وفي علاقات المواطنين مع بعضهم . ومن المؤكد أن تحقيق كلا الهدفين لم يكن يمكن الوصول اليه الا عن طريق كفاح العوام والفلاحين المستمر من جهة ، وعن طريق استصدار التشاريع والقوانين الخاصة التي تضمن بقاء المكاسب الجديدة وحسن تطبيقها .

كما هو الحال في موضوع كيان الدولة السياسة واجهزتها التي انطبعت بطابع الطبقة النبيلة التي تسود المجتمع ، فان العادات والتقاليد في روما لم تكن اقل تأثرا بهذه الارستقراطية . وإذا تفحصنا جوهر المجتمع الروماني

(١) راجع اعلاه ص ٨٤ — ٨٥ .

رأينا ان العلاقة القانونية الرئيسية التي كانت تربط بين الافراد كانت بالدرجة الأولى علاقة التبعية التي دان بها العوام نحو اعضاء الطبقة النبيلة من الخواص. إذ ان السيد أو الحامي Patronus كان ملزماً بتقديم المساعدة والحماية لزبائنه [١] . وبالفعل كان هذا العقد الشفهي يربط الطرفين بقيود متينة ارسختها العادات والتقاليد عبر القرون . وعندما يرغب التابع أن يقاضي شخصاً او أن يطالب بحق عن طريق المحاكم فانه يلتفت أول ما يلتفت نحو حاميه الذي كان ملزماً اخلاقياً وادبياً بوضع نفوذه ووسائل دعمه تحت تصرف هذا التابع . وعندما يحاول الأول التملص من هذه المسؤولية يكون قد اقترف اثماً بحق العقد العرفي fides الذي يربطهما .

وقد لاحظ تيتوس ليفيوس في دراسته للصراع الناشب في القرون الاولى من العهد الجمهوري بين الخواص والعوام ، بان العوام عندما يظفرون بانتزاع امتياز من الخواص كانوا يبتهجون بذلك ، ولكنهم لا يحاولون الاستفادة من الكسب الذي حصلوا عليه . ولعل هذه الملاحظة الهامة تفسر لنا أن طبيعة الصراع الذي كان يدور في المجتمع الروماني انذاك لم يكن يسير دوماً في الاتجاه الايجابي حسبما يتصوره المؤرخ اليوم ، بل كانت عوامل كثيرة - اهمها تقاليد الاحترام وإبقاء العلاقات الشخصية الموروثة - تساهم في الوقوف في وجه تطور العادات والاعراف السياسية . وعندما يسعى العوام ككل ان ينتزعوا لأنفسهم على الاقل جزءاً من السلطة التي يحتكرها الخواص بين ايديهم ، فان ذلك لم يكن يعني أن القوالب الاخلاقية وعناصر التحسس في الحياة السياسية تتطور في نفس الاتجاه . ذلك أن أحداث الصراع الاجتماعي الذي خاضه العوام تسمح لنا أن نستنتج أن هذا الصراع لم

---

(١) راجع اعلاه ص ٧٧ .

يكن يستهدف هدم نظام الطبقية من حيث الاصل ، بقدر ما كان يريد اجبار أولئك الاشخاص الذين كانت بيدهم مسؤولية السهر على مصالح الجزء الاكبر من الشعب ، أن يمارسوا وصايتهم بشكل فعال .

من بين العناصر الرئيسية التي سببت استياء العوام وأثارت نقمتهم منذ فجر العهد الجمهوري كان موضوع **الديون** التي اضطر فلاحوا العوام إلى استدانتها من الخواص ، وبالتالي عجزهم عن تسديدها بسبب غيابهم القهري عن مزارعهم اثناء اداء الخدمة العسكرية .

يضاف إلى ذلك عبء ضريبة الممتلكات التي كانت تجبى لاغراض عسكرية ناءت بها كواهل طبقة العوام فعلاً . وانه لمن الواضح أنه لا الاجور الزهيدة التي كان الجنود الرومان يتقاضونها اثناء الخدمة ، ولا حصصهم في غنائم المعارك كانت تستطيع تسديد ديونهم . أما المحاصيل الزراعية اللازمة لاعالة الاسرة فلا يمكن انتاجها إذا غاب الفلاح عن حقله مدداً طويلة .

وقد تقدم الفلاحون الرومان عقب الحروب السامنتية إلى مجلس الشيوخ يرجون فيه التخفيف عنهم . ولكن هذا المجلس الذي يمثل مصالح الدائنين رفض مراراً الموافقة على اصدار تشاريع تحل المشكلة ، والتي كان المحامون قد تقدموا بها إلى « جمعية القبائل » ونالت موافقتها . وازاء تعنت مجلس الشيوخ اضطر العوام الى اتخاذ اجراءات قاسية . فمشوا بسلاحهم نحو هضبة الجانيكولوم عبر التيبر وهددوا بالانشقاق عن الدولة. وسنرى ان مجلس الشيوخ سيذعن فيما بعد لتهديدهم عندما يعين احد العوام المسمى هورتنسيوس ديكتاتوراً لحل هذه المشكلة .

وفي الواقع اصبح العوام الذين ارتبطوا بدين للخواص عبيداً أو انهم كانوا يباعون مثل الرقيق في حالة عجزهم عن سداد ذلك الدين

المخصصة للشعب والتي تحدد احتفالات الدولة الدينية . وفي حوالي ٣٦٨ زيد عدد اعضاء هذه اللجنة من عضوين الى عشرة أعضاء شرط أن يكون نصفهم من طبقة العوام . وبواسطة القانون الأوغولياني Lex Ogulnia الذي صدر عام ٣٠٠ ق . م . استطاع ممثلوا العوام الوصول الى مناصب الكهانة العليا .

أما القانون الذي حمى الشعب من أعمال القسر والتعسف التي كان باستطاعة القناصل والحكام المتمتعين بسلطة الامبريوم ممارستها لفرض طاعتهم ، فقد جاء ممثلاً في **حق الاستئناف** الذي نص عليه قانون فاليريان Valerian عام ٣٠٠ ق . م . وقد أصبح لافراد الشعب حق ايقاف احكام الاعدام والجلد عن الاشخاص الذين يستأنفون هذه الاحكام إلى جمعية من الجمعيات . ولكن يعتقد أن هذا الحق كان مقصوراً على مدينة روما وحدها ولا يتجاوز مفعوله حدود المدينة المقدسة « البومريوم » حيث تسود السلطة العسكرية خارجه . ومهما كان المدى الذي يصله هذا القانون ، فإنّ اصداره يكفي للاشارة إلى ان القوة التي كان يمتلكها كبار الحكام الرومان لم تعد مطلقة على الشعب .

على الرغم من ان تشكيل « الجمعية المئوية » يعتبر ضربة قاسية للارستقراطية النبيلة في المجتمع الروماني ، الا أن هذه المؤسسة لم تعط بشكل من الاشكال الفرصة الملائمة لفقراء العوام للجهر بظلاماتهم ، وذلك بسبب التسلسل الطبقي الذي كان يتبع في اجراء عمليات التصويت على القرارات من ناحية ، ولاشراف مجلس الشيوخ على هذه الجمعية من ناحية أخرى .

أما المجالات التي افسح للعوام اكبر نصيب من المشاركة في الحكم فيها فقد كانت وظيفة المحاماة ومجلس القبائل [1] . وتكشف صفة المحامي

(١) حصل مجلس القبائل بموجب قانون هورتنسيا على استقلال تشريعي كبير فاق ما كانت تتمتع به الجمعية المئوية ، والغي تدخل مجلس الشيوخ كلية .

بعد ان يضع الدائن يده على أموالهم أيضاً[١] ويمكن ان نتعرف على مدى الاستياء الذي كان يفيض به الشعب في روما من حدوث ثلاث محاولات فاشلة قامت لاغتصاب السلطة بوسائل غير دستورية قام بها سبوريوس كاسيوس عام ٤٧٨ وسبوريوس ماليوس ٤٣١ وماركوس مانيلوس عام ٣٧٦ وهم من الخواص الذين حاولوا تحقيق مطالب العوام . وتذكر المصادر أن هذا الأخير يتهم بمحاولة اغتصاب السلطة وفرض الحكم الفردي وذلك باطلاقه سراح السجناء من العوام ممن عجزوا عن تسديد ديونهم ، وتكون عقوبته أن يلقى إلى حتفه من صخرة عالية . وجاءت القوانين الاصلاحية المسماة بالقوانين الليبينية - السكستيه عام ٣٦٧ ق . م[٢] تتضمن التخفيف عن العوام بمنح المدينين منهم بعض الشروط المتساهلة وانقاص الديون[٣] وتحديدهم لمساحة رقعة الاراضي الزراعية العامة التي يمكن للأفراد أن يمتلكوها بما لايزيد عن ١٢٥ هكتاراً ... بالاضافة إلى ذلك منح العوام حق الوصول إلى وظيفتي القنصل ، ولكن ذلك لم يكن منصوصاً عليه بل تم استناداً على انتخاب المحامي سكستيوس في السنة التالية لوظيفة القنصل. وفيما بعد سرعان مايصبح تولي أحد العوام لوظيفة القنصل عرفاً سارياً[٤] .

وفي الحقيقة ادى اقرار القوانين الليسينية - السكستية

---

(١) انظر اعلاه ص ٨٧ .

(٢) نسبة إلى المحاميين C. Licinius, L.Sextius .

(٣) صدر في العام ٣١٣ قانون تقدم به القنصل Poetilius (Lex Poetilia) يحمي المدين من السجن فيما إذا تخلى هذا لدائنه عن كافة ممتلكاته وهذا يعني الغاء عبودية المواطنين من المدينين .

(٤) لم يستلم العوام وظيفتي القنصلية بآن واحد حتى عام ١٧٢ ق.م .

إلى حدوث انقسام بين العوام انفسهم . اذ أن ظفر الاثرياء منهم ببعض المساواة السياسية مع الخواص جعلهم ينفصلون عن طبقتهم ويتخلون عن مطالب فقراء العوام . ذلك أن الاصلاحات التي تضمنتها القوانين الآنفة الذكر وخاصة تخفيف الديون وانقاص الفوائد المترتبة عليها قد أصاب مصالح اثرياء العوام ايضاً ووحّدهم في المصيبة مع الخواص ، وجعلهم يتعاونون أكثر للدفاع عن مكاسبهم ضد مطالب العوام المقبلة .

والمعروف أن الخواص كانوا في بداية العهد الجمهوري يتشددون في منع العوام من النفوذ الى طبقتهم عن طريق الزواج . وجاءت قوانين اللوحات الاثنى عشر تؤكد عدم شرعية الزيجات المعقودة بين افراد طبقتين مختلفتين . وقد شعر الخواص إثر الحروب الطويلة بنقص يهدد طبقتهم بالزوال ، وتأكدوا أن من مصلحتهم تزويج بناتهم وأبنائهم بأبناء عائلات الأثرياء من العوام وكان من الطبيعي أن ترفع هذه العقبة عن طريق القانون [١] الذي وافق عليه مجلس القبائل عام ٤٤٥ ق . م والذي تقدم به المحامي Canuleius . وكان يسمح للابناء الناتجين عن هذا الزواج بوراثة رتبة والدهم الاجتماعية . من هذا يتبين للمرء أن الفوارق بين طبقتي الخواص والعوام اخذت تتضاءل ، خاصة وأن المال أصبح عنصراً هاماً في تحديد طبقات المجتمع .

ومثلما ازيل الحاجز الذي يقف بين العوام والوصول إلى طبقة الخواص عن طريق الزواج ، كذلك يضطر الخواص الى الاقدام على تنازل مماثل لصالح العوام وذلك في المجال الديني . فقد كانت الكهانة آخر معقل لامتيازات الخواص حرصوا حتى نهاية القرن الرابع على اغلاقها في وجههم . ولم يكن يتاح للعوام الا الاشراف على الكتب المقدسة

---

(١) يطلق عليه اسم قانون كانوليان Lex Canuleius .

واسس سلطته انها كانت نتيجة حركة ثورية تناهض طبقة الخواص . إذ تلقى المحامون سلطتهم وخاصة « سلطة الحماية » و « حق المساعدة » استناداً إلى قسم اقسمه العوام بانهم سيقتلون دونما محاكمة أي شخص لايحترم حق النقض الذي يمارسه المحامي . وبواسطة الامتيازات المختلفة التي حصل المحامون عليها وخاصة بعد صدور قانون هورتنسيا عام ٢٨٧ق.م ازدادت اهمية هذه الوظيفة . اذ أصبح من بين سلطاتها حق الجلوس في مجلس الشيوخ [١] ودعوة هذه الهيئة للاجتماع والقاء الخطب امامها ، وحق مقاضاة أي حاكم امام جمعية القبائل . وهذا الحق جعل من المحامين حراساً لمصالح الدولة ضد أي انحراف يقدم عليه الحكام . وبالتالي أصبح المحامون اعتباراً من تاريخ صدور القانون يتمتعون برتب حكام للشعب الروماني .

هذا من الناحية النظرية أما التجربة الطويلة فقد برهنت ان وظيفة **المحاماة** كانت « حلاً وسطاً مشؤوماً » حسبما عبر عن ذلك المؤرخ الكبير تيودور مومسن . اذ انها لم تؤد الى وصول العوام إلى صوت كامل في المؤسسات الحكومية . فقد استخدمت سلطة المحاماة خلال فترة انحطاط الجمهورية لتقف في وجه الاجراءات التي يقصد منها مساعدة الشعب . إذ كان باستطاعة النبلاء عادة ان يؤثروا على الاقل على احد المحامين لكي يقوم بايقاف اعمال زملائه وتعطيلها بواسطة حق الفيتو الذي كان يتمتع به . ومع ذلك نجد ان كلًا من المحامين ومجلس القبائل قد ساهموا بنفس الوقت في شكل ايجابي في تحقيق الالتحام بين العوام وتوجيه كفاحهم . ولقد كانت المحاماة ومجلس القبائل اجهزة

---

(١) لكي يمارس المحامي حق النقض سمح له بالاستماع الى جلسات مجلس الشيوخ، وكان يجلس في البدء عند باب المجلس .

حكومية خاصة بالعوام كلية جاءت باعتبارها حصيلة لصراع الطبقات ، ولكنها ماتلبث ان تدخل إلى جانب وظائف الحاكمية والمؤسسات الأخرى لتصبح مؤسسات لكافة الشعب الروماني . ومع ذلك لانستطيع أن نخلع على هذه المؤسسات الرومانية طابعاً دستورياً ديمقراطياً فعلاً ، إذ ان تحالف اثرياء العوام مع قادة طبقة الخواص عطل إلى حد كبير قوة الجمعيات العامة صاحبة السلطة الرئيسية ، واعطى لآلة الحكم الروماني على النقيض طابعها الارستقراطي المحدد . وفي الخلاصة لايمكننا القول أن الحكومة الرومانية كانت تسير بشكل ديمقراطي يماثل ما كانت عليه حكومة بريكلس في أثينا .

يتبين من استعراضنا للاصلاحات التشريعية التي تمت في العهد الجمهوري والتي لم نأت الا على ابرز عناصرها ، أن التطورات الدستورية والاجتماعية حتى القرن الثالث نتج عنها تحقيق مكاسب لطبقة العوام في المدينة وللفلاحين في الريف الروماني . كما ان طبقة الخواص الممثلة بارستقراطية مجلس الشيوخ ظفرت لفئتها بروافد جديدة قوية ولم تتخل عما بيدها إلا بالقدر الذي يجنبها الاصطدامات العنيفة . ولا يخفى على المرء أن هذا التطور قد تم ببطء شديد ، وساهم فيه قادة وسياسيون كثيرون خلدت اسماءهم القوانين التي اصدروها . واذ نأت الآن على ختام هذه الاعمال التشريعية لابد لنا ان نلقي نظرة على محاولة هامة قام بها الرومان في حوالي منتصف القرن الخامس ق.م لتقنين القوانين في شريعة « Code » شهيرة عرفت باسم قوانين اللوائح الاثني عشرة .

قوانين اللوائح الاثني عشرة :

لانعرف في الحقيقة الدافع الحقيقي الذي يكمن وراء عملية جمع القوانين الرومانية في هذه الفترة الباكرة ويقال بان الهدف من ذلك وضع حد لتعسف حكام الخواص . ومع ذلك يحق لنا أن نظن بأن الرومان

اقتفوا في هذا العمل الحقوقي أثر جيرانهم الاغريق الذين سبقوهم في التطور بحوالي قرنين [١] . وليس بغريب أن يتأثر الرومان بدساتير جيرانهم اغريق مدن الجنوب الايتالي طالما أنهم تلقوا منهم عناصر حضارية أخرى في مضمارات الدين والفن والتنظيم العسكري على سبيل المثال .

عهد إلى لجنة تتألف من عشرة حكام برتبة قناصل Decemvirn بمهمة وضع شريعة للقوانين . فقامت بنشر القوانين في عشرة الواح ، وبما ان هذه الالواح لم تكن كافية فقد شكلت لجنة ثانية كان يرأسها القاضي ابيوس كلوديوس أيضاً [٢] اضافت لوحين جديدين اليها . وحازت هذه القوانين موافقة الجمعية المئوية عند عرضها عليها وبذلك اصبحت نافذة المفعول حتى القرن الثاني . ودونت القوانين على اثني عشر لوحاً من الخشب ـ اشتقت منها اسمها التقليدي ـ ومما لاشك فيه ان هذه القوانين تعرضت لتنقيحات تالية ، ولم يبق منها حالياً الا استشهادات متفرقة تعطي فكرة عامة عن محتواها القانوني . والجدير بالذكر ان هذه القوانين لم تكن دستوراً بمعنى الكلمة ، بل كانت جمعاً بسيطاً للقوانين المدنية والجنائية السائدة آنذاك بالاضافة إلى بعض القواعد الحقوقية المتبعة .

---

(١) تذكر المرويات الرومانية ان اللجنة المكلفة بوضع الشريعة ارسلت إلى مدينة اثينا عام ٤٥٤ لتدرس قوانين المشرع صولون . ومما لاريب فيه ان هذا الزعم من اختراع الكتاب الرومان التالين .

(٢) يعتقدان انشاء اللجنة الثانية لاصحة لهوان عمل اللجنة الأولى أتمه قناصل السنة التالية. كان ابيوس كلوديوس من الخواص الذين استلموا وظائف كبيرة في الدولة مرات عديدة . وقد قام في عهد مراقبته عام ٣١٢ بتطهير مجلس الشيوخ وادخال الفقراء في الجمعية المئوية والمجلس القبلي ، واضافة الثروات المنقولة الى الثروات الغير منقولة في حساب ثروات المواطنين. واليه ينسب الطريق الواصل بين كابوا وروما.

وقد كتبت القوانين في جمل محكمة السبك منطقيـة التسلسل فهي تكشف عن مجتمع أكثر بساطة من المجتمع الذي تنم عنه فقرات شريعة حمورابي البابلية . وبموجب هذا القانون الروماني الأول أصبح لكل المواطنين الأحرار حقوق وواجبات ضمن الدولة . وأعطت اللوائح للمواطنين مجالاً لتحديد اختيارهم ونشاطهم الاقتصادي عندما تفسح لهم المجـال لكتابة الوصيات والعقود . كما تمكن الأولاد والزوجات من الحصول على وسائط شرعية يؤمنون بواسطتها التحرر من سلطة الأب .

ولا يخفى على القارىء أن واضعي شريعة اللوائح الاثنى عشرة كانوا من أفراد الطبقة العليا . لذلك لا نستغرب تأكيد القـانون على السماح باعتقال المدينين الهاربين وسجنهم وحق الدائنين في بيعهم رقيقاً إذا لم يستطيعوا تغطية ديونهم . وبالمثل ترفض هذه القوانين الاعتراف بشرعية زواج الأفراد المنحدرين من طبقتين مختلفتين . وتتابع العمل بقاعدة « نيكسوم » القاسية ، وتحتفظ بالكثير من التقاليد الرومانية القديمة التي تدل على أن الشعب الروماني رغم محاولته الاقتباس من التشريعـات الاغريقية الصولونية مايزال في مرحلة بدائية جـداً . وعلى كل حـال يتلخص الكسب الضئيل الذي حققه العوام في أن معرفة القانون، تصبح الآن في متناول الجميـع، ولم تعد احتكاراً على فئة معينة تستغل تفسيرها لصالحهـا .

أما الحكم العام على هذه القوانين من الناحية السياسية فيصوره المؤرخ الكبير الاستاذ فرانز ألتهايم[1] بأن اللوائح الاثنى عشر لم تنه تقسيم الشعب الروماني إلى خواص وعوام ، بل تري على العكس أن المشرع يعترف بقيام هـذا الانفصال . وعلى العموم يستطيع المرء أن يتحقق من

---

(١) Frans Altheim, Aufstieg und Weltherrschaft Roms, S. 676-677.

القوانين المذكورة بأنه لا الخواص ولا العوام كانوا الرابحين بالنتيجة . بل كان الرابح عنصراً أعلى من الطرفين المتنازعين وهو **فكرة الدولة الرومانية** . وفي هذه الفكرة تكمن أهمية هذا القانون الروماني الأول . وفي الحقيقة وقفت هذه الفكرة في وجه أماني طبقة العوام وحرمتهم من النجاح الذي كانوا يرجونه . ولكن ما تم ربحه عوضاً عن ذلك كان أكثر أهمية من أن يكون مجرد ظفر للعوام . فقد ظهر الشعب الآن ككل مرة أخرى مكان المجموعتين الاجتماعيتين ، فكان الرابح من ذلك هو الدولة التي أصبح يطلق عليها اسم res publica والتي تستمد اسمها من الشعب . ويقف الشعب الروماني الآن ككل فوق طبقتي العوام والخواص .

ب ـ التطورات الاقتصادية والحضارية :

تقدم شريعة اللوائح الاثنى عشر صورة عن المجتمع الروماني يستمد منها أنه كان **مجتمعاً زراعياً** بالدرجة الأولى . فغالبية المواطنين الرومان كانوا من المزارعين يعيشون في الريف الايتالي ويلزمون إلى جانب الزراعة بتقديم الجنود إلى الدولة الرومانية كلما لزم الأمر . وفي الحقيقة كان المستفيد من حروب توحيد ايتاليا الطويلة طبقة المزارعين أكثر من طبقات الصناع أو التجـــار . فقد انفتح المجال أمام الطبقة الأولى لتأسيس المستعمرات الجديدة والتوسع في استثمار الأرض الزراعية وامتلاكها وتربية المواشي فيها . ولعل ازدهار طبقة الخواص في مجلس الشيوخ يعود إلى حقيقة الأمر في أنهم أصبحوا من كبار الملاكين أو بالأحرى من الرأسماليين الزراعيين . اضافة إلى ذلك مارس هؤلاء المتمولون الكبـــار في المدن الايتالية عمليات **اقراض الأموال** إلى صغار الفلاحين بفوائد مرتفعة حددت شريعة اللوائح الاثنى عشرة نسبتها السنوية بحوالي $8\frac{1}{3}$ بالمئة . ومما

لا شك فيه أن المرابين لم يكونوا يتقيدون بهذه النسبة مما اضطر الدولة إلى إعادة فرضها مرة أخرى عام ٣٥٧ ق . م . ثم خفضت إلى النصف تقريباً . وكما رأينا نشأت المضاعفات الكبرى في المجتمع الايتالي عن مشكلة تسديد صغار المزارعين للديون والفوائد التي تراكمت عليهم إذ فرض عليهم عجزهم عن سدادها في كثير من الأحيان فقدان حريتهم الشخصية . وبالتالي كان الغاء مثل هذه الاجراءات القاسية تخفيفاً ومساعدة للمواطنين الفقراء من ناحية ، وكانت بالنسبة للمرابين والمتمولين من ناحية أخرى ضربة حدّت من امكانيات استثمار أموالهم . وعلى الرغم من صدور **القانون الليسيني – السكستي** عام ٣٦٦ الذي يحدد حجم ملكية الأراضي الزراعية ، فان الرأسمالية الزراعية تصبح خطراً يحسب حسابه في المجتمع الروماني .

نشوء النظام المالي :

من الملاحظ أن طبقة الخواص الرأسمالية لم تتجه في توظيف أموالها واستثمارها نحو الأعمال التجارية بل اقتصرت بوجه عام على **الزراعة** . وتتضح عدم مبالاة الرومان بممارسة التجارة على نطاق واسع من طبيعة المعاهدات التي عقدتها روما مع جارتها قرطاجة . فقد تركت المعاهدة الاولى المعقودة عام ٥٠٨ للتجار القرطاجيين حرية الدخول والمتاجرة حتى منطقة روما نفسها ومناطق اللاتيوم في حين لا تعط نفس المعاهدة للتجار الرومان حق المتاجرة في الامبراطورية القرطاجية ما عدا مرافىء صقيلية . كما كان لا يحق لهم التوغل نحو مناطق البحر الأبيض المتوسط الغربية . ويمكن تفسير هذا التقيد بعدم سماح القرطاجيين للتجار الرومان بالوصول إلى المرافىء الفينيقية في شمال افريقيا . أما معاهدة عام ٣٤٨ التي عقدوها مع القرطاجيين فقد احتفظت من جديد للأخيرين بامتيازاتهم التجارية الآنفة الذكر ، وحددت مجالات العمل في وجه الرومان . ولا بد أن

نأخذ بعين الاعتبار أن الاقتصاد الروماني الذي يهمل أمور التجارة في عهوده الباكرة كان يعتمد على نظام المبادلة في السلع، رغم أن اتساع رقعة الدولة الرومانية قد فتح لها أسواق جديدة وجعلها على احتكاك مع المدن الاغريقية والاتروسكية المفتوحة . هذه المدن كانت تستخدم في معاملاتها الاقتصادية نظاماً نقدياً يسهل إلى حد كبير أعمال التجارة . ولعل انصراف الرومان إلى أعمال الزراعة[1] كان السبب في تهاونهم في ادخال نظام نقدي خاص بهم يتماشى مع تطور الدولة الجديدة . نتيجة لتزايد موارد ايتاليا من المواد المعدنية أخذ نمط جديد من وسائل التبادل يفرض نفسه على العلاقات التجارية المالية ويأخذ شكله في هيئة قطع صغيرة من **البرونز** لا شكل معين لها ولا تحمل شعار الدولة أو الدار التي أصدرتها . مثل هذه النقود البدائية وجب اعادة وزنها للتأكد من قيمتها في كل مرة يتم تبادلها بين الأفراد . وفيما بعد يصدر قانون في أواخر القرن الخامس ق . م يحدد قيمة الثور أو العشرة غنمات بأنها تعادل حوالي ٥٠ كيلو غرام من هذه القطع البرونزية . واعتباراً من حوالي بداية القرن الثالث أصبح الرومان ينظرون إلى قطع البرونز التي تزن الواحدة منها ٤٥٠ غراماً أو أجزاءها وتسمى (as) باعتبارها نقوداً . ويحتمل أن الرومان استعملوا أيضاً نقوداً مضروبة في المدن الكامبانية . ثم ما تلبث أن تظهر النقود الرومانية اعتباراً من عام ٢٦٨ ق . م لكل منها قيمة خمس أو عشرة as . وكانت نقطة الضعف فيها أن قيمتها لم تكن محددة في الأسواق . وفي عام ٢١٧ ق . م يحول نظام النقد الروماني إلى قاعدة تعتمد على **مادة الفضة** ، ويصبح **الدينار الروماني** denarius معادلاً

---

(١) لا أدل على دور الزراعة وتربية المواشي في الحياة الاقتصادية الرومانية من أن كلمة النقود في اللغة اللاتينية pecunia مشتقة من كلمة قطيع pecus . وتدل على أن المواشي كانت وسائل معترف عليها للتبادلات التجارية ولتحديد قيمة السلع .

لدراخمه اغريقية اتيكية[1] . وبذلك تحصل الدولة الرومانية على نظام نقدي ثابت يفرض في المبادلات التجارية في ايتاليا ويحل محل كافة العملات التي كانت تتداول في مدن المستعمرات الاغريقية والحليفة . هذه النقود الفضية الجديدة مكنت الرومان من عقد اتصالات تجارية مع الدول الهلنستية ، التي كانت تشرف إلى حد بعيد على اقتصاد منطقة البحر المتوسط .

المجتمع الروماني :

كان المجتمع الروماني يعتمد في تركيبه على نظام **الاسرة الكبيرة** التي تعتبر الخلية الاولى في هذا المجتمع . وهي تتألف من الأب الذي يسمى pater familias وزوجته وأولاده وزوجاتهم وابناؤهم وعبيدهم ... الخ . وكان للأب السلطة المطلقة على أسرته وتختلف هذه السلطة في نوعيتها وتعابيرها بين أعضائها الأحرار والعبيد التابعين اليها . ويكون له حتى حق فرض عقوبة الموت على أفراد اسرته . هذا من الناحية النظرية إلا أن صلة الأب بالاسرة كان يقررها ويحددها إلى مدى بعيد الاعراف السارية في المجتمع الروماني والتي كانت تعطي للمسنين في الاسرة دوراً استشارياً هاماً يعتمد عليه عند اتخاذ أي قرار حيوي يتعلق بأمور الاسرة . وبالطبع كانت أموال وممتلكات الاسرة تحت اشراف رب العائلة . وتنتقل سلطته إلى أولاده بعد موته ، حيث يصبح كل منهم رباً لاسرة جديدة . ولا ينتسب إلى الاسرة الا الابناء المنحدرون من أصلاب أعضائها الذكور

---

(١) أي ان الدينار الروماني يعادل حوالي ليرةسورية . وبالوقت ذاته يعادل عشرة as-es من النقود الرومانية .أما الوحدة الصغيرة من الدينار واسمها sesterius فكانت تساوي ١/٢ ٢ . as .

فقط . وعلى العموم كانت العلاقة بين أفرادها تخضع الى انضباط شديد تفرضه السلطة الأبوية ، ولم يمنع ذلك من قيام علاقات ودية وارتباطات وثيقة بين أعضائها . أما تربية المواطنين الرومان فلم تكن تخضع إلى قواعد عامة . بل كانت التقاليد تنقل خبرة الآباء الى الابناء بما فيها المرويات والاساطير عن ماضي الأسلاف ، بالاضافة إلى تدريبهم على أعمال الزراعة واستعمال السلاح وبعض أنواع الرياضة . ويدخل المواطن إلى المجتمع ليمارس دوره فيه اعتباراً من سن الثامنة عشر . وتكون مساهمته الاولى فيه في أداء الخدمة العسكرية . أما العنصر المميز لطباع الرومان سواء في حياتهم المنزلية أو في علاقاتهم مع الدولة فهو يكمن في الإطاعة والشعور بالواجب وفضيلة التقوى . أي أن الفرد ينظر إلى أداء واجباته نحو آلهته وأهله ومجتمعه بكونها مثله الأعلى في الحياة . وبالفعل أظهر الافراد الرومان في مناسبات عديدة تعلقهم الكبير بدولتهم ورغبتهم في اطاعة أوامرها وتنفيذ مصلحتها العليا . وكانت مآثر الآباء تقاليد رفيعة يحتذيها الأبناء ، وتعتبر نموذجاً لسلوك المواطن الصالح . وعلى العموم يتصف الشعب الروماني **بطابع المحافظة والجدية** وتفضيل النواحي **العملية** على النواحي الفكرية المعقدة . أما حياة الرومان اليومية فقد بقيت في فترات العهد الجمهوري الأول بسيطة متقشفة . فكان المنزل يضم قاعة كبيرة تسمى **الاتريوم** زودت بموقد مكشوف ، تركزت فيها فعالية الاسرة : فهي غرفة للعمل وللطعام وللاستقبال ومركز لرب العائلة . وكان الطعام بالمثل بسيطاً يعتمد على المنتجات الزراعية بدرجة رئيسية التي تطبخ بزيت الزيتون ، يضاف اليها الخبز والفواكه مثل التين والعنب . وبالطبع كان لشراب الخمر المصنوع من عصير العنب دور في الحياة اليومية . وقد أمنت المزارع لأبناء الريف كل موادهم الغذائية ، وما نقص منها كان يمكنهم الحصول عليه

عن طريق المبادلة بمنتجات أخرى . أما في المدينة فقد قامت أسواق الخضار والمواشي لتسد حاجة هذا المجتمع الكبير من المواد الغذائية .

معتقدات الرومان الدينية :

اشترك الرومان مع جيرانهم اللاتين والشعوب الايتالية الاخرى في اعتقادهم بمزيج من الافكار الدينية استمدت من منابع متعددة لم تخل من تأثيرات اشتقت من ديانات الشعوب الاغريقية والاتروسكية . وتتلخص افكار الديانة الرومانية في الاعتقاد بعدد من الكائنات الروحية التي تفوق البشر قوة وتتجلى في مظاهر الكون واحداثه . هذه القوى كان ينظر اليها باعتبارها شخصيات محددة لها اسماء معينة وتمثل مرحلة أولية من تطور التفكير الديني لدى الرومان . وتتميز هذه الآلهة بأنها لاتتخذ صفات بشرية معينة بل يقوم الرومان بعبادتها في اماكن ظهورها دونما حاجة لبناء معابد تسكن فيها أو نحت تماثيل تشخصها .

وبالخلاصة تركز اهتمام الرومان في عبادتهم لهذه الآلهة على اقامة الطقوس الدينية والاحتفالات الخاصة أملاً في كسب رضائها وتجنب أذاها. وكانت عناية الفرد باقامة هذه الشعائر ضمان له من الآلهة بانها سوف تنظر اليه بعين العطف وتستجيب لرغباته . وبالتالي كان على هذا الانسان ان يكافئها كلما حققت له مطالبه . وتتوقف علاقة الانسان بها ويكف عن عبادتها عندما تكف الآلهة عن تلبية رغباته . ويلوح ان كلمة الدين « religio » تعني شعور الأفراد تجاه ظواهر الطبيعة أو الخوف الذي ينتابهم منها . ثم يتحول المفهوم عندما يصبح معناها الشعور بالرهبة أي بالواجبات الدينية . وبمثل ما كان الأفراد ملزمون بأداء الطقوس الدينية نحو الآلهة كان مطلوباً من الدولة ان ترعى هذه الناحية ايضاً وتفيها حقها من العناية . وتكون مهمة الكهنة حماية القانون الديني والاشراف على

تطبيق نصوصه وشعائره . أما الجزء الثاني من مهمتهم فيتلخص في تفسير نصوص القانون الديني وفي ارساخ العادات الدينية الجديدة . وهنا يكمن مصدر قوة مؤسسة الكهانة في الدولة الرومانية . اذ لم تكن مجرد وسيط بين الفرد وآلهته ، بل كانت مسؤولة عن مراقبة تصرفات الشعب من الناحية الدينية ايضاً . ولا ننسى دور **العرافة** في التنبؤ عن المستقبل ، اذ ان الآلهة تنذر البشر عن طريق الظواهر الطبيعية . ويستطيع من تتوفر لديه قدرة تفسير هذه الظواهر ان يطلع البشر مقدماً على رغبات الآلهة (١) .

تمثلت التأثيرات الاجنبية على الديانة الرومانية في تبني الرومان آلهة من مصدر اتروسكي أو اغريقي حفظت اسماؤها في الوثائق العائدة للقرن السادس . وكان اهم هذه الآلهة سيرس ceres وليبر liber وليبرا . وهي تقابل الآلهة الاغريقية ديميتر وديونيزوس وكوره الذين تقترن عبادتهم بالزراعة والخصب . ويأتي في الفترة التالية مزيد من الآلهة الاغريقية الاصل مثل ابولو ومنيرفا وديانا وهذه الاخيرة تقابل الآلهة الاغريقية أثينا وارتميس . وقد تأثر الرومان من الاتروسكيين في ادخالهم المعابد وتماثيل الآلهة الى ديانتهم . ولا ريب ان الاتروسكيين تأثروا قبلا بالافكار الدينية والتصويرية الاغريقية ، وساهم الفنانون الاغريق في مطلع القرن الخامس ق.م فعلا في تزيين وزخرفة المعبد المشاد على هضبة الأفنتين والمكرس لعبادة الالهة الاغريقية ، ديميتر . كما بنيت معابد اخرى لعبادة الاله مركور المقابل للاله هرمز ، ومعبد للاله ابوللو . وفي عام ٢٩١ يشاد معبد للاله اسكليبيوس Asklepios اله الشفاء الاغريقي . ولاشك ان الميثولوجية الاغريقية الغنية المعالم رافقت الافكار والاشكال الاغريقية وعرفت طريقها

(١) راجع سلطات مؤسسة الكهنة ونفوذها على الدولة في ص ٨٦ .

إلى الدين الروماني لتغنيه بخصبها وتقدم له نماذج باكرة يحتذيها الرومان . ولا تمضي فترة طويلة حتى تلتحم الالهة الاغريقية بالآلهة الرومانية وينشأ عنها الديانة الرومانية بشكلها التقليدي .

أما مساهمة الرومان انفسهم في العقائد الدينية وهي الجذور التي نطلق عليها الصفة الرومانية الاصيلة فتتلخص في عبادة الاسرة التي تشتمل على الآلهة جانوس أي روح باب البيت ، والاله فستا روح النار في الموقد ، وبقية الارواح التي تحرس وتسهر على حظ العائلة وحياتها بشتى تفاصيلها من الزواج والولادة والموت ... الخ . وكانت روح الاسرة تقترن بشخص رب العائلة الذي كان بالوقت ذاته راهب الاسرة ، وكانت عبادة هذه القوى تمارس ضمن المنزل . وقد قامت لدى الرومان اعياد سنوية اطلق عليها اسم احياء ذكرى الموتى من الاسلاف واستعطافهم ، اعتقاداً منهم أن ارواح الموتى الذين كانوا يدفنون او تحرق جثثهم كانت تهبط الى العالم الاسفل ثم تعود لزيارة الارض في أوقات معينة من السنة . ويضاف الى هذه العبادات عبادة المزارع التي ترتبط بفصول السنة الاربعة ومظاهرها الطبيعية من مواسم قطاف وحصاد وغيرها ... أما العبادة الرسمية فكانت تكرس للدولة الرومانية وتشتق طبيعتها في المراحل الباكرة من حياة الرومان الزراعية ، تكرم في اعيادها الإلهة فستا ويجري تطهير الحقول كما يحتفل بآلهة بعض العشائر الذين انتقلت عبادتهم الى الدولة . أما حجر الزاوية في عبادة الدولة الرسمية فكان يحتله الاله مارس الذي كان اله الزراعة والحرب ، وثلاثي الالهة جوبتر : اله السماء ، ورفيقته جونو الهة النساء الحامية ، ومينرفا حامية الحرفيين والصناع — الذين توضع معبدهم على هضبة الكابتول .

خلاصة القول لم يكن للديانة الرومانية قوة اخلاقية تصعيدية عميقة

بل كان اهتمام الرومـــان مركزاً على الفوائد المادية الآنية التي يمكن الحصول عليها عن طريق استرضاء الآلهة واقامة الشعـائر الدينية بشكل منتظم دقيق . فكانت الديانة الرومانية ذات طابع اجتماعي ريفي تميز بغياب الفردية والتأليه الخاص . وبالوقت نفسه كانت تمثل وحدة المجموعـــات الشعبية التي تعتنقها .

* * *

مراجع ومصادر للفصلين الثاني والثالث

T. Livy, History of Rome, Books 1 - 10, Loeb Classical Library And A. de Selincourt : penguin Books, L 104, 1960.

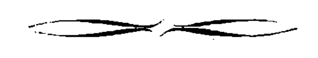
R. Bloch, Origins of Rome, New York, praeger, 1960.

E. Gjerstad's, Legends and Facts of Early Roman History, Lund : Gleerup, 1962.

I. Ryberg, Archeological Record of Rome from the Seventh to The Second Century B. C., Philadelphia, 1949.

H. Scullard, History of the Roman World from 753 B. C. to 146 B. C., London Menthuen 1961.

C. Bailey, The Legacy of Rome, Oxford 1951.



الفصل الرابع

توسع روما في البحر الابيض المتوسط

١ — الصراع بين روما وقرطاجة

كان من نتيجة تدخل روما في مشاكل الجنوب الايتالي أن استطاعت ربح عدد كبير من المـــدن والمستعمرات الاغريقية التي طلبت العون منها مثل مدن لوكري وريجيوم وتوري ... ولم يقتصر الأمر بعد ذلك على ابقاء الحاميات الرومانية في المدن الاغريقية بحجة حمايتها ، أو على عقد الاحلاف مع المدن الاخرى ، بل رأينا أن ثورة مدينة تارنت ومحاولتها صد الاستعمار الروماني عن المدن الاغريقية كانت على النقيض عاملاً في رسوخ قدم روما في الجنوب ، خاصة بعد أن فشلت مساعدة الملك بيرهوس في اعادة السيادة الى المدن الاغريقية عقب هزيمته الاخيرة في معركة بنفنتوم عام ٢٧٥ ق . م . وبتسليم نائبه القائد ميلو لمدينة تارنت بعد ذلك بثلاثة أعوام إلى الرومان ، واستعادة الاخيرين لمدن ريجيوم من المرتزقة المامرتيين ، واخضاعهم للبروتيين واللوكانيين والكالابريين والسامنتيين تكون مهمة روما في توحيد ايتاليا قد شارفت على مراحلها الاخيرة . ولم يبق امامها الا ادخال جزيرة صقلية المتاخمة للبر الايتالي

تحت السيادة الرومانية ، ذلك أن الملك هيرون الثاني ينفرد بالسلطة في مدينة سيراكوزه الاغريقية ويعلن نفسه عام ٢٦٥ ق . م ملكاً عليها .

كان من نتيجة الصراع الطويل الأمد الذي دار بين روما والمدن الاغريقية في جنوب ايتاليا ، أن انتقلت ملكية معظم مدن جزيرة صقلية الاغريقية إلى يد القرطاجيين . ولعل من بين العوامل التي أعطت للقرطاجيين هذه الفرصة للانفراد بأعدائهم الألداء ، سياسة عـــدم الاعتداء والتحالف التي اتبعتها روما مع القرطاجيين أثناء حربها مع الاغريق وخاصة مـع الملك بيرهوس الذي فشلت مطامحه في انشاء مملكة له في جنوب ايتاليا . ومن المحتمل أن الملك هيرون الثاني ملك سيراكوزه يدرك الآن خطأ سياسة الاغريق في الحرب على جبهتين ، ويتعرف على نوايا روما الحقيقية تجاه المدن الاغريقية . فيسعى للاتفاق مـــع القرطاجيين في جزيرة صقلية ، ويقوم بمهاجمة الجنود الكامبانيين المرتزقة الذين اعتصموا في مدينه ميسانا الواقعة في أقصى الشمال الشرقي من الجزيرة [1] . فيرسل هؤلاء طلباً الى روما والى قرطاجة يرجون مساعدتهم ضد الملك هيرون . فيبادر القرطاجيون على الفور لارسال حملة بحرية لمساعدة المحاصرين . أما في روما فان مجلس الشيوخ يقع في حيرة أثناء مناقشة الموضوع . إذ أن وضع القرطاجيين يدهم على هذا المضيق الستراتيجي الهام الذي يسطر على حركة اتصال مدن ساحل ايتاليا الغربي مع مدن شواطىء البحر الادرياتيكي معناه تهديد واعاقة تجارة رعايا روما من سكان جنوب ايتاليا . وبالوقت ذاته لم يكن لروما اهتمام كبير في المجالات البحرية إذ لم يكن لمجلس الشيوخ اسطول

---

(١) كان هؤلاء الجنود بقية المرتزقة الذين حاربوا مع القـــائد اجاثوكليس حاكم سيراكوزة ، ثم لجأوا إلى مدينة ميسانا . وقد اطلقوا على أنفسهم اسم « المامرتيين » أي ابناء الإله مارس .

كاف يشجع على ارسال المساعدة المطلوبة إلى جزيرة صقليه[1] . أخيراً تمكن القناصل الرومان بتحريض الشعب الحصول على الاصوات اللازمة لتقديم الحماية إلى المامرتيين في ميسانا . وعندما تصل القوات الرومانية الى صقلية تتبين أن القرطاجيين سبقوهم في وضع يدهم على المدينة . ومع ذلك يتمكن الرومان من طردهم خارجها ، ويرتد القرطاجيون عليهم متحالفين مع الملك هيرون الثاني ملقين الحصار على مدينة ميسانا . ولا يتمكن المحاصرون من فك الطوق المضروب عليهم حتى تصلهم نجدة رومانية بقيادة القنصل ابيوس كلوديوس الذي يتقدم بعد ذلك نحو مدينة سيرا كوزه ويفشل في فتحها . وفي السنة التالية يضيّق الرومان الحصار على سيرا كوزه مما يجبر الملك هيرون على عقد الصلح مع الرومان ويتحالف معهم لمدة خمسين سنة . وعلى هذا أصبحت المدينة الهامة قاعدة لتموين عمليات القوات الرومانية العاملة في صقليه . وبانسحاب الاغريق من الميدان نهائياً وتوقفهم عن أن يكونوا قوة ثالثة في المنطقة تقف روما وقرطاجة لأول مرة وجهاً لوجه ، ويظهر الصراع على مناطق النفوذ سافراً للعيان . ذلك أن روما لا تكتفي بنصرة مدينة ميسانا وانتزاع مضيقها الذي يعتبر مفتاح البحر التيراني ، بل تشجعها انتصاراتها في جزيرة صقيلية الشرقية وزوال خطر مدينة سيرا كوزه وانضمام مدن سيجيست وهاليكية اليها لمتابعة توغلها في صقيلية الغربية . وبعد أن يلوح النصر من جديد للقرطاجيين أثناء القتال حول مدينة اجريجنت ينخذلون ويضطرون لإخلاء هذه القاعدة الحصينة عام ٢٦٢ بعد حصار دام سبعة شهور . مقابل هذه الانتصارات التي حققها الرومان في المعارك البرية ، بقيت السيادة للقرطاجيين في البحر بلا نزاع . إذ كانت

(١) راجع عن تكون البحرية الرومانيـة ص ٩٣ ، واهتمام روما بالتجـارة الخارجية ص ١٣٧ – ١٣٨ .

السفن القرطاجية ضخمة الحجم وفيرة المجاذيف تتمتع ببحارة مدربين على المناورات ، كانت تقوم بغارات مفاجئة على مدن الساحل الايتالي وتؤمن المؤن للمدن الفينيقية المحاصرة في صقلية . أما السفن الرومانية الضعيفة فقد عجزت أن تقف في وجه التفوق البحري القرطاجي . وقد رأى الرومان أنه لا سبيل لهم الى احتلال جزيرة صقلية كلية الا اذا أمنوا لأنفسهم اسطولاً يستطيع نقل المعركة الى البحر أيضاً ومقارعة القرطاجيين في كل ميدان . وتبدأ روما عام ٢٦١ عملية بناء السفن مقلدة سفينة حربية قرطاجية كانت قد جنحت إلى الشاطىء . وبالفعل أمكن بناء عدد من السفن تدفعها مجاذيف يشرف على تحريك كل مجذاف منها خمس رجال . وقد اخترع الرومان سلاحاً سرياً يتلخص في بناء جسر خشبي منتصب في مقدمة السفن الرومانية يلقى عند الاقتراب من سفن العدو وينتقل بواسطته الجنود الرومان لقتال العدو في عقر داره . ويذكر أن الرومان حققوا عام ٢٦٠ بقيادة القنصل دويليوس نصراً باهراً على الاسطول القرطاجي في المعركة البحرية التي دارت قرب ميلا ، والذي كان يقوده هانيبال . ولم يبق لقرطاجة من مواقع في صقلية إلا مدن ليليبوم ودربانوم الواقعة في أقصى الجزيرة الغربي . في حين كانت روما تعد العدة لنقل الحرب إلى أرض العدو الأصلية على الطرف الآخر من البحر المتوسط .

بهذا تكون شرارة الحرب التي أشعلتها مدينة ميسانا بداية لحرب طاحنة طويلة الأمد بين القرطاجيين ومنافسيهم الجدد . فكانت صراعاً في سبيل البقاء أو الفناء ، مثلما كانت صراعاً على السيادة في منطقة البحر الأبيض المتوسط الغربية بكاملها .

وقد اصطلح المؤرخون على تسمية الصراع المسلح الذي دامت مراحله

الثلاثة أكثر من قرن بين القرطاجيين والرومان باسم « **الحروب البونية** » ٢٦٤ – ١٤٦ ق . م . واستمدت الحروب اسمها من اسم Poeni الذي أطلقه الاغريقيون على شعب قرطاجة الفينيقي .

لم يكن الصدام الذي نشب عام ٢٦٤ أول احتكاك يجري بين القوتين الكبيرتين قرطاجة وروما ، بل لقد رأينا في الفصول السابقة[١] أن العلاقات تبدأ بينهما منذ العهود الأولى للجمهورية الرومانية حيث تعقد بينهما معاهدة عام ٥٠٨ ق . م . تنص على ابتعاد التجار الرومان عن معظم الشواطىء القرطاجية في افريقيا الشمالية ، وبالمقابل توافق قرطاجة على عدم التدخل في منطقة اللاتيوم – المجال الحيوي لمدينة روما . ويمكننا تلخيص وجهة نظر السياسة الرومانية حتى منتصف القرن الثالث على ضوء المعاهدات التالية التي عقدت مع قرطاجة ، أنها كانت سياسة تتجه نحو عدم كسب المزيد من الاعداء لروما في الوقت الذي كانت هذه منهمكة فيه بالحروب الداخلية مع الاقوام الجبلية ومع الاتروسكيين حلفاء القرطاجيين . واعتباراً من نشوب أزمة ميسانا نرى روما تتخلى عن سياسة المهادنة السابقة خاصة وأن الدويلات الصغيرة التي كانت تقف بينها وبين العدو القرطاجي أشبه بحواجز الامان قد زالت ، وأن روما خرجت من حروب التوحيد ظافرة لتطل لأول مرة على عالم البحر المتوسط الغربي .

من الجدير بالملاحظة أن انطلاق روما نحو مهمتها الجديدة يتميز بازدياد ووفرة المصادر التاريخية التي تتعرض لهذه الفترة وتسجل احداثها . وللأسف ضاع جانب كثير من هذه المصادر ، اذ لم تصل مواضيعها الا

---

(١) راجع الصفحات ٥٠ – ٥١ ، ٦٥ ، ١٠٣ ، ١٠٧ .

عن طريق المؤرخين التالين . أما الكاتب الوحيد الذي بقيت لنا مؤلفاته فهو المؤرخ الاغريقي بوليب Polybius الذي كان من ألمــع مؤرخي عصره . فقد كرس جهوده خلال وجوده في روما في الاعوام ١٦٧ — ١٥١ ليشرح لمواطني الاغريق : « الاسباب التي مكنت الرومان في فترة تقل عن ثلاثة وخمسين سنة من النجاح في اخضاع كافــة العالم المسكون آنذاك تقريباً إلى حكمهم . وهـذا حدث يعتبره بوليب نادراً في التاريخ »[1] . ولربما كان هـذا المؤرخ أكثر زملائـه القدماء تمسكاً باسلوب النقد والجهر بالشك في المعلومات التي يقدمها المؤرخون الآخرون . ولاريب أن صلته وصداقته بالقائد الروماني سبيو اميليانوس اعطته فرصة نادرة لمراقبة الاحداث عن كثب . وبالاضافة الى هـذا المؤرخ العلم نستعين في التعرف على الفترة موضوع البحث بمؤلفات، مؤرخ تال هو المؤرخ الروماني ليفي Livy [2] . فقد تناول في اجزاء مؤلفه الكبير عن تاريخ روما [3] احداث السنوات الواقعة بــين ٢١٨ — ١٦٧ ق .م . ويساهم عـدد كبير من كتاب السير مثل بلوتارخ الذي يتعرض لحياة السياسي الروماني الشهير كاتو ، ومؤلفات الكتاب الاغريق التاريخية مثل

---

(١) لم يبق من مؤلفاته الا الأجزاء الخمسة الأولى التي تغطي الفترة حتى عام ٢١٦ ق . م . اما باقي الاجزاء فقد وصل منها نتف صغيرة ومقــاطع فقط . انظر :

Polybius, I. I. 5.

يقوم بوليب باعداد مخطط مختصر لمجرى الحروب البونيه الأولى ويتطرق للتحدث بالتفصيل اعتباراً من العام ٢٢٠ حتى ١٤٥ ق.م.عن مراحل بسط السيادة الرومانية على كافة ارجاء البحر المتوسط،يقدم له باستعراض موجز للفترة الواقعة بين ٢٦٤-٢٢٠ق.م.

(٢) عاش المؤرخ ليفي بين ٥٩ ق.م الى ١٧ م .

(٣) هي الاجزاء ٢١ - ٤٥ وقد وصلت سليمة . ولا يغرب عن البال ان المؤرخ ليفي يعتمد في مصادره مباشرة على مؤلفات سلفه بوليب .

مؤلفات ديودوروس الصقلي وابيان وديوكاسيوس تساهم جميعها في تتميم المواضيع المفقودة في كتب المؤرخ بوليب ومن سبقه من الكتاب الآخرين . أما معلوماتنا عن الطرف الثاني في النزاع المسلح على سيادة البحر المتوسط ونعني به قرطاجة ، فنستمدها من نفس الكتاب الرومان والاغريق الذين قد لايتوفر في اخبارهم الحياد والموضوعية في ايفاء القرطاجيين حقهم من العرض والدراسة التاريخية . ولا يخفى على القارىء أن العداوة الطويلة الأمد والحروب الضارية التي اتخذت طابع الانتقام والافناء بين الشعبين المتحاربين لربما ساهمت إلى حد كبير في قسوة الكتاب المعاصرين لها في حكمهم على القرطاجيين . وقبل أن نتطرق إلى تفاصيل الحروب البونية الطويلة ، يجدر أن نكوّن فكرة عن الطرف الثاني في النزاع وهو دولة قرطاجة التي كانت تقع على الطرف المقابل من البحر الأبيض المتوسط على الشواطىء الافريقية

دولة قرطاجة :

لم تكن مدينة قرطاجة قوة جديدة تظهر في غربي البحر المتوسط مثل روما [١] بل كان وجودها حلقة من سلسلة التوسع الفينيقي في أرجاء البحر المتوسط الذي بدأت معالمه تتضح منذ أوائل الألف الأول ق . م [٢] فقد ظهرت في اوتيكا إلى الشمال الغربي من مدينة تونس الحالية مستعمرة تجارية فينيقية في أوائل القرن الحادي عشر ق . م . وتلتها مستعمرات هادروميتوم (سوسا) وليبسيس ماغنا وغيرها . وامتدت المستعمرات الفينيقية منذ القرن الثاني عشر ق . م حتى مدينة قادس في غربي شبه

---

(١) راجع الصفحات ٤٧ - ٤٨ ، ٥٠ - ٥١ ، ٦٢ - ٦٥ عن التوسع الفينيقي .

(٢) نقتصر في هذا المجال على استعراض الخطوط العامة لصراع قرطاجة مع روما . وسنكرس الجزء الثالث من سلسلة التاريخ القديم لمعالجة التوسع الفينيقي في البحر الابيض المتوسط وتاريخ الامبراطورية القرطاجية بالتفصيل .

جزيرة ايبريا .[١] وكان تأسيس مستعمرة قرطاجة (الى الشمال من تونس) عام ٨١٤ ق . م . – على يد اليسا [٢] أو (ديدون) حفيدة ايتو بعل وحفنة من ارستقراطي مدينة صور اثر اغتصاب شقيق زوجها بيغماليون الملك في تلك المدينة – مناسبة لاستقطاب المستعمرات الفينيقية في شمال افريقيا اعتباراً من منتصف القرن السابع والمحطات التجارية المتناثرة على شواطيء وجزر البحر المتوسط الغربية . واعتباراً من دخول المـــدن الفينيقية الأم في المشرق تحت السيطرة الآشورية ومن ثم الفارسية ، يبرز دور قرطاجة في المغرب بالنظر إلى المركز الستراتيجي الهام الذي تتمتع به ، وإلى سلامـة انظمة الحكم السائدة فيها والتي مدحها الخبير السياسي الاغريقي اريسطو بسبب استقرارها وازدهار اقتصادها . اذ كانت الأنظمة الدستورية في مدينة قرطاجـة تهيء للمواطنين حرية التعبير عن أرائهم . أمـا الحكم الذي كان جمهوريا في طابعه ارستقراطياً في نزعاته ، فكان

---

(١) يذكر الجغرافي سترابون بأن الفينيقيين اسسوا مستعمرات وراء اعمدة هرقل (جبل طارق) بعد الحرب الطروادية بقليل . وهذا يؤكده المؤرخ الروماني باتركولوس في كتابه المؤلف في ٣٠ م . على كل يعتبر حجر نورا الى الآن ، الذي عثر عليه في ساردينيا والعائد الى القرن التاسع ق.م بحسب رأي العالم اولبرايت أقدم أثر فينيقي مؤرخ في منطقة البحر المتوسط .

راجع :

W. F. Albright, Bulletin. Am. sch. of Orient. Res. 1947,S. 16ff .

(٢) تذكر الاسطورة ان بناء قرطاجة قدتم منذ اواخر القرن الثالث عشر وهنالك احتمالان آخران لتأسيسها يرجحها المؤرخون وهما عام ٨٢٥ وعام ٨١٤ ق.م . ويقال بأن اليسا سافرت مع حاشيتها الى جزيرة قبرص أولاً حيث انضم اليها كاهن جونو وأسرته . واخذت معها حوالي ثمانين عذراء متجهة نحو قرطاجه . وهناك بادلت على سلع معها لتحصل على قطعة من الارض لايتجاوز حجمها حجم جلد ثور لبناء مدينة عليها . وتدفعها الحيلة لقطع الجلد إلى شرائط رفيعة سمحت للمستوطنين الفينيقيين الحصول على رقعة واسعة كانت نواة لمدينة قرطاجة .

مركزاً في يد قاضيين ينتخبان سنوياً يطلق عليها اسم «**شوفيط**»، ومجلس يتألف من ٣٠٠ عضو تتفرع عنه لجان مختارة. تتألف الأولى من ٣٠ عضواً، وتشكل الاخرى محكمة عليا تتألف من ١٠٤ اعضاء. وكانت الاراضي الزراعية المحيطة بقرطاجة ملكاً للعائلات الارستقراطية. وقد اختلف القرطاجيون عن الرومان باعطائهم شؤون التجارة قدراً كبيراً من الاهمية دون أن يهملوا الاعمال الزراعية. وتمكنت قرطاجة بواسطة هذه الفعالية التجارية النشيطة أن تسود في القرن الثالث ق. م على امبراطورية تجارية امتدت رقعتها فوق شمال افريقيا وجنوب اسبانيا وغربي صقيلية وجزر ساردينيا وكورسيكا والبالئار .... فكانت تبادل على مصنوعاتها في هذه الأسواق بمواد المعادن وغيرها من المواد الخام. ولم تقتصر تجارتها على المواد التي كانت تقوم هي بصناعتها، بل تعدتها إلى دور الوساطة في بيع وتصريف السلع التي كانت تستوردها من الشرق أو من المقاطعات الايتالية. وكما ذكرنا مقدماً [١] نتج عن اصطدام مصالح الفينيقيين في البحر المتوسط بمصالح التجار والمستعمرين الاغريقيين منافسات ومنازعات شغلت حقبة طويلة من الألف الأول، ولكنها لم تخل من تبادلات حضارية بين الطرفين. وما أن ينتهي دور الاغريق السياسي في ايتاليا حتى ترث روما مصالحهم في البحر المتوسط وبالتالي عداوتهم مع الفينيقيين فيه.

اختلفت طبيعة كيان الدولة القرطاجية عن الدولة الرومانية في نقاط جوهرية. فقد اعتمد القرطاجيون الى حد كبير على الجنود المأجورين في تشكيل الجيش القرطاجي فحصلوا عليهم من شعوب الليبيين

---

(١) راجع ص ٦٣ - ٦٥.

بقي القنصل ريغولوس مـــع نصف القوات الرومانية في إفريقيا أملاً في امكان فتح قرطاجة . وعندما يتقدم هـــذا إلى القرطاجيين بشروط قاسية لانهاء الحرب يجدهـا القرطاجيون مهينة لهم . ويقال بأنهم انتهزوا فرصة وجود جندي اغريقي مأجور اسمه كسانتيبوس ليعيدوا تنظيم قواتهم وينقضوا على الرومان بقيادة هذا الرجل الذي اتبع اساليب جديدة في مقارعة الرومان منها استخدام الفيلة في المعركة . ويتمكن كسانيتبوس من هزيمة الرومان ويقـع قائـدهم عام ٢٥٥ ق . م مـع عدد كبير من جنوده في الأسر . وتفاجيء الاسطول الذي ترسله روما لنجدة قواتها في افريقيا عاصفه تطيح به عند سواحل صقلية . وبذلك تتنفس قرطاجـة الصعداء وتعود إلى الهيمنة على البحر المتوسط .لذلك تعود المعارك من جديد إلى صقلية حيث يحاول القرطاجيون تعزيز مراكزهم في قاعدة ليليبايوم ، ويهاجم الرومان مدينة بالرمو ويستطيعون فتحها بعد مقاومة شديدة كما يكسبون بعض المدن الاخرى . وتودي كارثة جديده بالاسطول الروماني الذي يحاول غزو افريقيا مرة ثانية وتفشل محاولات الرومان في تحقيق نجاح على الأرض الافريقية . وتبقى المناوشات مستمرة بين كرّ و فرّ في ميدان صقلية حيث يحاول القائـد القرطاجي اسدروبال ابن القائـد هانو استعادة مدينة بالرمو ، ولكن خديعة الرومان لقواتـــه تؤدي إلى ظفر القنصل ميتيللوس بأسدروبال وأسر الكثير من جنوده وفيلتـه . وتفشل مساعي المفاوضات التي أملت قرطاجة اجواءها مع الرومان عندما ترسل إلى روما القائد الروماني الاسير ريغولوس [١] بغرض تبـادل الاسرى بين الطرفين . اذ لم يكن لدى روما الا أمل تصفية القواعد القرطاجية

(١) بذل ريغولوس جهده في روما لاقناع مواطنيه بضرورة مواصلة الحرب ضد قرطاجة ، وطلب منهم عدم افتدائه من الأسر . وعاد الى قرطاجة ليلقى مصيره فيها .

الذين ادخلوا تحت سيادة قرطاجة ، ومن شعوب شبه جزيرة ايتاليا وجزرها، ومن الغول ومن النوميديين الجزائريين ، والاغريق ... وغيرهم . بينما فرض الرومان الخدمة العسكرية على ابنائهم وعلى ابناء الشعوب الحليفة .
وكان القرطاجيون يستعيضون عن الخدمة بأخذ الضرائب الباهظة من الحبوب والمواد المعدنية الثمينة لسد نفقات الامبراطورية . أما القوة الرئيسية لقرطاجة فقد كان عمادها الاسطول البحري الذي تميز بسفن سريعة وبحارة مدربين . ويقدر عدد افراد الدولة القرطاجيه بحوالي ٣ ملايين نسمة ، فهم يقاربون عدد مواطني الدولة الرومانية في ايتاليا . أما علاقة قرطاجة بمستعمراتها فقد أمنتها عن طريق الدبلوماسية الى جانب اتباعها اساليب قاسية لابقاء تبعية هذه المناطق الى سيادتها .

٢ - الحرب البونية الأولى ٢٦٤ - ٢٤١ ق . م .

بنشوب أزمة مدينة ميسّانا تطوى اتفاقية التحالف التي عقدت بين القرطاجيين والرومان اثر حروب الأخيرين مع الملك بيرهوس ، ويصبح السلاح الحكم الوحيد بين العدوين اللدودين .
وبما أن المعارك التي دارت رحاها على أرض صقلية لم تعد على روما بنتائج حاسمة ، فانها تصمم على نقل المعركة الى أرض العدو بالذات .
ويرسل الرومان عام ٢٥٧ ق . م اسطولاً بقيادة القنصلين ريغولوس وفولسو قوامه ٣٣٠ سفينة في محاولة لنقل القوات الرومانية وانزالها على شواطىء افريقيا . ويتمكن هذا الاسطول من هزيمة الفينيقيين قرب شواطىء صقلية الجنوبية في معركة اكنوموس عام ٢٥٦ ق . م . وينفتح الطريق أمام الرومان نحو سواحل افريقيا الشمالية ، حيث يرسي اسطولهم قرب الطرف الشرقي من قرطاجة . فاستطاع الجيش الروماني اتلاف المزارع الخاصة بقرطاجة وأسر مزارعيها وكسب غنائم وفيرة . وقد

الاخيرة في جزيرة صقلية وهي ليليبايوم ودربانوم الحصينة . وبعد جهود طويلة فشلت محاولة الرومان اجبار المدينة الأولى على التسليم رغم الحصار البري والبحري الذي ضربوه عليها وكان الفضل في ذلك للسفن القرطاجية ، ولمساعدة قوات مدينة دربانوم التي كانت تضرب مؤخرة الرومان وخطوط تموينهم . ولما تأكد الرومان أن كل محاولة من هذا النوع مصيرها الفشل طالما أن دربانوم لاتزال تساند شقيقتها ليليبايوم في الدفاع ، يرسل القنصل اميليوس كلاديوس بولشر على رأس اسطول بحري لمفاجأة مدينة دربانوم من إحدى مرفأيها . وقد غرقت السفن الرومانية وتحطمت عند محاولتها تعقب سفن القائد القرطاجي في القناة المؤدية إلى المرفأ الثاني . ويقال بأن القنصل بولشر فقد اسطوله بعد أن ألقى بالدجاجات المقدسة إلى البحر بعد أن طالعته بفأل سيء . ولم ينجح الرومان بعد هذه الهزيمة الفادحة في زحزحة القائـــد القرطاجي هاميلكار باركاس عن موقعه في رأس اريكس . وكان الدمار مصير اسطولين رومانيين آخرين وأسر قائـــد احدهما وهو القنصل جونيوس . وبقيت السفن القرطاجية بقيادة هاميلكار تكيل للرومان في البحر وعلى السواحل ضربات سريعة مؤلمة وصل مداها حتى منطقة اللاتيوم . الا أن الحرب بقيت في مياه صقلية وفي برّها بين كرّ و فرّ . واستخدم هاميلكار حرب العصابات في قتاله للرومان .

كانت نهاية الحروب الطويلة عندما صمم الرومان على تجهيز اسطول يكون نداً للاسطول القرطاجي . وتولى القنصل لوتاتيوس قيادة السفن الجديدة التي تمكنت هذه المرة من احتلال دربانوم . واستطاع الايقاع بسفن الامدادات القرطاجية القادمـــة من افريقيا قرب جزر ايغاتس الواقعة على مقربة من ليليبايوم عام ٢٤١ . فأسر معظمها وحطم الباقي وخسرت قرطاجة اسطولها الكبير والجيش الذي يحمله ويقدر عدده بعشرة

آلاف جندي . وبذلك أصبحت مدينة ليلبايوم معزولة عاجزة عن الدفاع . فاستسلمت بعد حصار دام عشر سنوات ، وانسحب هاميلكار من موقع اريكس . أما قرطاجة فقد حصلت على السلام بعد أن أنهكتها نفقات الحروب البونية الطويلة مقابل تنازلها عن ممتلكاتها في جزيرة صقيلية ، ودفع ٣٢٠٠ تالنت خلال مدة قدرها عشر سنوات . وأن تترك روما الملك هيرون في مدينة سيراكوزه ، في حين تشرف بنفسها على ادارة القسم الشرقي المتبقي من الجزيرة . وتم اعلان صقيلية المقاطعة الرومانية الأولى والتي تم تشكيلها رسمياً عام ٢٢٧ ق . م .

تنتهز روما فرصة تقلص سلطان قرطاجة عن البحر التيراني وانشغال الأخيرة بثورة جنودها المأجورين لتسرع عام ٢٣٨ ق . م باحتلال جزيرة ساردينيا الغنية بالفلزات المعدنية . وتشكل فيما بعد مع كورسيكا مقاطعة جديدة عام ٢٢٧ ق . م . وبذلك يسدل الستار موقتاً على مرحلة دامية من مراحل الحروب البونية الأولى .

يحاول كل من الطرفين المتحاربين خلال الهدنة التي عقدت استعادة قواته وحشد امكانياته لتسديد ضربات أقوى إلى غريمه . وقد اثبتت المعارك البحرية والبرية التي دارت حول صقيلية ضراوة الطرفين واستبسال القرطاجيين في الدفاع رغم ابتعاد مراكز تموينهم وامداداتهم البحرية والبرية ، في حين كانت مراكز الرومان قريبة خاصة في سيراكوزه . أما بالنسبة لقرطاجة فقد استنفذت الحرب كل مواردها المادية خاصة وأنها كانت مضطرة لدفع أجور ومكافآت آلاف الجنود المرتزقة الذين ألقتهم في الحرب ، وجاؤا الآن يطالبون بما استحق لهم .

لم تكد قرطاجة تنتهي من الحروب البونية الاولى حتى وجدت نفسها مهددة بثورة خطيرة تشتعل في أراضيها على يد الجنود المرتزقين أنفسهم

الذين أعلنوا العصيان وارتكبوا أعمالاً وحشية ضد الامرى القرطاجيين .
فلم يجد هاميلكار الذي عقدت عليه قرطاجة آمالها لانقاذها من هـــذه المحنة ، إلا أن يقابل أعمال العصاة الذين أحاطوا بقرطاجة يحاصرونها ، ببطش مماثل فحاصرهم وقطع عنهم مصادر تموينهم . ويقال أنه أفنى معظم قواتهم البالغة ٤٠ ألف جندي في معركة جرت قرب الشاطىء استخدم فيها الفيلة ، وصلب زعماءهم . وعلى الرغم من انتصار قرطاجة على العصاة واخمادها ثورتهم فقد ساهمت هذه الأزمة بدورها في زعزعـــة قوى قرطاجة وانهاكها .

أما روما فانها تنشغل في الفترة الواقعة بين ٢٢٩ – ٢١٩ بعمليـة اخضاع القراصنة المتوضعين على الشواطىء الادرياتيكية والتابعين للملكة توتا الألليرية ، والذين كانوا يغيرون على مدن ايتاليا الجنوبية وعلى مدن شواطىء اليونان الغربية . وانتهت الحملة البحرية بتنازل توتا عن الملك وبتحالف المدن الاغريقية مع روما في نفس الفترة تتحرك جموع كبيرة من الكلتيين منطلقة من سهل البو نحو منطقة اترورية ويضطر الرومان بالمثـــل إلى إيقاف هذا الزحف الذي يذكرهم بأهوال غزوات الغـاليين الأولى وهزيمة عام ٣٨٧ عند آليا . ويتمكنوا من الاحاطة بهم عنـد موقع تيلامون وذبح عدد كبير منهم عام ٢٢٥ . ثم ينتصر القائد مارسللوس في معركة كلاستيديوم على أحـــد الزعماء الغاليين ويصرعه في مبـارزة فردية . وتستثمر روما الظفر الذي حصلت عليه بأن تتبع سياسة زرع المستعمرات المحصنة في الشمال لاتقاء خطر غزوات أخرى في المستقبل ، ولتوسيع رقعة الدولة الرومانية في شمال ايتاليا .

٣ – الحروب البونية الثانية ٢١٨ – ٢٠١ ق.م :

كانت ثورة الجنود المرتزقين على قرطاجة مناسبة للقائد هاميلكار باركاس

وللحزب العسكري الذي يتزعمه لكي يوطد نفوذه ويكسب أنصاراً إلى سياسة الثأر من روما . وقد رأت الفعالية القرطاجية نفسها بعد ضياع ممتلكاتها في صقلية وساردينيا وكورسيكا مضطرة للتعبير عن طاقاتها في مجالات جديدة ومناطق لا تزال بكراً ولا يوجد فيها منافسون أقوياء مثل روما ، خاصة وأن قرطاجة كانت ملزمة بدفع غرامة الحرب الباهظة . فاتجه هاميلكار مع صهره اسدروبال لتوسيع ممتلكات قرطاجة عبر شواطىء شمال افريقيا الغربية وخاصة في شبه الجزيرة الايبيرية[1] ، حيث كان للفينيقيين بعض المحطات التجارية منذ مطلع الألف الأول نذكر منها مستعمرة قادس المشرفة على مضائق جبل طارق . وفي الواقع كانت اسبانيا أرضاً غنية حافلة بالثروات الطبيعية مثل الفضة والنحاس والحديد والسمك ، اتخذ التوسع القرطاجي فيها صفة اخضاع القبائل الايبيرية التي تهدد المدن الفينيقية هناك . إلا أن هاميلكار يدفع حياته ثمناً لرغبة التوغل نحو الشمال ويغرق في النهر بعد اصابته بسهم أثناء المعركة التي نشبت عام ٢٢٩ . ويخلفه صهره اسدروبال الذي يتابع تنفيذ خطط سلفه ، فيقوم بتأسيس مدينة قرطاجة الجديدة (Carthagena) التي ستصبح مركزاً للنفوذ القرطاجي في اسبانيا .

ومن الطبيعي أن تثير مكاسب قرطاجة في اسبانيا مخاوف الرومان وظنونهم بعد أن عبر الاغريقيون سكان مستعمرة ماسيليا إلى حلفائهم

---

(١) يذكر أن هاميلكار لم يحصل على موافقة الحكومة القرطاجية على حملته التوسعية في اسبانيا ولكن العائدات التي حصلت عليها قرطاجة من مناجم الفضة في اسبانيا والبالغة ٢٠٠٠ - ٣٠٠٠ تالنت سنوياً دفعت قرطاجة للموافقة على اعمال اسرة باركاس وتأييدها فيما بعد .

الرومان عن قلقهم من التوسع القرطاجي في شبه جزيرة ايبريا[١] . فيرسل الرومان عام ٢٢٦ وفداً إلى اسبانيا يتفق مع اسدروبال على معاهدة تنص على منع الاخير من اجتياز نهر الابرو ، وتترك له حرية التصرف في جنوب اسبانيا . ولعل تسامح الرومان هذه المرة وغضهم النظر عن استعـــادة قرطاجة لقواها مرده خطر الغزوات الغاليـة التى تهدد شمـال ايتاليا . ويعقد الرومان محالفة مع سكان مرفأ ساغونتوم الاسباني استجابة لطلب الحماية الذي أرسله هؤلاء إلى مجلس الشيوخ الروماني .

الأسباب المباشرة للحروب البونية الثانية :

بعد اغتيال اسدروبال عام ٢٢١ ق . م يتفق القرطاجيون على تعيين هانيبال ابن القائد هاميلكار خليفة له وقائداً على اسبانيا وهو لم يبلغ بعد السادسة والعشرين من عمره . وسرعان ما نشبت الحرب بعد ذلك بين مدينة ساغونتوم الحليفة لروما وبعض القبائل الاسبانية الحليفة لقرطاجة . فاتخذ هانيبال ذلك ذريعة لحصار مدينة ساغونتوم الغنية . وتوفد رومـا مبعوثيها عام ٢١٩ ليذكروا هانيبال بـأن ساغونتوم داخلة تحت الحمـاية الرومانية، إلا أن هانيبال يتجاهل تحذيراتهم ويحيلهم للمفاوضة مع قرطاجة. وينتهز فرصة تأيد مجلس الشيوخ القرطاجي له لكي يفتتح المدينـة عنوة بعد حصار دام ثمانية أشهر . ويشعر الرومان أن خطر قرطاجـة يلوح في الافق من جديد فيطلبوا من عدوتهم تسليمهم القائد هانيبال ومساعديه ثمناً لتجنب الحرب مع روما . وقـام أنصار هانيبال وهم الاكثرية[١]

---

(١) راجع ص ١٠٠ ملاحظة ٢ حول مساهمة سكان ماسيليا في دفع الغرامة الحربية التي فرضها الغاليون على مدينة روما عام ٣٨٧ ق . م .

(١) كان الجناح المحافظ في الحكومة القرطاجية يغار من القوة والنفوذ التي حصل عليها اعضاء اسرة باركاس . وقد ارغمته الظروف على تأييد اعمال هانيبال في اسبانيا.

بتقديم الدعم لقائدهم وتحملوا مسؤولية احتلال مدينة ساغونتوم ، خاصة وقد وصلتهم الأسلاب الثمينة ، وكان جواب الوفد الروماني المتوقع هو اعلان الحرب على قرطاجة .

كانت الضربة التي تلقتها قرطاجة في الحرب البونية الأولى تتلخص في فقدان مستعمراتها في شمالي البحر المتوسط وتهديم اسطولها البحري الذي كان يؤمن لها السيادة في هذا البحر . وقد أخطأت قرطاجة إذ لم ترافق عمليات التوسع البرية في اسبانيا عملية اعادة انشاء قوتها البحرية. أما روما فقد اعتمدت على القوات التي عزمت نقلها بالبحر بقيادة القنصل كورنيليوس سيبيو إلى ميدان المعركة الجديد في اسبانيا . وكان هانيبال يقدر مقدماً نوايا روما ويعد العدة لضرب عدوته بطريقة عبقرية لربما أملاها عليه فقدان الاسطول اللازم . إذ كانت خطتـــه تتلخص في ضرورة ضرب الرومان في قواعدهم الأصلية والاستفادة من نقمة الشعوب الايتالية والجبلية التي أخضعتها روما بالقوة ، لتحريضها على الثورة وتأيـد الحملة القرطاجية التي ستتخذ صفة المحرر بالنسبة لهذه الشعوب ، وبالتالي يتم لهانيبال فرط التحالف الروماني . لذلك يختار طريق البر ليقود الحملة الكبيرة التي أعدها ، والتي جند فيها كل العناصر الافريقية والنوميدية والاسبانية . واعتمد على المال في اجتلاب المحاربين من بين قبائل الغاليين أما القوة التي سار هانيبال على رأسها عام ٢١٨ نحو ايتاليا فتقدر بحوالي أربعين ألف جندي بين فرسان ومشاة . يضاف إليهم عدد لا بأس به من الفيلة . وقد انطلق من مدينة قرطاجة الجديدة مجتازاً جبال البيرنه بسرعة أذهلت الرومـان وأفقدتهم عنصر المباذهة . وعندما يصل القائد الروماني سيبيو إلى مدينة ماسيليا لكي يقف في طريق هانيبال ويجبره على خوض المعركة هناك ، يكـون هانيبال قد سبقه في اجتياز نهر الرون وتابـع طريقه نحو جبـال

الألب . ويعمد سيبيو لارسال أخيه غناوس مع معظم الاسطول الى اسبانيا، ويعود هو إلى ايتاليا ليلاقي هانيبال هناك . واستطاع هانيبال بجرأة نادرة أن يتحمل كل مصاعب الطريق الطويل وأن يجتاز مع قواته جبال الألب وأن يهبط منها إلى سهول شمال ايتاليا في خريف العام نفسه . ومن البديهي أن ينقص عدد قواته إثر هذه المسيرة الشاقة . إلى عشرين ألف محارب وستة آلاف فارس . إلا إنه وجد بديلاً عمّا فقده من الجنود في القبائل الثائرة على روما

وبعد استراحة قصيرة يبادر هانيبال لملاقاة القائد الروماني سيبيو عند نهر تيسينوس أحد فروع نهر البو ويدحره . واستطاع هانيبال بعد ذلك عبور نهر البو . وترسل مدينة روما القنصل سمبرونيوس لايقاف تقدم العدو مع زميله سيبيو بعد أن سقطت مدينة كلاستيديوم بيد هانيبال . ويلتقي الاثنان به في معركة نشبت عام ٢١٨ عند نهر تريبيا ويكون مصيرهما الهزيمة الساحقة .

قضى هانيبال الشتاء في شمال ايتاليا وقام في ربيع العام نفسه بالسير نحو أواسط ايتاليا تؤيده قوات من المتطوعين الغاليين . وأرسلت روما قنصلا السنة الجديدة فلامينيوس وسرفيلوس لايقافه ، إذ أصاب الرومان الهلع من الانتصارات المتلاحقة التي حققها هانيبال . وخيل لفلامينيوس أنـــه سيضع نهاية لحملة هانيبال وأنه سيأخذه وقواته أسيراً إلى روما ، ولكن القرطاجي المحنك ما يلبث أن يخدعه عند ترازيمين عام ٢١٧ ويحصره في الممرات ثم يجهز عليه ويأسر من جيشه خمسة عشر ألف جندي . وأتبع هانيبال هذا الظفر المؤكد بنصر آخر على القنصل سرفيلوس ، حيث تمكن الفرسان القرطاجيون بقيادة ماهربال من تقطيع أوصال قواته . وفي الحقيقة أظهر هانيبال إلى جانب الحنكة العسكرية كفاءة سياسية منقطعة النظير .

فكان بتسريحه للجنود الايتاليين من أسرى القوات الرومانية ، يدق اسفيناً في التحالف القائم بين روما وحلفائها . وينقل الجنود المحررون إلى مواطنيهم في المدن الايتالية أخبار هذه المعاملة النادرة ، وبأن هانيبال قدم إلى ايتاليا ليحررهم من نير روما .

رأى الرومان الخطر القرطاجي يقترب اليهم في عاصمتهم هذه المرة ، فهبوا لجمع كل قواتهم وركزوا السلطات في يد الديكتاتور فابيوس ماكسيموس . وقد اتبع هذا خطة جديدة في حربه لهانيبال تقضي بملاحقة العدو وتتبعه دون الالتحام معه في معركة نظراً لتفوق الفرسان القرطاجيين ومهارة هانيبال . وقد تجنب هانيبال الاتجاه إلى روما مباشرة، بل نراه يتحرك نحو الشرق نحو البحر الادرياتيكي ، ثم إلى الجنوب آملاً قيام ثورة عامة في ايتاليا وخاصة بين اغريق المدن الايتالية الجنوبية ، ورغبة منه في عزل روما عن حلفائها كلية . ولا يستبعد أنه كان يقدر عجز قواته بوضعها الراهن وبدون وصول امدادات جديدة من قرطاجة وآلات حصار عن حصار مدينة روما واحتلالها . ولا يتبع القناصل باولوس وفارون خطة سلفهم فابيوس في تجنب الالتحام مع العدو في معركة فاصلة وذلك رغبة منهم في حماية أراضي حلفاء روما . وقد توفر لهم جيش يتألف من ٨٦ – ٥٠ ألف روماني وايتالي ، وتبعوا جيوش هانيبال إلى سهل ابوليا . كان هذا العمل بالفعل من تخطيط هانيبال . إذ كان يحدد مكان المعركة مقدماً ويلزم الخصم على خوضها في الوقت الذي يختاره هو. وفي الحقيقة كانت أراضي ابوليا السهلية عنصراً هاماً في استراتيجيته فهي تؤمن لقواته الأغذية والمؤن وتساعد الفرسان القرطاجيين على ايقاع خسائر فادحة في العدو . ويندفع القنصل فارون في صيف عام ٢١٦ لمهاجمة قوات القرطاجيين عند موقع **كان** Cannae . فجرت معركة دموية لم

يعرف الرومان مثيلاً لها طوقت فيها قواتهم وابيدت وفتك الفرسان القرطاجيون بفلولهم . وظهرت عبقرية هانيبـال الحربية على أروعها إذ استطاع بقواته القليلة أن يكبد الرومان أكبر هزيمة لحقت بهم ، وكان من ضحاياهـا القناصل بولوس ، وسرفيليوس وريغولوس وغيرهم من كبار قادة روما .
واعتمد هانيبال في خطته على معرفته بأساليب الرومان في الهجوم المباشر ، فوضع في وسط المشاة قوات الغاليين والاسبان ودفعهم الى الامـام ، وركز المشاة الليبيين في الجناحين . وعندما اندفع الرومـان في الهجوم كان البحر خلفهم والشمس في أعينهم ، فتراجعت قواة المشاة القرطاجية في الوسط وتبعها الرومان . وأصبح خط الجبهة القرطاجية أشبه بالهلال احتشد في وسطه الجيش الروماني ، واندفعت الخيالة القرطاجية خلف الرومان بعد أن سحقت فرسانهم في الجناحين . وبذلك أحكم هانيبال الطوق على قوات عدوه ،وأمعن فيها فتكاً . وعندما تهزم فرقة رومانية أخرى في نفس العام في جنوب الألب ، يتحقق الحلم الذي ركز هانيبال سياسته عليه ، وذلك عندما يحدث الصدع في ولاء الشعوب الحليفة لرومـا . فتفتح مدينة كابوا أبوابها لهانيبـال ، الذي يقضي مع جنوده الشتاء فيها ، وتنفصل هذه المدينة مع السامنتيين واللوكيانيين والبروتيين في جنوب ايتاليـا عن روما . وتأمل كابوا أن تصبح زعيمة الاتحاد الايتالي بدلاً من روما .
وعلى الرغم من وصول وفد من قبل فليب الخامس ملك ماكدونيا لعقد التحالف مع هانيبال ، ووفاة هيرون ملك سيراكوزه ، وانحياز حفيـده هيرونيموس إلى جانب قرطاجة ، نرى الرومان الذين أعلنوا الحداد على ضحايا معركة كان لا يزالون يحتفظون برباطة جأشهم . ويرفضون الشروط التي يعرضها هانيبال . وعلى العكس يجمعوا كل قوة يمكنهم تجنيدها للدفاع عن روما ، ويتبرعوا بأموالهم وكنوز معابدهم لتمويل القوة التي تم لهم

جمعها ، ويعهدوا بقيادتها عام ٢١٣ إلى القائد كلوديوس مارسللوس . ذلك ان أواسط ايتاليا ، والحلفاء اللاتين وبعض المدن الاغريقية في الجنوب بقيت على ولائها لروما . كذلك ما زال الرومان السيطرة على البحر المتوسط ، وقواتهم ناشطة في الدفاع في اسبانيا وصقيلية وساردينيا . إلا أن الخطر أصبح يكمن في سعي هانيبال لتأليب مدن الجنوب الايتالي ضد روما وتأليف دولة منها ، بعد أن تم له فتح كثير من مدنها مثل كروتون وتارنت[1] وهيراكلية ولوكرس وتوري .

خطة الرومان لاستلام المبادهة من جديد :

كانت أهداف القائد مارسللوس الأولى فتح مدينة **سيراكوزه** ، قلعة جزيرة صقيلة الحصينة ومفتاحها ، لكي يمنع هانيبال عن التمركز من جديد في الجزيرة[2] . فألقى الحصار الشديد عليها ثلاث سنوات حتى تم له فتحها عنوة عام ٢١٣ نتيجة خيانة داخلية . وسقطت المدينة ونهبت ودمرت رغم كل وسائل الدفاع التي اخترعها الفيزيائي الاغريقي ارخميدس ، ورغم جهود القرطاجيين الحثيثة لامدادها بالمؤن عن طريق البحر . وتلتها اغريجنت وبقية مدن صقيلية في السقوط بيد الرومان .

وفي السنة التالية تمكن الرومان من القاء الحصار على مدينة **كابوا** أيضاً أثر انسحاب القائد هانون إلى منطقة البروتيوم . فلم يكن مصيرها بأحسن من مصير سيراكوزه . واضطرت كابوا للتسليم بعد أن نفذت مؤنها ، ولم تفد أهلها محاولة هانيبال الزحف بشكل فجائي على مدينة روما نفسها ، والوصول إلى مشارف العاصمة المحصنة املاً في ارغام

(١) فتحت تارنت ابوابها امام هانيبال الذى عفى عن اهلها واكتفى بنهب دور الرومان واصدقائهم . وقد انسحبت الحامية الرومانية الى قلعة المدينة واعتصمت بها .

(٢) راجع دور مدينة سيراكوزة الهام في الحروب البونية الأولى .

العدو وتعطيل قواته ومنعها من تقديم المساعدة إلى هانيبال في ايتاليا .
وفي العام ٢١٢ ترسل روما القائد بوبليوس كورنيليوس سيبيو مع امدادات لينضم إلى أخيه في اسبانيا . فتمكن الأثنان من اشغال هاسدروبال ويتقدموا مجتازين نهر الابرو ويحرضوا الملك النوميدي سيفاكس على الثورة على قرطاجة ، الأمر الذي يتطلب من قرطاجة استدعاء هاسدروبال فينتهز الرومان الفرصة لاحتلال مدينة ساغونتوم . ولكن عودة هاسدروبال مع قوات قرطاجية جديدة تؤدي إلى نشوب معارك جديدة يتمكن فيها القرطاجيون من هزيمة الجيشين الرومانيين ويسقط الأخوان سيبيو صرعى خلالها .

تصاب روما بالهلع نتيجة اخفاق قواتها في اسبانيا . ويرى مجلس الشيوخ ضرورة ايفاد قائد شجاع يستطيع ايقاف الهزائم الرومانية هناك . ويقع اختياره على ابن القائد القتيل بوبليوس كورنيليوس سيبيو الذي يحمل نفس اسم والده[١] ، ولما يكن له من العمر أكثر من ٢٥ عاماً . ويقوم سيبيو بمناورة جريئة عام ٢٠٩ توصله إلى وراء الخطوط القرطاجية وتمكنه من احتلال مدينة قرطاجة الجديدة مركز القرطاجيين الرئيسي في اسبانيا[٢] .
إلا أنه يخفق في ايقاف مسير هاسدروبال على رأس امدادات كبيرة متجهاً نحو ايتاليا لمساعدة شقيقه هانيبال . وبعد أن يعبر هاسدروبال جبال البيرنه عام ٢٠٧ ، ينحدر إلى سهل البو لينضم إلى شقيقه الذي كان يتحرق على وصول المساعدات اليه ، على الرغم من أن هانيبال استطاع في المعارك الدائرة في جنوب ايتاليا احراز بعض الانتصارات رغم ضياع مدينة **تارنت**

---

(١) سيطلق عليه بعد الانتصار على قرطاجة اسم سيبيو (الافريقي)
(٢) يتبع سيبيو مع الاسبانيين نفس سياسة هانيبال مع حلفاء روما . اذ يحرر رهائن الاسبان ويتودد اليهم لينقلبوا على قرطاجة .

الرومان على فك الحصار عن حليفتة **كابوا** . وقد دخل الرومان إلى هذه المدينة عام ٢١١ بعد تراجـــع هانيبال عن روما وارتداده الى منطقة البروتيوم ، فاستباحوها وقتلوا أهلهـا وباعـوا أعضـاء مجلس الشيوخ فيها عبيداً وانتقموا منهم شر انتقام . وبذلك فقدت المدينة استقلالها وأرضها . وبالفعل كانت هزائم حلفاء هانيبال في سيراكوزه وكابوا وعجز هانيبـال نفسه عن اخضاع الرومان المعتصمين في قلعة مـدينة تارنت نذيراً بتغير ميزان القوى لصالح روما . هــذا التغير المحسوس لم يحدث صدفة بل ساهم فيه امتناع الحزب المعارض لهـانيبال في قرطاجة ارسال الامدادات العسكرية التي كان قائد الحملة بامس الحاجة لها . ولم تفده القوة الصغيرة التي نجح انصاره من الحزب العسكري في أرسالها تجاه القوات الهائلة التي تمكنت روما من حشدها . فقـد اصبح لديها في العام ٢١٢ ق . م . حوالي ٢٠٠ ألف جندي و ٧٠ الف بحـار ، وهـذا يعادل تقريباً عشرة بالمئة من السكان القادرين على الخدمة العسكرية . كان على رأسهم خمسة عشر حاكماً وقنصلا سابقاً يتمتعون بسلطات الأمبريوم .

الحروب في اسبانيا :

قبل أن يغادر هانيبال مدينة قرطاجة عين شقيقه هاسدروبال قائـــداً على القوات القرطاجية في اسبانيا. وقد رأينا أن توسع القرطاجيين في شبه الجزيرة الايبرية كان السبب المباشر في اشتعال الحرب البونية الثانية . وعلى الرغم من أن هانيبال نقل الحرب الى الأرض الايتالية فإن الرومان لم يتوقفوا عن خطتهم في ضرورة انتزاع اسبانيا الغنية من يد القرطاجيين . واضطر القائد سيبيو ارسال شقيقه غناوس سيبيو عـام ٢١٨ إلى اسبانيا مع القوات الرومانية بدلاً من أن يذهب بنفسه لفتح اسبانيا . وكانت خطة الرومان في الحرب الاسبانيـة التمركز شمـال نهر الابرو واشغال

منه . إذ يلتقي مع الرومان في موقعتين يذهب ضحيتها القناصل فولفيوس عام ٢١٠ ومارسللوس عام ٢٠٨ .

ويدرك الرومان الآن خطر وصول الامدادات التي قدم بها هاسدروبال فيرسلوا قوتين : الواحدة للوقوف في وجه هانيبال المتمركز في جبال البروتيوم ، والاخرى بقيادة القنصل ليفيوس لتدمير حملة هاسدروبال ، حيث يلتقي الاخير به عام ٢٠٧ في معركة فاصلة عند نهر **ميتاوروس** وينجح مع زميلة القنصل نيرو في الفتك بجيشه وتكبيده خسائر فادحة .

أما هاسدروبال فيسقط في المعركة قتيلًا ويجز رأسه . ويفقد هانيبال الأمل في تلقي النجدات عندما يلقي أحد الفرسان الرومان برأس أخيه القتيل في معسكره . ويذكر بأن القائد القرطاجي ماغون شقيق هانيبال الأصغر يتمكن من انزال نجدة جديدة على أرض ليجوريا ولكنه لا ينجح في الاتصال بأخيه . ويستدعى إلى قرطاجة عام ٢٠٣ .

في هذه الأثناء يتمكن القائد الروماني سيبيو من اتمام تطهير شبه جزيرة ايبيريا من القرطاجيين ، بعد أن اكتسب إلى جانبه أبناءها الاسبانيين وحرضهم ضد سادتهم السابقين . كما يعقد معاهدة سرية مع ماسينيسا ملك شرقي نوميديا وحليف القرطاجيين السابق . ثم يعود سيبيو إلى مدينة روما لينتخب لمنصب القنصل رغم أنه لم يبلغ السن القانوني بعد . فيشرف هناك على عمليات نقل الحرب ضد قرطاجة إلى أراضيها في افريقيا .

الحرب في شمال افريقيا

يفلح القائد سيبيو عام ٢٠٤ في النزول مع قواته على الشاطىء الأفريقي ، ويستطيع بمساعدة حليفه الملك ماسينيسا أن يهزم القرطاجيين وحليفهم الملك سيفاكس ، وأن ينصب حليفه بدلاً من سيفاكس .

ازاء هذا الخطر الداهم تجد قرطاجة نفسها من جديد مرغمة

على طلب عقد الصلح ، الذي يوافق عليه سيبيو بدوره شريطة أن تطلب قرطاجة من هانيبال الانسحاب بقواته من ايتاليا والعودة إلى افريقيا . وبالفعل يتم استدعاء هانيبال الذي يغادر أرض ايتاليـــا عام ٢٠٣ وهي الأرض التي لم يقهر عليها مرة .

يلوح أن عودة هانيبال إلى قرطاجة بثت لدى أبناء المدينـة شعوراً بالثقة والقوة جعلهم يتجاهلون شروط معاهدة الصلح التي وافق سيبيو على عقدها معهم عام ٢٠٣ . وما يلبث القرطاجيون أن يبدأوا في الاستعداد للحرب وتهيئة المدينة للحصار عند **زاما** Zama الواقعة إلى الجنوب الغربي من قرطاجة . وقد اتخذ هانيبال كل الترتيبات الممكنـة التي تضمن له النصر واعتمد كعادته على عنصر المفاجأة والجرأة والفرسان . إلا أن الحظ الذي وقف إلى جانبه مدة خمسة عشر عاماً في ايتاليا ، يميل لمفارقته هذه المرة . وكما كانت فرق الفرسان العنصر الرئيسي في انتصاراته كان لهذا العنصر أن يقرر نتيجة الصراع الدائر . فقد خان الجنود المرتزقـة جيوش القرطاجيين ، وعاد فرسان الملك ماسينيسا من ملاحقة فيلة القرطاجيين وألقوا بقواهم في المعركة إلى جانب الرومان منقضين على مؤخرة القرطاجيين ، فتم للقائد سيبيو بذلك النصر وخسرت قرطاجة الحرب وكانت خسائرها فادحـة .

بنتيجة ذلك يتجه هانيبال الذي التجأ إلى حادرومت إلى قومه ينصحهم بقبول شروط الصلح القاسية التي تم عقدها عام ٢٠١ . وبموجبهـا سلمت قرطاجة إلى روما كل فيلتها وجميع سفنها الحربية ما عدا عشرة سفن ، وتنازلت عن اسبانيا وجزر البحر المتوسط ، ووعدت بدفع عشرة آلاف تالنت[١] خلال خمسين سنة وتسليم رهائن من أهلهـــا ، واعادة الاسرى

(١) تبلغ قيمة الغرامة الحربية حوالي ٤٨ مليون ليرة سورية

والهاربين من الجيش الروماني . كما تعهدت قرطاجة بعدم القيام بأي حرب خارج افريقيا وأن لا تقوم بالحرب في افريقيا إلا بعد استئذان روما . مقابل ذلك تركت المعاهدة للقرطاجيين استقلالهم وأراضيهم وقوانينهم . بهذه الخاتمة المؤسفة للقرطاجيين ، السعيدة بالنسبة للرومان يعود سيبيو الأفريقي إلى روما ليحتفل بظفره هناك مصطحباً معه غنائمه الكبيرة من الفضة والأسلاب ، بعد حروب دامت ستة عشر عاماً .

خصائص الحروب البونية الثانية ونتائجها :

انتهت الحروب البونية الثانية بالنسبة الى سكان شبه جزيرة ايتاليا بعد جلاء هانيبال وجيوشه عنها عام ٢٠٣ ق.م وقد دمر هانيبال قبل انسحابه كثيراً من مدن الجنوب الايتالي التي انفضت عنه ، مختتما بذلك سلسلة اعمال **الاتلاف والافناء** التي كان قد بدأ بتطبيقها منذ وطأت جيوشه ارض شبه الجزيرة الايتالية . وفي الحقيقة تركت الحروب البونية آثار عميقة لاتمحى في الريف والمدن الايتالية . فقد اجدبت الاراضي والمزارع التي احرقها القرطاجيون أو اهملها أهلها بسبب اشتراكهم في الحرب ضد هانيبال . وكانت الحرب التي استمرت سبعة عشر عاماً عبئاً قاسياً على روما انضبت مواردها واستنفذت ثرواتها المالية . ولا عجب ان ظهرت المجاعات فيها ، وان اضطر الرومان لرصد كل ثرواتهم لتسليح الجيوش الجرارة التي كثيراً ما ابتلعتها المعارك الطاحنة منذ اللقاء الأول عند نهر تيسينوس حتى معركة كان . ففي السنة ٢١٠ ق.م . ترفض ١٢ مستعمرة لاتينية تقديم أنصبتها من الجنود معتذرة بفناء الرجال في مناطقها . هذا من الناحيه المادية ، اما من الناحية السياسية فقد كانت الحروب البونية هزة قوية عصفت بالوحدة الايتالية التي جهدت روما عشرات السنين حتى فرضتها على شعوب ايتاليا المختلفة . إذ ان هذه الشعوب ماعدا شعوب

ايتاليا الوسطى مالبثت أن انتهزت وجود قوة مناهضة لروما على الارض الايتالية لتسارع الى الانضمام اليها لتتخلص من نير روما . وكان الغاليون والسامنتيون أول المنشقين على الوحدة الايتالية. ولم يقتصر دورهم على عصيان روما بل ساهموا بجنودهم ومواردهم في دعم هانيبال واطالة امد اقامة قواته على الارض الايتالية، حتى ان جانباً من الايتاليين من حلفاء هانيبال فضل البقاء الى جانب قائدهم والعودة معه الى قرطاجة على ملاقاة ما ينتظرهم من انتقام روما . أما حلفاء هانيبال في ايتاليا فقد الزموا على التنازل عن اراضيهم أو حرموا من الاستقلال الداخلي الذي كانوا يتمتعون به سابقاً . وتلجأ روما الى تأسيس مستعمرات عديدة لها في مناطق جنوب ايتاليا وشمالها (سهل البو) التي كشفت التجربة القاسية عن تزعزع ولائها لروما . ولعل المصير الذي لاقته مدينة كابوا وغيرها كان عبرة لجميع المدن الايتالية . وعلى الرغم من الخسائر البشرية التي حلت بروما يمكن القول ان انتصارها في **معركة زاما** كان انتصاراً للوحدة الايتالية وتثبيتاً لسيادة روما في ايتاليا نفسها وفي صقلية خاصة ثم في البحر الابيض المتوسط عامة . وقد ساعدت الغنائم الوفيرة التي ربحتها وخاصة وضعها يدها على مناجم القرطاجيين في اسبانيا [١] في تعويض الخسائر الكبيرة التي تكبدتها . وتتجلى مهارة روما في دفع الاخطار المحدقة بها باستخدام السياسة من جهة والتهديد من جهة اخرى . إذ أنها استطاعت بين الاعوام ٢١٥ – ٢٠٥ أن تدرأ عن نفسها نتائج تحالف الملك فيليب الخامس المكدوني مع هانيبال بارسال قوات قليلة لخوض

---

(١) قسمت اسبانيا الى مقاطعتين: ساحلية في وادي نهر الابرو، وداخلية في الجنوب حول جبل طارق ونهر وادي الكبير . وقد توجب على روما خوض حروب مستمرة لاخضاع اقوام اللوزيتانيين فيها .

الحرب المكدونية الأولى تمنع الملك فيليب الخامس المتردد من مساعدة حليفه . وبالوقت نفسه تشكل حلفاً اغريقياً تحت زعامة الايتوليين (معاهدة ناوباكتوس) يضم التراكيين والايلليريين واهالي برغامون ويكتلهم ضد الملك فيليب الخامس . وبهذه الصورة حرمت هانيبال من حليف قوي كان من الممكن ان يؤدي تدخله الفعال إلى ترجيح كفة الحرب لصالح القرطاجيين . كذلك اتصف الرومان بالمرونة فقد اسرعوا لسد نقاط الضعف في دفاعهم ، وخاصة عندما جابهوا القرطاجيين بقوة بحرية مماثلة انتزعت منهم السيادة على مواصلات البحر المتوسط وحرمتهم من ايصال الامدادات الفعالة الى الجبهة الايتالية ، بينما تمكن الرومان من تلقي امدادات القمح من حليفهم بطليموس فيلوباتور ملك مصر . ولم يكتفوا بذلك بل طوروا جيوشهم البرية وتعلموا من هانيبال اساليب المناورة والخديعة والاعتماد على الفرسان . وساعدهم انضباط الجنود الرومان والايتاليين والتفافهم حول قادتهم على التغلب على الكثير من الاخطار حتى عندما كان العدو يقف على ابواب عاصمتهم .

أما الموقف في قرطاجة فقد كان مختلفا . اذ اعتمدت هذه الامبراطورية على الجنود المرتزقة وعلى مزيج من الشعوب الحليفة لها للحرب من أجلها . وعندما تنضب موارد قرطاجة يضعف دافع الحرب لدى الجنود المرتزقة ويثورون على قادتهم . ومع ذلك لم يقل الجنود القرطاجيون وقادتهم حماسة واخلاصاً في خدمة دولتهم عن تفاني الجنود والقادة الرومان . ولربما كانت شخصية هانيبال الفذة القطب الذي التفت حوله قوات قرطاجة فسار بها من نصر إلى نصر رغم اعدادها الضئيلة وابتعادها عن قواعد تموينها . ويمكن القول ان العنصر المساعد للقرطاجيين في الحرب البونية الثانية يتلخص في ان اراضي شمال افريقيا المزدهرة نجت بادىء الأمر من ويلات

الحرب التي كان مسرحها ارض العدو . فاستطاع القرطاجيون وحلفاؤهم متابعة استثمارها في الزراعة ، والتجارة اضافة إلى الموارد الوفيرة التي جادت بها مستعمراتهم في اسبانيا . وبدون هذه الموارد الغزيرة لم يكن باستطاعتهم تسديد نفقات الحرب البونية الثانية . ولكـــن هل تكفي الموارد المالية والعبقرية العسكرية وحدها لربح حرب ضروس ضد عدو كالشعب الروماني ؟

لقد خسر هانيبال الحرب رغم انه لم ينهزم في معركة . واضطر للانسحاب من ايتاليا رغم كل ما ابداه من عبقرية حربية و كفاءة سياسية تضعانه في مقدمة عظـــام القادة العسكريين . ولربما كان العامل الذي ساعده على الظفر هو نفسه الذي ساهم في حرمانه من قطف ثمار ذلك الظفر . فقد نقل هانيبال الحرب الى ارض عدوه معتمداً على عدد من الجنود لا يتناسب مع امكانيات الحجم الضخمة في القوتين البشرية والمادية .وبالتالي كان هانيبال بعيداً عن قواعده ومراكز تموينه يفصله عنها بحر واسع كانت السيادة فيه لعدوه . وفي الحقيقة اخطأها هانيبال تقدير عوامل الظفر على المدى البعيد رغم انه أمنها على المدى القريب . فلم يحصل من الملك فيليب المكدوني على الدعم الذي كان يتوقعه ، ولم يقدم له حلفاء روما المساهمة الكاملة التي وضعها في حساب النجاح ، وقصرت قرطاجة لاسباب عديدة في تأمين الامدادات اليه في الوقت المناسب .

أما في قرطاجة نفسها فلعل المجتمع القرطاجي قد وصل الى مرحلة الهرم التي تمر بها الشعوب ، كما ان الصراع الطبقي فيه وصل إلى درجة كبيرة . ولم يحسن القرطاجيون معاملة حلفائهم الامر الذي دفع الملك ماسينيسا وفرسانه النوميديين للانضمام الى اعدائهم فكانوا عاملا هاما في تقرير نتيجة معركة زاما .

ختاماً يجدر لفت الأنظار إلى حقيقة هامة تتلخص في أن المصادر التي يعتمد عليها المؤرخون في دراسة الحروب البونية وحيدة الجانب . فلا يمكن للباحث المتجرد أن يقبل الصورة السوداء القاسية المعالم التي رسمها الرومان لعدوهم في شخص قائده هانيبال حينما وصفوه « بالوحشية اللا انسانية وبفقدان الثقة فيه »[1] .. وغيرها من المطاعن . فالحرب كانت حرب بقاء أو فناء . ومع ذلك لم يكن الرومان أرحم أو أقل وحشية من هانيبال في معاملة المدن والشعوب الايتالية التي خرجت عن ولائها لهم . ورغم الهزيمة الكبرى التي أصابت قرطاجة لا ينفك القائد هانيبال يحتفظ بمميزاته كرجل حرب وسياسة من الدرجة الأولى . وتؤهله مواهبه العديدة ليتقلد زعامة مدينتهمن جديد . فيحاول مخلصاً قيادتها نحو مزيد من الديمقراطية والوحدة واستعادة ثروتها . وعندما تشك روما في خطر مساعيه واتصالاته مع انطيوخوس الثالث بناء على وشاية أعدائه من مواطنيه في قرطاجة ، ترسل بعثة لأسره ، إلا أن هانيبال ينجح في الفرار عام ١٩٦ ق . م ويتجه إلى مدينة صور حيث يعرض على الملك السلوقي انطيوخوس الثالث خبرته واستعداده للاشتراك في أي حرب يشنها الأخير ضد روما . إذ كان هانيبال يتحرق شوقاً للثأر من الرومان ولتأليب القوى ضدهم . وتذهب جهود هانيبال سدى بعد عقد معاهدة أفامية ، وبعد اصرار الرومان على تسليمهم عدوهم اللدود ، فيرتحل متنقلاً في بلاد آسيا الصغرى حتى يصل إلى أرمينيا ويلجأ الى مليكها بروزياس . وهنالك يتابع جهوده ضد روما ، التي تطلب أخيراً من الملك بروزياس تسليم هانيبال . وعندما يدرك القائد الشيخ استحالة النجاة يفضل تجرع السم على الوقوع في أيدي مبعوثي روما . وبذلك تختتم حياة قائد فذ كانت

---

(١) Livy 21. 4. 9

حيويته وطاقاته الجبارة رمزاً للشعب الذي ينتمي اليه . ولربما كان موته نذيراً بالمصير الذي ينتظر بقايا الامبراطورية القرطاجية .

٢ ـ احتلال روما للعالم الهلنستي :

سياسة روما في شرقي البحر المتوسط :

على الرغم من المشاكل الداخلية الحساسة التي واجهتها روما عقب معاهدة الصلح مع القرطاجيين عام ٢٠١ نراها تتصرف خلال ثلاثة عشر سنة لتحقيق سيادتها على العالم الهلنستي بعد أن تم لهـا الظفر في غربي البحر المتوسط . وفي الحقيقة لم يكن ليتاح لروما أن تتفرغ لهذه المهمة الجديدة لولا وجود عدة عوامل هامة في الأفق دفعتها إلى الطريق المحتومة وهي متابعة عملية استعمار حوض البحر الأبيض المتوسط . أما العامل الأول فكان حالة الضعف والتحلل التي وصلت إليها الممالك الهلنستية في الشرق والمدن اليونانية في بلاد اليونان الأم . ثانياً ـ إدراك الدويلات الشرقية لتفوق روما العسكري والسياسي ومحاولتها الارتباط بها لكسب تأيدها ودعمها . ثالثاً ـ وجود جيش كبير وقادة وفيرون لدى رومـا أخرجتهم مدرسـة الحروب البونية . رابعاً ـ المكاسب المادية التي طمعت طبقـة الارستقراطيين في مجلس الشيوخ الروماني بالحصول عليها ، والتي كانت دول الشرق الهلنستية تزخر بها .

ومن الواضح أن اشتباك روما وتدخلها في أمور العالم الهلنستي السياسية جاء أشبه بالمفاجأة . فلم يكن لروما حتى نهاية القرن الثالث إلا علاقات سياسية ضئيلة مع الممالك الهلنستية ، في حين كانت صلاتها الحضارية مع هذا العالم تزداد توطداً ورسوخاً وتساير تطور روما من شعب نصف بربري إلى أمة متحضرة .

ولم تكن روما لتنسى خطر جارها القريب الملك فيليب الخامس المكدوني الذي اصطدمت اثناء الحرب البونية بمطامعه التوسعية وبسعيه لتوحيد العالم اليوناني وطرد الرومان من ايلليريا . وقد عبر هذا الملك عن مشاعره تجاه روما بالحلف الذي عقده مع هانيبال ، والذي كان موجهاً بالدرجة الأولى للأجهاز على الدولة الرومانية والتخلص من خطرها .

أما في الشرق فكان الملك السلوقي انطيوخوس الثالث يحاول من عاصمته في انطاكية اعادة احياء الامبراطورية السلوقية في سوريا ويلوح في المنطقة وكأنه الاسكندر الجديد بالنظر لنجاحه في استعادة آسيا الصغرى، وتأكيده حقوق السيادة السلوقية على فارس وباكتريا . ويدفع حدود مملكته بسلسلة من الحملات الناجحة حتى بلاد الهند ، كما يتعاون بنفس الوقت مع فيليب الخامس بالضغط على الدول اليونانية الصغرى مثل رودوس وبرغامون واثينا .وقد توفر لانطيوخوس الثالث الذي اطلق عليه اسم « الكبير » حرية العمل في الشرق نظراً لعدم وجود قوة اخرى تحد من نشاطه وتحقق توازن القوى المألوف في العالم الهلنستي . هذا الدور كانت مصر تلعبه سابقاً منذ اقتسام قادة الاسكندر لامبراطوريته . أما الآن فقد وجد على العرش البطليموسي في مصر حاكم يافع ضعيف هو الملك بطليموس الخامس الذي كان عاجزاً حتى عن تصريف أمور مملكته الداخلية بسبب عداء فلاحي الريف المصري له . ولا ننسى أن البطالسة كانوا اسرة غريبة عن المجتمع المصري الذي يحكمونه . اعتمدت قوتهم على جيش مؤلف من الجنود المرتزقة من الاغريقين والماكدونيين، وعلى ادارة مركزية توضعت في أيدي الموظفين الاغريق . يضاف الى ذلك تطبيق أنظمة ضرائب جائرة امتصت جهود الفلاحين المصريين وسببت نقمتهم على الأقلية المتربعة في الاسكندرية عاصمة المملكة البطليموسية . وقد نتج عن وضع البطالسة

الضعفاء في مصر رغبة الملك السلوقي انطيوخوس الثالث انتزاع ممتلكاتهم في سورية ويقال بانه اتفق مع فيليب الخامس المكدوني على اقتسام ممتلكات البطالسة [1] .

الحروب الماكدونية الثانية ٢٠٠ – ١٩٦ ق . م

رأينا في ما تقدم [2] ان تحالف الملك فيليب الخامس مع هانيبال كان فاتحة لدخول روما في الحرب الماكدونية الأولى . وقد اسفرت الاعمال الحربية التي حدثت بين الفريقين عن انهاء الحرب بمعاهدة صلح عام ٢٠٥ ق.م ، اضطرت روما للتساهل في عقد شروطها بالنظر لعدم التعاون الذي حدث بينها وبين حلفائها الايتوليين من جهة ، والى معاداة بقية المدن الاغريقية لروما بسبب الوحشية والقسوة التي عامل الرومان بها المدن الاغريقية التي تم فتحها خلال الحرب الماكدونية الأولى .

لم يكن موضوع التحالف الماكدوني – القرطاجي هو الدافع الوحيد لانتهاج روما سياسة عدائية تجاه ماكدونيا بل ان الانظمة العسكرية الماكدونية التي استمرت اسرة الانتغونيين الحاكمة تطبيقها باعتبارها تراثاً من عهد الاسكندر الكبير ، أوجدت في مكدونيا جيشاً قوياً يحسب حسابه ، استخدمه حكام ماكدونيا للتوسع على حساب المقاطعات الاغريقية الجنوبية مثل تساليا وايتوليا ، والاجزاء الشرقية من شبه جزيرة اليونان . وقد هبت تلك المقاطعات وخاصة ايتوليا وآخائيا لتدفع عن نفسها خطر الاحتلال المكدوني .

---

(١) هنالك شك حول صحة ما يورده المؤرخون التالون عن عقد هذا التحالف بين انطيوخوس الثالث وفيليب الخامس ، يعززه ارسال وفد مصري لطلب يد ابنة فيليب إلى بطليموس الخامس ورغبة المصريين الحصول على حماية المكدونيين ضد اطماع انطيوخوس الثالث.

(٢) راجع ص ١٦٥ .

الا ان الملك فيليب الخامس ينجح في تفريق صفوف الاغريق ، وفي خلق تحالف جديد بسطت ماكدونيا عليه وصايتها واستطاعت تحريض اخائيا على الانضمام إلى الحلف الجديد . في حين بقي الحلف الايتولي يقاوم مع مملكة برغامون وجزيرة رودوس مطامع الملك فيليب الخامس الذي لم تستطع معاهدة ٢٠٥ مع روما وضع حد لها . وعندما تشكو كل من الدولتين المتحالفتين برغامون وردوس لروما عام ٢٠١ ق . م . مخاوفها من تحـــالف ملكي سورية وماكدونيا واتفاقهما على اقتسام ممتلكات البطالسة ، تجد لدى مجلس الشيوخ الروماني اذناً صاغية . وتنجح في أن تلفت انظار روما إلى ضرورة التدخل في مشاكل العالم الهلنستي . لذلك تبادر روما لاجابة طلبهم بالتدخل في الحرب الدائرة بين مملكة برغامون [١] والملك فيليب والتي كانت برغامون البادئة في اعلانها متذرعة بحجة انتهاك الاخير لحرية أرض دولة حليفة لروما .

وفي الحقيقة لم تكن لابرغامون ولاردوس حلفاء لروما فعلياً . وبالنظر الى أن الشعب الروماني كان قد خرج لتوه من حرب طاحنة في معركة زاما، نجده لا يوافق على اعلان الحرب على الملك فيليب رغما عن أن خطباء الوفد الاغريقي المفوهين ، الذين قدموا إلى روما لعرض شكواهم ، قد اقنعوا مجلس الشيوخ بان الشعب اليوناني يؤيد روما في محاولة تحرير العالم الاغريقي من نير الماكدونيين ويقف إلى جانبها في حربها للملك فيليب الخامس . وبما ان مجلس الشيوخ كان يخشى قوة فيليب الخامس المتزايدة فانه يضغط على الجمعية المئوية لاعلان الحرب بحجة احتمال تعرض ايتاليا لغزو جديد . وبالفعل توافق الجمعية على الحرب . وترسل روما

---

(١) تقع مدينة برغامون على الشاطىء الغربي لآسيا الصغرى ، إلى الشمال الغربي من ساردیس عاصمة ليديا .

جيشاً ضعيفاً إلى بلاد اليونان . إلا ان الرومان لا يلاقون من الاغريق تحمساً لمساعدتهم ، ومع ذلك ينجح القنصل الروماني فلامينينوس عام ١٩٧ بمؤازرة الحلفين الايتولي والآخائي في هزيمة قوات الملك فيليب عند هضبة **كينو سكفاليا** . ويضطر هذا الى طلب عقد صلح يعد بموجبه بالتنازل عن بلاد اليونان وايلليريا ، ودفع ١٠٠٠ تالنت لمدة عشر سنوات وتقديم كافة سفنه الحربية ما عدا خمسة منها ، ويتعهد بان لا يعلن الحرب بدون إذن من روما . وبالمقابل تترك له روما الاشراف على ماكدونيا محافظة منها على توازن القوى مع الملك انطيوخوس الثالث في سورية ، [1] ودرءاً لغزوات القبائل البربرية الكلتيه المتوضعة في مناطق البلقان . كذلك تسعى روما لاحلال التوازن تجاه الحلف الآخائي وذلك باضعاف قوة نابيس ديكتاتور مدينة اسبارطة .

بعد أن حققت روما اعادة توزيع القوى في عالم اليونان على الشكل الذي يلائم مصالحها ، يقوم القنصل فلامينينوس قبيل بداية الالعاب الرياضية لعام ١٩٦ باعلان استقلال كافة المدن الاغريقية التي كانت خاضعه للحكم الماكدوني . وقد استقبل اليونانيون هذا المرسوم بحماسة كبيرة وبالفعل يقوم القنصل فلامينيوس بالانسحاب مع قواته عائداً إلى روما عام ١٩٤ .

قد يبدو انسحاب روما من بلاد الاغريق أمراً مستغرباً يتناقض مع تصرفات الجنود الرومان في الحروب الماكدونية الأول حيث نهبوا المدن الاغريقية وقسوا في معاملة اهلها . والآن تترك روما لليونانيين حريتهم

---

(١) عمدت روما قبل دخول الحرب ضد الملك فيليب إلى ارسال وفد إلى سورية يطمئن ملكها الى نوايا روما الطيبة تجاهه وهذا يعني إطلاق يده في حملته ضد مصر وضمان عدم انضمامه إلى فيلبب أثناء الحرب .

دون أن تقطف ثمار النصر الذي حققته ! ومهما كان التأثير الذي مارسته الحضارة الاغريقية على ساسة روما وقنصلها القائد فلامينينوس فان من المستعبد ان يكون احترام وتقدير الرومان للحضارة الاغريقية هو السبب الوحيد الكامن وراء انسحابهم . وفي الحقيقة لم يغادر الرومان بلاد اليونان إلا بعد أن رتب القنصل فلامينينوس الأوضاع بشكل يخدم مصالح بلاده إلى أبعد حد . ذلك أن الطبقات الاغريقية الدنيا لم تشعر بأي امتنان لسياسة روما التي تقاربت من الطبقـــة الغنية ، والتي كانت بدورها تتوق لاستعادة مكتسباتها . أما وقد تمكنت روما من طرد شبح الامبراطورية الماكدونية عن شبه جزيرة اليونان ، واشعرت اسبارطة بتبعيتها ففرضت نفسها وصية على مدن هيلاس المتفرقة وحكما لها في خلافاتها ، فانها ليست بحاجة إلى كسب كراهية اليونانيين المتعشقين إلى الحرية عن طريق ابقاء قواتها في بلادهم .

الحرب ضد الملك انطيوخوس الثالث ملك سورية ١٩٢ - ١٨٨ ق٠م

نشأ عن هزيمة الملك فيلب الخامس فراغ في منطقة اسيا الصغرى حاول الملك انطيوخوس ملأه. ثم يتقدم هذا بدعوة من الايتوليين ـ الذين ساءهم عدم تدمير روما للمملكة الماكدونية ـ لغزو بلاد اليونان آملاً من ذلك تحقيق ماعجز عنه الملك المكدوني ، واعادة احتلال منطقة تراكيا التي كانت جزءاً من المملكة المكدونية . ويقوم الايتوليين بانتخابه قائداً عاماً عليهم . ومن البديهي ان تثير اطماع هذا الملك مخاوف الرومان الذين انتهوا للتومن تحرير اليونان من الخطر الماكدوني . لذلك ترسل روما قواتها بقيادة القنصل جلابريو الذي ينزل في ابيروس متجهاً نحو منطقة تساليا. وبعد أن يتمكن من طرد قوات انطيوخوس الأولية في معركة قرب **ترموبيلي** عام ١٩١ يهرب الملك انطيوخوس الى آسيا ليقوم من جديد بالهجوم على

بلاد الاناضول وخاصة على مدينة برغامون ، اذ انه لم يلق في بلاد اليونان المساعدة التي كان يرجوها . فلم يتخل الحلف الآخائي عن ولائه للرومان ولم يحاول الملك فيليب الخامس الانضمام اليه . كما ان ملك مدينة برغامون وضع اسطوله تحت تصرف الرومان . ويتمكن الاسطول الروماني في السنة التالية من احراز انتصارين بمساعدة الروديزيين ويتم لهم بذلك السيطرة على البحر الايجي .

شعوراً من روما بالخطر الذي تشكله غزوة الملك انطيوخوس نواها تكلف قائدها الكبير سيبيو « الأفريقي » وشقيقه بقيادة قواتها المتجهة عبر مضيق الهلسبونت نحو آسيا الصغرى . اذ كان لجوء هانيبال الى الملك انطيوخوس ونصائحه المتكررة له بمهاجمة روما نفسها تقلق بال السياسيين الرومان . ويتمكن هذا القائد مع شقيقه لوسيوس سيبيو [1] في خريف عام ١٩٠ من هزيمة الملك انطيوخوس « الكبير » في معركة **ماغنزيا** الواقعة الى القرب من مدينة سميرنا . ويجبرونه على عقد الصلح المعروف باسم معاهدة **افامية** لقاء ثمن باهظ هو التنازل عن كل ممتلكاته الأوربية والاسيوية حتى جبال طوروس . ودفع ١٥٠٠٠ تالنت خلال ١٢ عاماً . وكان من بين الشروط تسليم القائد القرطاجي هانيبال والامتناع عن الحرب بدون استئذان روما [2] وتقديم مالديه من الفيلة والسفن الحربية باستثناء عشرة سفن الى المنتصر . وقد وضعت المعاهدة عام ١٨٨ موضع التنفيذ .

وجدت روما نفسها بعد انهزام انطيوخوس الثالث امام مهمة جديدة هي اعادة توزيع الممتلكات والمناطق في بلاد آسيا الصغرى . فقسمتها

(١) سيطلق عليه بعد معركة ماغنزيا اسم سيبيو « الآسيوي » .
(٢) تركت له المعاهدة حرية الدفاع عن نفسه في حالة تعرضه لعدوان .

بين مدينـة برغامون وجزيرة رودوس ودول اخرى ، كان تنافسها مع بعضها اوثق ضمان لعدم احتمال قيام قوة كبيرة فى اسيا الصغرى . ولعل روما كانت عاجزة انذاك عن توفير القوات اللازمة لاحتلال اسيا الصغرى لذلك تنسحب منها ، الا انها ستذهب الى بلاد اليونان بعد عقد الصلح مـع ثوار الاتحاد الايتولي لتحتل معقل القراصنة في جزيرة سيفاللينا . ويضطر الايتوليون بعد دفاع مستميت للتنازل عن اراضيهم التي فقدوها حرباً الى روما ، والى عقد حلف دائم معها يلزمون بموجبه بتقديم المساعدة العسكرية لها كلما استدعت الضرورة ذلك .

الحرب الماكدونية الثالثة ١٧١ - ١٦٧ ق.م.

على الرغم من قيام مدن الحلف الايتولي ضد روما وتعاونهم مـع الملك انطيوخوس الثالث لا تتخلى روما بعد ظفرها على خصومها عن السياسة التي وضعهـــا القنصل فلامينينوس لبلاد اليونان . فقـد تركت لليونانين من جديد حريتهم ولم تتدخل في شؤونهم شريطة أن يحترموا الترتيبات التي أرتأتها لهم . وقـــد جاء التغير في سياسة روما التقليدية إثر تبينها لمطامح ماكدونيا واثارة المشاكل التي سببها الاتحاد الآخائي . فقد أنقسم اعضاء هذا الاتحاد إلى جماعتين: اعربت الأولى عن استعدادها قبول سيادة روما المطلقة عليها في حين تمسكت الجماعة الثانية بأماني الاغريق الوطنية وحريتهم . ومن الطبيعي أن يؤيد الرومانالفئة الأولى وهي من الارستقراطيين الذين تلائمت سياستهم وانسجمت مصالحهم مع مصالح اعضاء مجلس الشيوخ الروماني . لذلك لم يكن امـام الفريق الثاني من خيار إلا التطلع نحو ماكدونيا ونشدان عونها . فهناك كان يوجد الملك فيليب عـدو روما القديم الذي كان ينتظر الفرص للثأر لنفسه .

بالنظر الى ان الملك فيليب قد اشترك الى جانب روما في حرب الايتوليين وساعدها ضدهم فقد اعتقد انه يستطيع الاحتفاظ بالمكاسب الارضية التي ظفر بها اثناء القتال ، غير أن مجلس الشيوخ يجبره على التنازل عما حصل عليه لأنه لم يكن يطيق رؤية ماكدونيا تقف قوية من جديد أمام روما . واسفرت جهود الملك فيليب عن إعادة تشكيل جيش مكدوني قوي واغناء خزينة الدولة بثروات طائلة وجدها ابنه برسوس جاهزة لتحقيق سياسة والده المعادية لروما حينما تولى العرش اثر وفاة الملك فيليب عام ١٧٩ ق . م .

اثارت استعدادات برسوس مخاوف الملك أومين ملك برغامون الجديد ، فذهب إلى روما ليشي به إلى مجلس الشيوخ . هذا المجس يصمم على قطع الطريق في وجه الملك المكدوني قبل أن ينهي استعداداته ، وتكون حجة روما لارغامه على دخول الحرب الطلب اليه أن يتنازل عن سيادة مملكته . وبالطبع يكون الرفض هو الجواب المتوقع والمفتاح لاعلان الحرب الماكدونيه الثالثة التي لم تفلح روما في تحقيق ظفر سريع فيها . وفي معركة **بيدنا** التي دارت عام ١٦٨ بين قوات القنصل أميليوس باولوس وجيوش برسوس يتم النصر للأول ويخفق الثاني في الهرب فيساق اسيرا في موكب الظفر ليموت فيما بعد في الأسر . بنتيجة هذه الحرب تم القضاء نهائيا على مملكة ماكدونيا وجزئت إلى أربعة اتحادات مستقلة فرض عليها دفع غرامة قدرها مئة تالنت علاوة على شروط أخرى أشد قسوة . أما الأسلاب التي حصل الرومان عليها من ثروات ماكدونيا ومناجمها فقد كانت كبيرة لدرجه مكنت الدولة الرومانية من اعفاء كافة المواطنين الرومان من دفع الضريبة المباشرة المسماة Tributum .

بعد زوال خطر الدولة الماكدونية لم يعد هنالك ثمة دافع يلزم

روما براعاة المدن اليونانية . فقد دنت الآن ساعة الحساب لتصفية الحزب الديمقراطي المناوىء لروما والموالي لماكدونيا . ويقوم الرومان بقتل ونفي اعدائهم هناك ، وينتزعون الف رهينة من كبار زعماء اليونان ينقلون رهائن إلى حاضرة العالم الجديدة [١] . وحلت نقمة روما على أهل جزيرة رودوس لميلهم إلى مصالحة ، الرومان مع الملك برسوس فانتزعت منهم مقاطعتي كاريا وليسيا في اسيا الصغرى . ولم يحمهم من اعلان روما الحرب عليهم إلا دفاع الخطيب كاتوا عنهم.كما انتقمت من أهل جزيرة كريت ومن ملك برغامون لنفس السبب . وكانت خسارة مقاطعة ابيروس فادحة اذ دمرت روما سبعين مدينة فيها وباعت ١٥٠ الفا من أهلها في أسواق الرقيق . أخيراً أملت روما على ملك برغامون وعلى جزيرة رودوس وعلى ملك سورية انطيوخوس الرابع أن يمتنعوا عن مهاجمة البطالسة في مصر ، بعد أن استنجد ملوكها بروما . على ضوء نتائج الحرب المكدونية الثالثة التي دامت أربع سنوات يتضح أن روما اصبحت سيدة البحر المتوسط في قسميه الغربي والشرقي ، وأنها غدت وريثه اليونان والماكدونيين والهلنستيين ، ووصية على البطالسة والدول الصغيرة واصبحت حكماً بين شعوب المنطقة . ولا يبقى عليها إلا أن تصفي الحساب مع الد اعدائها بعد أن نجحت في حل مشاكل الشرق لصالحها.

الحرب البونية الثالثة ١٤٩ – ١٤٦ ق ٠ م ٠

بنفس الأسلوب الذي فرضت فيه روما الحرب على برسوس ملك ماكدونيا ، عمدت إلى القضاء النهائي على دولة قرطاجة . وقد عبرت عن ذلك في جملة كاتو الشهيرة : « ولكنني اصرح بأن قرطاجة يجب أن

---

(١) كان المؤرخ الكبير بوليب من بين الرهائن وقد قضى في منفاه مدة ستة عشر عاماً

تهدم » . إذ اقلق المارد الجديد في البحر المتوسط انتعاش مدينة قرطاجة خلال فترة الخمسين عاماً التي انقضت على معركة زاما .

نشبت الحرب من جديد نتيجة اطلاق روما يد صنيعتها الامير النوميدي ماسينيسا في اغتصاب ممتلكات قرطاجة واقتطاع أراضيها، بينما كانت الأخيرة لا تستطيع الدفاع عن نفسها بموجب المعاهدة التي انهت الحروب البونية الثانية الا بعد استئذان روما . واضطرت روما من آن لآخر اثناء انشغالها في الحروب الماكدونية أن تجيب قرطاجة إلى بعض تظلماتها وأن تغض الطرف عن توسع زراعتها وتجارتها ، طالما أن القرطاجين قد وافقوا على نفي هانيبال .

بناء على شكوى تقدمت بها قرطاجة ضد تعديات الامير النوميدي الذي كان يتمتع بعطف لجان التحقيق الرومانية ، يرسل مجلس الشيوخ الروماني وفداً برئاسة ماركوس كاتو الخطيب الشهير . فيملأ أزدهار قرطاجة قلب الاخير حسداً وخوفاً ويعود إلى روما لينطق بحكم الاعدام بحق المدينة المهيضة الجناح وذلك في جملته التاريخية الآنفة الذكر . وفي العام ١٥١ ق.م تصاب قرطاجة بهزيمة كبيرة أثر هجوم ماسينيسا عليها . فيلجأ القرطاجيون إلى روما يعرضون عليها خضوعهم التام تكفيراً عن تجاوزهم بنود المعاهدة وقيامهم بمحاربة عدوهم . وتطلب روما مقابل بسط حمايتها عليهم أن يتخلوا عن اسلحتهم وأن يقدموا رهائن من أبنائهم ، وان ينصاعوا لأوامر القناصل الذين نزلوا مع جيوشهم أرض افريقيا . وينصاع القرطاجيون لطلب روما بتسليم اسلحتهم الا انهم لا يستطيعون تلبية الشرط الجديد الذي وضعته وهو الرحيل عن مدينتهم إلى مبعدة خمسة عشر كيلو متراً عن الشاطىء ، والتخلي عن قرطاجة نهائياً . ويشعر ابطال الحروب البونية أن ساعتهم قد دنت فيعتصموا باسوار مدينتهم منتهزين هدنة الثلاثين يوماً ـ التي منحها لهم القناصل الرومان

ليرسلوا وفداً إلى روما ـ في اتمام التحصينات وصناعة الأسلحة واعداد وسائل الدفاع بجهد المستميت ، حتى أن النساء القرطاجيات قدمن شعورهن لصناعة حبال المجانيق .

وما كان من القناصل الرومان إلا أن ضربوا الحصار على المدينة بمساعدة حليفهم الأمير النوميدي . واستمر الحصار مدة سنتين دون أن يتمكنوا من النفوذ عبر أسوار المدينة المنيعة ، اذ كان الملاحون القرطاجيون يؤمنون بمراكبهم السريعة ايصال المؤن إلى العاصمة المحاصرة . أخيراً ترسل روما القنصل سيبيو اميليان قائداً على قواتها في قرطاجة . فاستطاع هذا القائد هزيمة القرطاجيين في المناوشات التي جرت ، وشدد الحصار على أهل المدينة الذين ارهقهم الجوع ونقص المؤن والقوات . وما يلبث أن يتمكن من اقتحام أسوار المدينة في ربيع عام ١٤٦ فتسقط بعد أن يدافع أهلها عنها بيتاً بيتاً . ويباع الناجون من المذبحة الرهيبة وقدرهم ٥٠ ألفا في أسواق العبيد . أما قرطاجة فتهدم أسوارها وتدك بيوتها وتحرث أرضها وتلعن . وتنشىء روما مكان الدولة القرطاجية مقاطعة جديدة أسمها مقاطعة افريقيا . بذلك يسدل الستار على حرب ضروس دامت أكثر من قرن وانتهت بابادة شعب بكامله وافناء حضارته .

الحرب المكدونية الرابعة والقضاء على الاتحاد الآخائي :

في ١٤٦ يقوم شخص يدعي أنه ابن الملك برسوس بالمطالبة بعرش أبيه في مكدونيا ولكن ظفره الموقت على القوات الرومانية ينهي أمام قوات القنصل كاسيليوس متللوس ، الذي يجهز على الاتحادات الماكدونية الاربعة لتصبح مقاطعة رومانية في السنة التالية .

وفي عام ١٤٦ يعود الاحياء الباقون من الرهائن الاغريق الذين قضوا

ستة عشر عاماً في منفاهم في مدينة روما إلى وطنهم [1] . وتكون هذه المناسبة فرصة لتعبير الاغريق عن نقمتهم على وصاية روما على العالم الاغريقي، وضد اضطهادها للحزب الديمقراطي . وتجد الثورة تعبيراً لها في الهجوم على اسبارطة وهزيمتها دونما انتظار لنتيجة رأي مجلس الشيوخ الروماني في الخلاف المعروض عليه .

وحينما يرفض الاتحاد الأخائي فصل المدن التي قررت روما معاقبتها من عضويته ، تقوم جماهير العوام والفقراء في أواسط اليونان بمجابهة الاسطول والقوات التي أرسلتها روما بقيادة القنصل موميوس لاخضاعهم . ويتمكن القائد متللوس الذي اخضع بلاد ماكدونيا ، من هزيمة كريتولوس وديانوس زعماء الحلف الآخائي . في حين ينجح موميوس باحتلال مدينة **كورنت** ونهب كنوزها وبيع أهلها عبيداً . ثم يشعل النار فيها تنفيذاً لأوامر مجلس الشيوخ الروماني ، وتحول كورنت إلى أرض تابعة لروما ويكون مصيرها مماثلاً لمصير مدينة قرطاجة . أما المدن اليونانية الاخرى فانها تحتفظ نوعا ما باستقلالها مع تبعيتها لحاكم ماكدونيا ثم تنظم عام ١٢٧ باسم مقاطعة اخائيا .

سياسة روما الاستعمارية بعد اخضاع البحر المتوسط :

اتمت روما حلقة هامة من حلقات توسعها الاستعماري في البحر المتوسط عندما استطاعت مسح مدينتين من أكبر مدن العالم القديم وهما مدن قرطاجة وكورنت ، التي أملت العنجهية الرومانية مصيرها المشؤوم . ثم تلا ذلك اخضاع ماكدونيا كلية في الحرب المكدونية الرابعة ، وأعلنت مقاطعة رومانية عام ١٤٨ . الا أن التوغل الحقيقي في الشرق

(١) عاد ثلاثمائة رجل منهم فقط من أصل الفرهينة .

الأسيوي يبدأ عندما يتوفى الملك اتاللوس الثاني ملـك مدينة برغامون عام ١٣٣ ق . م فقد حالف الحظ روما عندما أعلن هذا الملك في وصيته أنـه يجعل الشعب الروماني وارثـاً لممتلكاتـه في مملكته الغنية ، وذلك رغبة منه في تجنيب بلاده ويلات الدمار نتيجة احتمال نشوب النزاع بين خلفائه . ومـع أن الشعب الروماني ممثلاً في مجلس الشيوخ يقبل تحمل الإرث الجديد ، يهب أحد المدعين باحقيته في المملكة والمسمى أونيمس الثاني ، ليثبت حقـه ويعمد إلى الاعتصام في جزء منها بعـد أن ينجح في القضاء على القنصل الروماني كراسوس وأن يهزم قواتـه عـام ١٣٠ ق . م . لذلك تجـــد روما نفسها تجاه مسؤلياتها في انتزاع مملكة برغامون من هذا الثائر . ويتم والخلاص من أونيمس الثاني عنـدما توسل له حملة بقيادة القائد بربرنا تلقي القبض عليه . واعتباراً من تاريخ عام ١٢٩ ق.م تتحول مملكة برغامون إلى مقاطعة رومانية اسمها مقاطعة آسيا الصغرى .

وضعية المقاطعات الملحقة بروما :

كان على روما بعد أن نجحت في أعمالها العسكرية أن تنصرف إلى اتخاذ الاجراءات اللازمة لتنظيم وادارة المقاطعات الجديـدة التي وجدت نفسها الآن مهيمنة عليها ، منتهجة في ذلك اسلوبين : أحدهما يتبـع سياسة الالحاق والآخر يتبـع سياسة التحالف . وقد بـدأ هذا العبء منذ أن تم لروما طرد القرطاجيين من صقلية وكورسيكا وسردينا والحاقها بها على التوالي في الأعوام ٢٤١ و ٢٢٨ ق . م [1]. فارادت ادارة هذه المناطق بواسطة الحكام العاديـين . ثم مـا تلبث في العام ٢٢٧ أن تفصلها إلى

---

(١) راجع علاقة روما مع الشعوب الأخرى في سياســة التحالف والالحاق في ٩٣ - ٩٦ .

منطقتين اداريتين مستقلتين أولاهما صقيلية والثانية تتألف من الجزيرتين كورسيكا وساردينا . وتخصص روما لادارتهم حكاماً خاصين يتمتعون بسلطة الامبريوم . تم تكون عام ١٩٧ مقاطعتين في شبه جزيرة ايبريا هي اسبانيا الساحلية واسبانيا الداخلية . وتتلوها مقاطعة ماكدونية عام ١٤٨ ومقاطعة افريقيا بعد ذلك بسنتين . أما بالنسبة إلى المقاطعات الاسبانية فقد أوجدت لها وظيفتا حاكمين جديدين مزودين بسلطة قنصل بالنظر لأهمية مراكزهما من الناحية العسكرية . وقد اعترض الخواص على إنشاء وظائف حاكمية جديدة للمقاطعات المحتلة فيما بعد وذلك رغبة منهم في عدم افساح المجال أمام عدد كبير من المرشحين للوصول إلى وظيفة القنصلية . وفي الحقيقة كان لمجلس الشيوخ الروماني صلاحية تحديد نوع حكم المقاطعات التابعة لروما فيما اذا كانت ستحكم من قبل قنصل أو من قبل قاض Praetor . أما تخصيص الحاكم بمقاطعة معينة يشرف عليها مدة سنة فكانت تتم بطريق القرعة .

تميزت المقاطعات الملحقة بروما بأن لكل منها طابعه ومشاكله الخاصة . وعلى العموم كانت تشترك جميعاً في فقد استقلالها وفي اقامة ممثل للسلطة الرومانية على أراضيها ذلك الممثل يتمتع بسلطات الامبريوم العسكرية والادارية والقضائية . وكان على هذه المقاطعات أن تقدم لروما الموارد المالية التي تنفق منها على اقامة قوات الجيش الروماني في المقاطعة . وقد تمتع حكام المقاطعات الرومانية بسلطات وصلاحيات مطلقة لا يحدها إلا ما منحته روما لبعض المدن من حريات وأوضاع خاصة ، مثلما كان الحال عليه في جزيرة صقيلية حيث انقسمت أوضاع مدنها إلى ثلاثة أنماط : **حليفة** ، أي خارجة عن سلطة الوالي ، **وحرة** تمتعت بحرياتها بناء على قانون خاص صدر في روما ، **وخاضعة** وهي المدن المرتبطة

مباشرة بالحاكم ، ولايحد سلطته عليها أي قيد . أما مقاطعة جزر كورسيكا – ساردينا فقد صودر جزء كبير من أراضيها عقب احتلالها ، وصنف في عداد الأملاك العامة التي تؤجر .

توجب على المقاطعات الملحقة بروما دفع ضرائب للشعب الروماني بصفته صاحب الحق في البلاد المفتوحة . واتخذت هذه الضرائب صوراً وأسماء شتى بصفتها عائدات عن الاراضي العامة والمزروعة ، والمراعي والمناجم والقمح والجمارك ... الخ . واختلفت نسبة هذه الضرائب من مدينة إلى اخرى كما هو الحال في جزيرة صقيلية تبعاً لتصنيف هذه المدن. هذه الضرائب لم تكن كل ما يتحمله شعب المقاطعة الملحقة من اعباء مالية . إذ أن الحاكم ومساعدوه وجباته الذين تعينهم روما ادارة المقاطعة كانوا لا يتقاضون من مجلس الشيوخ اجوراً على خدماتهم . لذلك أصبح الحاكم ينظر إلى المقاطعة وكأنها منجم لجمع الثروة، كان عليه أن يصل إليها باسرع فترة ممكنه خاصة وأن فترة حكمه تنتهي خلال اثنى عشر شهراً . ولا يجد الحاكم غضاضة في أن يستغل السلطات الموكلة اليه بما فيها عقوبات السجن والموت والحياة لتحقيق مآربه . بل أنه كثيراً ما يتجاوز في ذلك التعليمات التي يحددها له مجلس الشيوخ . وبما أن أعضاء مجلس الشيوخ الروماني الذين يحق لهم التحقيق في تصرفات حكام المقاطعات ، كانوا إما من الحكام السابقين للمقاطعات أو مرشحين لهذه الوظائف ، فان شكوى أهالي المقاطعات على تصرفات حكامهم مكتوب لها الفشل مقدماً وخاصة إذا قام الحاكم بدفع الرشوى إلى كبار أعضاء مجلس الشيوخ . لذلك كان اختيار حاكم المقاطعة الرومانية وسيلة لكسب السلطة ومفتاحاً للاثراء الكبير ولتسديد الديون [1] . بالاضافة إلى

---

(١) عاد قيصر وبومبي على سبيل المثال، بثروات طائلة من مهامهما في اسبانيا .

الحكام وجد المقرضون وأصحاب البنوك الرومان في ابناء المقاطعات ـ وخاصة في مدن الشرق الاغريقي المفلسة ـ لقمة سائغة يستطيعون التمتع بها دون أن تطالهم يد السلطات الرومانية . وكثيراً ما كان هؤلاء الممولون عملاء لرجال مجلس الشيوخ يزاولون اقراض الأموال نيابة عنهم . كما أنهم كانوا يتمتعون بدعم الجنود الرومان في المقاطعات لأجبار المدينين على تسديد ديونهم مع فوائدها الباهظة . وفي الحقيقة أصبحت المقاطعات مرتعاً خصباً لأفساد ضمائر المواطنين الرومان ومجالاً لانغماسهم في أعمال جمع الثروات وتلقي الرشاوى والهدايا بشكل غير شرعي . أخيراً يستيقظ الضمير الروماني ضد وسائل النهب العلنية التي تدمر اقتصاد المقاطعات وأهلها ، وذلك في صورة القانون المعروف باسم قانون **كالبورنيوس**[1]. الا أن المحكمة التي نص القانون على تشكيلها لتصبح اداة بيد مجلس الشيوخ لتقويم الحكام المنحرفين ، ما لبثت أن اثبتت عجزها عن احقاق الحق وانصاف أبناء المقاطعات لاسباب عديدة منها: صعوبة ايجاد الشهود ، والخوف من الانتقام ، ومراعاة اعضائها لزملائهم.

أما المقاطعات التابعة لنظام الحماية فكانت تمتاز في أن روما لاتمارس سلطتها المباشرة عليها عن طريق الحكام ولا تتدخل في شؤنها ، وتكتفي روما مقابل ذلك بالامتيازات الكبيرة التهي تحصل عليها من محميانها . وقد ادخلت تحت هذا النظام الذي ساد في القرن الثاني ق . م كل من ماكدونيا واليونان وممالك الأناضول وسورية ومصر وقرطاجة ونوميديا ... ويمثل نظام الحماية القيود التي فرضتها روما على الدول الداخلة فيه وهي من

---

(١) صدر القانون عام ١٤٩ مشكلا محكمة دائمة تتألف من ٥٠ عضواً يرأسهم قاض للنظر في سرقات حكام المقاطعات والدعاوى المرفوعة عليهم . وكانت قراراتها قطعية .

راتيا
فينيسيا
بانونيا
ليجوريا
غاليا جنوب الالب
اليريا
البحر الادرياتيكي
دالماسيا
كورسيكا
سردينيا
اتروريا
امبريا
سابيني
لاتيوم
سامنيوم
كامبانيا
ابوليا
لوكانيا
بروتيوم
البحر التيراني
بحر الايون
صقلية
البحر الليبي
موريتانيا
قرطاجة
جنوا
بيزا
فلورنسيا
روما
اوستيا
نابولي
انكونا
ارمينوم
رافنا
بارنتوم
سيراكوزا
كاتانا
مسانا
ريجيوم
كروتون
سيباريس
تارنت
برنديزي
جزيرة كابري
جزر ليباري
ليليبايوم
بانورموس
اكراجاس
جيلا

ايتاليا في العهد الجمهوري

المقياس

المدن الرومانية

المستعمرات الاغريقية

المستعمرات القرطاجية

الطرق الرومانية الرئيسية

الدول التي اخضعتها وخاضت ضدها حروباً . وقد رأينا هذه القيود المادية والسياسية القاسية في المعاهدات المعقودة مـــع قرطاجة والملك فيليب الخامس ، والملك انطيوخوس ... [١] والتي تترك لهذه الدول في نفس الوقت نوعاً من الحرية والكيان الذاتي مع جانب كبير من التبعية . ومن البديهي أن عقد الحماية لم يكن يتم بين فريقين متكافئين متساويين في القوة بل كانت لروما دوماً الكفة الراجحة والغنم فيه . وعندما تشتد قوة روما وتتخلص من أخطار اعدائها الواحد تلو الآخر نراها تعمد إلى قلب نظام الحماية بنظام الالحاق. وهذا بدوره يعني بدء روما في تطبيق سياسة الاستعمار بشكل فعلي . وعلى الرغم من أن بلاد اليونان التي كانت تتمتع ببعض احترام روما قد استثنيت من نظام الالحاق،واحتفظت اجزاء كبيرة منها باستقلالها موقتاً لا تلبث هـذه أن يجرفها مد روما الاستعماري في أواخر العهد الجمهوري [٢] .

أخيراً وقفت روما بعد الغاء نظام الحماية ، أي بعد الانتصار الكامل على الشعوب القرطاجيه والماكدونية والهلنستية أمام مسؤوليات لم تكن تحسب لها حساباً.وهي التزاماتها الجديدة في منطقة البحر المتوسط من جهة ومجابهة الأقوام البربرية في أوربا وأفريقيا ، وقـــوة منافستها الجديدة المملكة الفارسية من جهة اخرى ، والتي كانت الدول المهزومة تشكل حاجزاً بينها وبين روما وتتحمل روما الآن عبء اخضاعها ودفع خطرها . وفي الواقع كان النظام الجمهوري الروماني بأجهزته المعروفة عاجزاً عن القيام بكل هذه المسؤوليات الضخمة ،خاصة وأن الوحدة الوطنية في ايتاليا نفسها لم تتوطد اقدامها بعد . ولسوف نرى الصراعات الأهلية العنيفـــة تهز كيان الدولة الرومانية اعتباراً من منتصف القرن الثاني في سبيل تحقيق العـدالة الاجتماعيه بـين طبقات مواطنيها. والتي ستلقي مصير روما في نهاية العهد الجمهوري تحت رحمة قادتها العسكريين وتقود إلى نشوء العهد الامبراطوري .

(١) راجع الصفحات ١٥٨ ، ١٧٠ ، ١٧٣ .

(٢) راجع ادناه حملة القنصل سوللا المدمرة الى بلاد اليونان .

مراجع للفصل الرابع (الحروب البونيه والماكدونية)

H. H. Scullard, History of the Roman World from 753 B.C. to 146 B. C., London 1961.

B. H. Warmington, Carthag, London, 1960.

H. H. Scullard, Scipio Africanus in the Second Punic war, Cambridge 1930.

T. Frank, Roman Imperialism, New Yovk 1914.

U. W. Tarn and G. T. Griffithe, Hellenistic Civilisation, New York 1951.

M. Cary, History of the Greek World from 323 to 146 B. C., London 1951.

سليم عادل عبد الحق ، روما والشرق الروماني ، دمشق ١٩٥٩ ، ص ١٢١ – ٣٠٢.

الفصل الخامس

تدعيم الحكم الروماني وتداعي النظام الجمهوري

١ - تأثيرات التوسع الروماني على المجتمع الايتالي في القرن الثاني ق ٠ م .

حسبما هو متوقع لم تقتصر التغيرات الطارئة على عالم البحر المتوسط على البلاد التي اخضعتها روما لسيطرتها خلال قرن من الزمن تقريباً ، بل إن هذه التغيرات تنعكس آثارها قبل كل شيء على الدولة والمجتمع الروماني ، الممثلين في مدينة روما التي غدت حاضرة عالم البحر المتوسط بلا منازع . وقد تميزت هذه الفترة من العهد الجمهوري بارساء قواعد عملين ضخمين هما توحيد الشعوب الايتالية سياسياً وانشاء الامبراطورية الرومانية . وكما سيتضح للقارىء شكلت مواضيع « الوحدة الايتالية » و « رومنة » الامبراطورية الجديدة مبدأين رئيسيين للسياسة الرومانية لن تكتمل خطوطها في العهد الجمهوري - بالنظر للصراعات الداخلية الاجتماعية والاقتصادية التي انطلقت من عقالها في ايتاليا عقب انتهاء الحروب البونية ، وزوال شبح الخطر القرطاجي – بل يجب الانتظار في ذلك إلى نهاية الحروب الأهلية التي ستودى بالجمهورية الرومانية . لذلك يمكن اعتبار نتائج التوسع الروماني البذور الأولى للتطورات العميقة التي عاناها

المجتمع الايتالي والتي قادت الدولة الرومانية بصورة محتومة إلى نظام حكم جديد يستطيع النهوض باعباء امبراطورية مترامية الأطراف .

آ ـ الحياة السياسية والاجتماعية :

ابرزت الحروب البونية دور **مجلس الشيوخ** الروماني واعطته الفرصة المناسبة لقيادة الشعب وتوجيهه داخلياً وخارجياً في معاركه الكبرى. وبالتالي كان ازدياد أهميته في الدولة الرومانية نصراً لطبقة الخواص أو الارستقراطيين التي تهيمن على المجلس . وقد اثبت زعماء الخواص الذين اختارهم مجلس الشيوخ كفاءة ومقدرة دفعت المجلس إلى التغاضي عن قانون عام ٣٤٢ ق . م الذي يمنع اعادة انتخاب القناصل قبل انقضاء عشرة سنوات على توليهم منصب القنصلية . واعـــاد انتخاب القناصل ماكسيموس ومارسللوس وفلاكوس عـدة مرات . ولا شك أن تجاوز مجلس الشيوخ للقواعد الدستورية (١) المتعارف عليها في العهد الجمهوري ، بتنصيب القنصل ماكسيموس ديكتاتوراً جاء بضغط من الأحداث السياسية والحربية التي كان الشعب الايتالي يمر فيها . وكما نرى ازداد نفوذ مجلس الشيوخ في هذه الفترة على حساب نفوذ القناصل وامكن للمجلس تلافي معارضة المحامين ، الذين يمثلون طبقة العوام ، بان رفع المحامون بموجب قانون خاص إلى مستوى الشيوخ. كما أصبح للمحامين حق دعوة مجلس الشيوخ للانعقاد. وبالمقابل أصبح للقناصل حق ايقاف التصويت على القوانين. وبذلك ضعف دفاع المحامين عن العوام (٢) . أمـا مجالس الشعب الروماني وهي **الجمعية المئوية ، والمجلس القبلي** التي كانت المعبرة عن رغبات الاكثرية الساحقة من المواطنين الرومان فقد تضاءل دورها ، ولم يعد يتاح الا

---

(١) من المعروف أن الدستور الروماني لم يكن في العهد الجمهوري مدوناً .

(٢) راجع اعلاه ص٨٨ و ١٣١ - ١٣٢ .

لأقلية صغيرة من المواطنين المتمتعين بحق المواطنة الرومانية أن يحضروا اجتماعاتها وان يمارسوا التصويت فيها. وذلك بالنظر لانتشار المواطنين الرومان في المستعمرات المقامة في أجزاء من شبه الجزيرة الايتالية، أو وجودهم في المقاطعات ضمن الحاميات العسكرية . وفي الواقع اثبتت هذه الجمعيات جدواها في مجتمعات دول ـ المدن الصغيرة لكنها لم تعد تتلاءم مع متطلبات دولة كبيرة . وقد ارتكب الرومان خطيئة حينما لم يطوروا مؤسساتهم الشعبية التي تعتبر الحارس الأول للحكم الديمقراطي ، أو يستبدلوها بمؤسسات أخرى تقوم مقامها .

مما تقدم يتضح أن الحروب البونية افسحت المجال أمام الطبقة المهيمنة على مجلس الشيوخ لتتسلم مقاليد الحكم بشكل لا منازع له . وقد تضاعف نفوذ فئة الأرستقراطيين الحاكمين عن طريق الثروات الكبيرة التي تمكنوا من جمعها . واذا تكلمنا عن **طبقة الارستقراطيين** الحاكمة منذ النصف الأول للقرن الثاني فاننا لا نعني بذلك أسر الخواص التقليدية القديمة ، بل المزيج الجديد الذي نشأ عن بقايا اغنياء طبقة الخواص واغنياء طبقة العوام . والذي وصل إلى السلطة عن طريق الترقي في الوظائف العامة والدخول بالتالي إلى مجلس الشيوخ . وقد سهلت عمليات التزاوج والتبني التحام أفراد الارستقراطية الجديدة.ووحدت المصالح المالية والسياسية وبصورة خاصة الرغبة في الاستئثار بالحكم قضيتهم . ومن الطبيعي أن ينشأ ضمن هذه الفئة الحاكمة تسلسل في المكانة يعتمد على نوع الوظيفة والرتبة التي يشغلها الفرد في الدولة . وأن يخصص المركز الاعلى في قمة الهرم الاجتماعي لعدد محدود منهم أطلق المجتمع الروماني عليهم اسم **النبلاء** nobilitas ، فشمل اللقب أولئك المنحدرين من الحكام والقناصل والمحامين العسكريين والدكتاتوريين والمتمتعين بسلطات الامبريوم والقنصلية .

وبما أن الوظائف العليا في الدولة لم يكن يخصص لهـا رواتب معينة باعتبارها شرفاً يمنح لفئةمعينة ،فان شاغليها يجب أن يكونوا بالضرورة من الأغنياء الذين تهيء لهم ثرواتهم القيام بالمهام الموكلة اليهم . لذلك نرى أن الارستقراطية الجديدة اعتمدت على قاعدتين أساسيتين هما **المال و الوظيفة** مضافا اليها اسم وجاه العائلة المتوارثان . ومـع مرور الزمن استطاع أفرادهـا احتكار مناصب الحـاكمية التي تعتبر المعبر الموصل إلى عضوية مجلس الشيوخ . وأصبح شاغلوا هـذه الوظائف يشكلون حلقة مغلقة يتوارثون الوظائف فيما بينهم ابأ عن جد. ولهم شعارات وعلامات خاصة تميزهم.وكان ارتفاع مستوى الثروة المطلوب توفره لدى المرشح إلى إحدى الوظائف الكبيرة ، ونفقات الحملات الانتخابية الباهظة، وحق رفض المرشحين الذي يتمتع به الحاكم المسؤول عن الانتخابات يضيق نطاق هذه الحلقة أكثر فأكثر ويقصرها على بضع اسر احتكرت وظـائفها اجيـالاً متتالية . ويذكر أن ستة وعشرين أسرة من النبلاء أمدت الدولة الرومانية ، في الفترة الواقعة بين ٢٣٤ – ١٣٤ ق . م بثلاثـة أرباع القناصل الذين شغلوا القنصلية خلال قرن من الزمن . أما الأشخاص العاديون من أفراد الشعب الروماني فلم يكن بمقدورهم اختراق هذه الحواجز المنيعة للوصول إلى الوظائف العليا ، إلا عن طريق مواهبهم النادرة أو كفاءاتهم العالية . وهـذا ما كان عليه حـال الساسة الرومان الكبار أمثال كاتو و ماريوس و سيسرو .

إلى جانب طبقة الارستقراطيين وجدت طبقة أخرى تليها في المرتبة هي **طبقة الفرسان** التي تألفت من رجال الأعمال الأغنياء . وكان ابناء هذه الفئة من بين المواطنين المسجلين فى الوحدات المئوية الثمانية عشر التي

كانت تصوت في « الجمعية المئوية » [١] . وهم من الفرسان الذين تتراوح أعمارهم بين ثمانية عشر إلى خمسة واربعين سنة وتزودهم الدولة بجواد على نفقتها [٢]. وهنالك فريق آخر من الفرسان كانوا يتكفلون باقتناء جواد على نفقتهم الخاصة . وآخرون ممن تجاوزوا سن الخامسة والاربعين ولكن كانوا يتمتعون بمقدار من الثروة يؤهلهم لعضوية طبقة الفرسان .

هذه الطبقة تألفت بدورها من عنصرين : فئة الاغنياء الذين اعتبروا الرديف الطبيعي للطبقة الارستقراطية في شغل وظائف الدولة . وفئة الفرسان الذين اهتموا بالاعمال المالية من تعهدات والتزام ضرائب واقراض اموال ... وخاصة التزام تعهدات الجيوش الرومانية . وقد اطرد ازدهار هذه الفئة وازدياد ثرائها مع حركة التوسع الروماني في البحر المتوسط . لذلك لا عجب أن وقفت طبقة الفرسان تؤيد سياسة التوسع والفتح واستغلال موارد البلاد المخضعة . ولايخفى أن المركز الكبير الذي احتلته الثروة في المجتمع الروماني قد أثر على خصائص هذا المجتمع الاخلاقية ، وأفسد اخلاق افراده بالرشاوى ، ووجه سياسة الدولة في الطريق المعاكس الذي يخدم مصالح الاقلية الرأسمالية على حساب الاكثرية من عامة الشعب .

أما الطبقة الثالثة في المجتمع الروماني وهي **طبقة العوام** . التي تتألف من ابناء الريف وسكان المدن الايتالية فقد اضعفتها سلسلة الحروب الطويلة وذهب افرادها وقوداً لها . وتقدر الاحصاءات التي اجريت في القرن الثاني ق . م ان عدد المواطنين الرومان الصالحين للخدمة العسكرية قد نقص بين الاعوام ١٦٤ إلى ١٣٦ ق . م بمقدار عشرين الف مواطن .

---

(١) راجع اعلاه ص ١١٦-١١٩ حول تشكيل الجمعية المئوية من القبائل الرومانية .

(٢) راجع تطور طبقة الفرسان في أوائل العصر الامبراطوري في مؤلفنا : تاريخ الرومان ، الجزء الثاني ، ص ٣٢- ٣٤ .

وقد تدخل المحامون مرات عديدة لحماية الفلاحين من الدعوة للخدمة العسكرية. ومما لاريب فيه أن الفلاحين من حلفاء ايتاليا قد عانوا نفس الخسائر، مما اضطرهم للرحيل باعداد كبيرة نحو مدينة روما وهجر مدنهم ومزارعهم. وبالتالي قاست الاراضي الزراعية في شبه جزيرة ايتاليا من فقدان صغار المزارعين الذين ابتلعتهم الحروب البونية والماكدونية .. كما أن الجنود ابتعدوا بسببها عن مزارعهم مدداً تزيد على موسمين. ولا ننسى الدمار الذي انزلته حملة هانيبال بالمزارع الرومانية. وفي الحقيقة انعكست الاضرار في فترة ما بعد الحرب على الطبقة الثالثة بأجلى شكل. فالجنود المسرحون اضطروا خلال الحرب لرهن مزارعهم واراضيهم لاعالة اسرهم. وعندما عادوا إلى ايتاليا وجدوا من المتعذر عليهم البدء من جديد بل لم يكن أمامهم إلا بيع الاراضي المرهونة إلى اثرياء الطبقة النبيلة، الذين اصبح همهم انفاق الثروات الكبيرة التي جمعوها منذ الحروب البونية الأولى في شراء الممتلكات الواسعة من الأراضي الزراعية. وبالتالي اضطر الفلاحون الى التوجه نحو مدينة روما. فضاعفوا عدد سكانها وانضموا الى جموع «غوغاء» المدينة الذين أصبحوا العنصر الرئيسي في الحملات الانتخابية وفي المهرجانات والاحتفالات العامة وفي الضغط على السلطات الحاكمة. وهذا ماخلق مشكلة تأمين الغذاء أي القمح اللازم لجموعهم بأسعار زهيدة، وعرّض مدينة روما الى أزمات شديدة تفاقمت خلال السنوات الاخيرة من العهد الجمهوري.

اخيراً برزت في المجتمع الروماني فئة جديدة من الناس كانت غريبة كلية على شبه الجزيرة الايتاليـــة. اذ لم تقتصر حروب روما التوسعية في اطراف البحر المتوسط على مغانم مادية وارضية، بل عادت عليها بمكاسب بشرية أيضاً تألفت من الآف الاسرى الذين سيقوا

الى أسواق الرقيق ليباعوا في ايتاليا . وقد بلغ عدد أسرى الحروب الذين تحولوا الى عبيد في ايتاليا في الفترة الواقعة بين مطلع ومنتصف القرن الثاني ق.م بحوالي ربع مليون رقيق . يضاف اليهم عدد ضخم من الرقيق الذين تقذفهم الى الاسواق مراكب القراصنة العاملين في مناطق بلاد اليونان الشرقية . وبالطبع سد هذا العدد الكبير من الايدي العاملة البخسة الثمن النقص الحاصل في مزارع ايتاليا وفلاحيها . خاصة ان نظام الزراعة الجديد الذي انصرف عن زراعة القمح الى زراعة الكرمة والزيتون والخضار والثمار ، كان بحاجة الى المزيد من الجهود البشرية [1] . كما ان ملاكي الاراضي الكبار من الشيوخ والارستقراطيين كانوا يفضلون العبيد للعمل في مزارعهم الواسعة . فهولاء البؤساء يمكن انتزاع جهودهم بلا مقابل ، اذ ليس لهم حقوق ولا يطلبون بعكس الفلاحين الايتاليين للخدمة العسكرية . وهم يعملون في المزارع في أقسى الشروط مكبلين غالباً بالاغلال ، وينامون في أقبية السجون الجماعية . وقد نصح كاتو بمعاملتهم كالمواشي ، وبالتخلص منهم بعد أن تعتصر قواهم في خدمة المزارع . ولعل اقرب مثال للمشكلة الاجتماعية والانسانية التي خلقها وجود اعداد كبيرة من الرقيق المضطهدين في ايتاليا نجده يتكرر في العصور الحديثة بين ملايين العبيد من الزنوج الذين نقلوا إلى جنوب الولايات المتحدة للعمل في مزارع القطن . ومن الطبيعي أن تتفجر عناقيد الغضب بين صفوفهم معبرين عن احتجاجهم على الظلم الكبير في ثورات عديدة ، لسوف نتعرض للآثار التي خلفتها في المجتمع الايتالي في الفصول التالية [2] .

---

(١) تطلبت المزرعة المؤلفة من ٦٦ هكتار أجهود ستة عشر عبداً على الاقل لخدمتها .

(٢) راجع ثورة العبيد في صقيلية بقيادة أوينوس السوري ؛ وثورة المصارعين المسماة ثورة سبارتاكوس ، ودور المغانيق في عهد الامبراطور كلوديوس .

ب ـ الحياة الاقتصادية :

لايمكن اتمام دراسة التأثيرات الناتجة عن الحروب التوسعية دون أن نتعرض للناحية الاقتصادية في المجتمع الروماني في الفترة الواقعة بين ٢٥٤ إلى ١٣٣ ق.م . فقد طرأ على الاقتصاد الروماني تغيرات عميقة الأثر انعكست آثارها على تطور المجتمع نفسه ووجهته . فالطبقة الارستقراطية الحاكمة أصبحت تتمتع بثروات ضخمة تدعم نفوذها السياسي . وكان افضل مجال لاستثمار هذه الأموال حسبما شرحه السياسي كاتو يتلخص في شراء الاراضي الزراعية والمزارع الكبيرة لتربية الحيوانات . واستخدام العبيد لانتاج محاصيل على نطاق واسع ، لم يكن الغاية منه تأمين حاجات الاسواق المحلية ، بل توجهت الاستثمارات الزراعية في القرن الثاني نحو التصدير إلى الأسواق الخارجية . وفي هذا السبيل لم تر الارستقراطية الرأسمالية مانعاً من ابتلاع المزارعين والملكيات الزراعية الصغيرة ، بان تشتري منهم أراضيهم . لذلك ازدهر الرأسمالي المزارع على حساب المزارع الصغير . واستفاد ملاكوا الاراضي الكبار الآن من خبرات المزارعين القرطاجيين لتحسين الانتاج الزراعي وتوسيع رقعته . كذلك عاد احتكاك الرومان بشعوب وعالم الحضارة الهلنستية المتقدمة على الاقتصاد الروماني بأكبر الفوائد . ولم يقتصر الثراء المالي على الطبقة الحاكمة ، بل شمل الدولة الرومانية ككل عندما انصبت عليها ضرائب وجزيات البلاد المفتوحة ومناجمها . كذلك وضعت الدولة الرومانية يدها على مساحات واسعة من الاراضي الزراعية في جنوب ايتاليا سواء تلك التي كانت حملة هانيبال قد دمرتها واخلتها من سكانها ، أو تلك التي آزر ملاكوها العدو القرطاجي وانضموا اليه مثل أهالي مدينة كابوا .

وقد أعفت الدولة أبناءها من القيود الجمركية المفروضة على البلدان

الخاضعة لروما ، وأعطتهم امتيازات في التجارة وخففت عليهم الضرائب . أما تحصيل الضرائب من المقاطعات الرومانية وتلزيم التعهدات والأعمال العامة فقد كانت موضع استثمار رجال المال من طبقة الفرسان ومن الموظفين الكبار وطبقة رجال الاعمال الناشئة . ويمكن القول أن مصالح الشيوخ والفرسان المادية كانت تلتقي وتسير متوازية سواء في شراء الأراضي الزراعية الواسعة أو في عمليات اقراض الأموال ، التي كان رجال الطبقة الأولى لايستطيعون ممارستها شخصياً . فقد حرم عليهم منذ عام ٢١٨ بموجب قانون خاص تعاطي الأعمال التجارية خارج ايتاليا . لذلك كانوا يتهربون من القانون بتعيين وكلاء ومكاتب لهم في المقاطعات لممارسة عمليات اقراض الأموال بفوائد كبيرة ، يحيطونها كما هو متوقع بحمايتهم ونفوذهم . وعلى كل حال بقي المجال في هذا المضمار مفتوحاً أمام أفراد طبقة الفرسان أكثر من طبقة الشيوخ . فالتفت الاخيرون بصورة طبيعية إلى استثمار أموالهم ضمن ايتاليا في مشاريع زراعية لاتتضارب مع حرمة المناصب التي يشغلونها في الدولة . ولا يخفى أن التنافس على المكاسب المادية بين طبقتي الشيوخ والفرسان سيستفحل أمره ويجد التعبير عنه عندما يتحول إلى صراع سافر للسيطرة على الحكم . خلاصة القول دفعت الظروف السياسية الاقتصاد الروماني في القرن الثاني ق . م لأن يتجه اتجاهاً رأسمالياً نمّاه واشرف عليه فئة الأوليغارشيين أي ممثلوا النخبة العليا من الاسر النبيلة ، الذين ارتبطت سياسة الدولة الرومانية بمصالحهم الشخصية الخاصة .

نتج عن الاقتصاد الرأسمالي في الزراعة والتجارة مشكلة خطيرة لم تحسب الامبراطورية الناشئة لها حساباً . إذ أن اتساع ملكيات الأراضي الزراعية في ايتاليا نفسها قضى على الفلاحين الصغار الذين يعتبرون الخلايا

الاساسية في المجتمع الروماني . فمن الطبقة المتوسطة والعوام جندت روما الجيوش الجرارة التي أمنت لها بنجاح وضع مبادىء الوحدة الايتالية والدفاع والرومنة موضع التنفيذ . والآن وقد اتسعت أعباء الدولة الجديدة وازدادت حاجاتها إلى الحاميات العسكرية للدفاع عن المقاطعات المفتوحة، تجد روما أن رصيدها البشري في القوة المحاربة يأخذ طرداً بالتناقص والانكماش . وما ذلك إلا بسبب ابتعاد الفلاحين عن وسطهم السابق، وهجرهم للزراعة في وقت لم تكن الصناعة قد نمت إلى درجة تستطيع استيعاب أعدادهم الكبيرة . علاوة على ذلك وجد الفلاحون في آلاف العبيد منافساً خطراً لهم ينتزع منهم لقمة العيش . وكما يتضح كان الوضع الاقتصادي في ايتاليا في القرن الثاني يتطلب معالجة سريعة واصلاحاً جذرياً يؤمن للبلاد اقتصاداً سليماً وبالتالي سياسة ناجعة في الداخل والخارج . إلا أن الاوليغارشية والمتمولين الرومان كانوا يزدادون ضراوة في المقاومة كلما صدرت دعوة للاصلاح الاقتصادي . مما يضطر القنصل لايليوس Laelius قنصل عام ١٤٠ للتراجع عن المقترحات التي وضعها لاعادة توزيع أراضي الدولة . ولن يكتب لمثل هذه المحاولة ان تنفذ إلا بعد سبعة عشر عاماً على يد المصلح تيبريوس غراكوس وشقيقه جايوس من بعده اللذين سيدفعان حياتهما ثمناً لها .

جـ ـ التطور الحضاري والتأثيرات الهلنستية في روما :

تعرضنا في الفصول الأولى إلى التأثيرات الاغريقية التي تلقاها المجتمع الروماني عن طريق احتكاكه بالمستعمرات الاغريقية المنتثرة في جنوب ايتاليا وفي جزيرة صقيليه [1]. والتي كان لها دور ضئيل في تطور الحضارة الرومانية خلال العهود الجمهورية الباكرة بسبب نمط الحياة المغلقة الذي

(١) راجع اعلاه ص ٦٢ – ٦٥ ؛ ص ١٣٤ ؛ ١٤٢ .

كان الرومان في أواسط ايتاليا يتبعونه . وعلى العموم اتصفت اتصالات الرومان الباكرة بالحضارة الاغريقية بكونها غير مباشرة ، فلم يتعرفوا على منتجات الحضارة الاغريقيـــة في عهودهـا الكلاسيكية المزدهرة . أما الآن وبعد أن احتل قادة رومـا جزيرة صقلية، وتوغلوا في الشرق الاغريقي ــ الهلنستي وخاصة في آسيا الصغرى،فانهم لم يطلعوا على منجزات الحضارة الهلنستية فحسب بل عادوا إلى بلادهم مثقلين بالاسلاب من شتى الفنون والصناعات من التماثيل البرونزية والحجرية التي نصبوها في الساحات العامة لتجميل مدينة روما وفي المدن الايتالية . واللوحات التصويرية التي تحمل مواضيع منتزعة من الميثولوجيا والأدب الاغريقي . ولاعمدة الرخامية ، والأواني الفضية ، حتى أن ايتاليا غدت مثقلة بروائع الفن الهلنستي والاغريقي . فأصبحت بالضرورة مصدر وحي للفنانين الاغريق والرومان الذين عكفوا على تقليدها . أما من النـاحية الفكرية فقد كانت الغنيمة مضاعفـة إذ عاد القائد الروماني اميليوس باولوس من ماكدونيا بمكتبة الملك برسوس، التي أهداها بدوره إلى ابنه سيبيو اميليان . وقـــد حرص باولوس على تثقيف ابنه بالثقافة الاغريقية ، وأصبح من الشائـع لدى الارستقراطيين الرومان أن يسندوا تربية أبنائهم إلى مربين اغريق . وفي هذا المجال استفاد الرومان كثيراً من أفواج الرهائن [1] الذين أخـــذوهم من البلاد اليونانية وعاشوا سنين طويلة في ايتاليا . وكان من بينهم المؤرخ الكبير بوليب . ويقال إن عـدد الاسرى الذين نقلوا إلى ايتاليا عـام ١٦٧ عقب فتح مملكة الابيروس بلغوا مائة وخمسين الفاً كان من بينهـــم الكثير من المثقفين أمثال الـكاتب الكوميـدي تيرنس . فاشتركوا مـع الفلاسفة الاغريق الذين قدموا عام ١٥٥ إلى عاصمة العالم الجديدة في نشر الثقافة الاغريقية وفي تطعيم الفكر الروماني بتيارات جديـدة لم تقتصر

---

(١) راجع احتلال روما للعالم الهلنستي ص ١٨٥ .

على الادب والفن والفلسفة بل تجاوزتها إلى الدين والمعتقدات الدينيـة . ومن الطبيعي أن تنتشر في المجتمع الروماني في تلك الفترة افكار مذاهب الشك والالحاد وعقيدة ديانة ديونيزوس . كل هذه التيارات الثقافية الهلنستية تقبلها الرومان بالنظر لحرمانهم من وجود ثقافة قومية متطورة ، ولكن رد فعلهم تجاهها مايلبث أن يظهر قريباً إلى الوجود . وعلى العموم أقبل الرومان على اقتباس المنجزات المادية للحضارة الهلنستية مثل الاثاث والبيوت وأدوات الترف وفنون طبخ الطعام ووسائل التسلية والحلاقة . وكان أول حلاق يدخل إلى مدينة لاتينية في العـام ٣٠٠ ق . م قادماً من صقلية . وبالطبـع كان أفراد الطبقة الارستقراطية الرومانية في طليعـة المتأثرين بالحضارة الهلنستية ، فانعكست آثارها في قصورهم ونمط معيشتهم .

اتصفت فترة القرن الثاني قبل الميلاد بنشوء الأدب الروماني نتيجـة احتكاك الكتاب الرومان بالثقافة الهلنستية . إذ تزايد الطلب على المؤلفات الادبية بالنظر لوجود من يتذوقها . فاقتصرت البدايات الأولى في أواخر القرن الثالث على تقليد نماذج الادب الاغريقي . وظهر الشعر في طليعة هذه الاعمال حينما ترجم الاديب الاغريقي اندرونيكوس أحد معاتيق مدينة تارنت ملحمة هوميروس « الاوديسة » إلى اللغة اللاتينيـة لكي يستفيد منها طلاب المدارس . ثم يترجم مأساة اغريقية ومسرحيـة كوميدية لتمثل في الاحتفالات الشعبية . وشاركه في هذا الاتجاه الأديب الايتالي نيفيوس Naevius الذي أخرج مسرحيات جديدة الفها من حبك مواضيـع مستعارة من أصول اغريقية . كما كتب مسرحيات ذات مواضيـع رومانية صرفة . كذلك كتب ملحمة شعرية عن الحرب البونية الأولى تعتبر أميز منتجاته الادبيـــة . والف الشـاعر كوينتوس انيوس قصة شعرية اسماهـا

« الحوليات » Annals . استعرض فيها تاريخ روما منذ بداياتها الاسطورية حتى قبيل وفاته عام ١٦٩ ق . م . وحظيت باعجاب وتذوق الاجيال الرومانية لها . وبالوقت نفسه اشتهر انيوس بأدب المأساة وبالمؤلفات القصيرة التي ضمنها الأفكار الفلسفية الاغريقية .

أما أدب المسرحيات فقد ازداد عدد مؤلفاته ، خاصة عندما أدخلت عادة اقامة حفلات المصارعة اعتباراً من القرن الثالث . فقد أصبح أدباً لتسلية الجماهير وامتاعهم بعرض الكوميديات خلال مهرجانات الدولة واحتفالاتها الدينية . فكانت القطع المسرحية تقتبس من الكتاب الاغريق وفي مقدمتهم الكاتب الشهير ميناندر Menander . وقد ذكرنا من كتاب الأدب المسرحي ليفيوس اندرونيكوس وتيرنس ، ونيفيوس (بالنسبة لأدب المأساة) .

ويعتبر الأديب فابيوس بيكتور أول من كتب تاريخ روما باللغة الاغريقية المنثورة . ثم يتلوه المراقب كاتو في تدوين كتاب للتاريخ باللغة اللاتينية يعالج بداية روما والدول اللاتينية وحروب روما من عام ٢٦٤ إلى ١٥٠ ق . م . وما تلبث اللغة اللاتينية أن تأخذ مكانها رويداً رويداً في التأليف الأدبي بعد أن كانت اللغة الاغريقية مفضلة لدى الكتاب وبخاصة لدى المؤرخين وكتاب الحوليات . واستطاع أساتذة فقه اللغة والنحو أن يصقلوا اللغة اللاتينية وأن يشذبوها ويغنوا فقرها بالمفردات . وما أن يحل العام ١٣٣ حتى تغدو اللغة اللاتينية لغة الكتابة والخطابة تمرس بها خطباء المجتمع الروماني استناداً إلى اتقانهم للتراث الأدبي الهلنستي .

إذا استفضنا في اظهار دور الثقافة الاغريقية الهلنستية التي أثرت موجتها في القرنين الثالث والثاني ق . م على مجتمع شبه جزيرة ايتاليا فلا يعني ذلك أن دور الرومان اقتصر دوماً على التلقي والاستعارة .

وبالمثل لايصح الاستنتاج من ذلك أن الثقافة الرومانية كانت مجرد فرع للحضارة الهلنستية . وقد ظهر التغير الحادث على الافكار المنقولة في الاستقلال الذي مارسه الرومان في أواخر القرن الثاني ، وذلك في رفضهم للتبعية الفكرية . فالروماني المزارع في الاصل كان مادياً يهتم بما يعود عليه بالفائدة ويترك المواضيع النظرية المجردة[1] . وتتجلى مقاومة الرومان للثقافة والعادات الاغريقية في أفكار السياسي والاديب الشهير كاتو Cato . فهو يوجه نصيحته إلى ابنه معطياً اياه خلاصة رأيه في الاغريق حينما يقول : « سأريك نتائج تجربتي في أثينا : إنها لفكرة حسنة أن تنهل من أدبهم ولكن عليك أن لاتتعلمه كلية . وسأقنعك بأن الاغريق أكثر الشعوب ظلماً وشراسة ، ويمكنك أن تأخذ نصيحتي باعتبارها كلمة نبي : حينما تخلع تلك الأمة أدبها علينا ، فان ذلك سيفسد كل شيء[2] » .

ولربما ساهم كاتو في طرد المفكرين الابيقوريين وفي اقصاء المربي كارنياديس من بعدهم . لأن مذاهب الشك الفلسفية زعزعت مجتمع مدينة روما ، عندما كانت تعلن بان العدل هو المبدأ الاساسي في العالم ثم تعمد في اليوم الثاني إلى نسف هذا الرأي ؛ أو كانت تتعرض للشك بآلهة الميثولوجيا الاغريقية – الرومانية .وبالمقابل لاقت الفلسفة الرواقية بتعاليمها الاخلاقية العملية استجابة وقرباً من الطباع الرومانية .

---

(١) دليل ذلك أن من أوائل المؤلفات باللغة اللاتينية كتاب ألفه كاتو عن الزراعة في أول القرن الثاني ق . م . أوضح فيه كيف يتوجب على الفرد استثمار أمواله بشراء الأراضي الزراعية وزرعها باشجار الزيتون والكرمة والقمح ...

(٢) Pliny, Natural History 29. 1. 14 ; Tr. Lewis and Reinhold, Roman Civilisation 1, P. 491.

أما في الفن والهندسة المعمارية فقد تابع الرومان تبني الانماط الاغريقية وخاصة في التماثيل والمنحوتات . وعلى الرغم من قلة الاوابد المتبقية في هذه الفترة، تؤكد بقايا مدينة بومبي تحول اتجاه الهندسة المعمارية الرومانية عن النماذج الاغريقية إلى **النموذج القومي الروماني** في حوالي نهاية القرن الثاني . ولربما تعود جذور هذا الفن إلى مزيج من تقاليد الفن الايتالية - الاتروسكية التي قامت في المنطقة الواقعة شمالي نهر التيبر، والفن الاوسكي - الكامباني الذي ازدهر في جنوب ايتاليا. ومن الواضح أن الفن الاغريقي ساهم إلى حد كبير في التأثير على الفنون المحلية الآنفة الذكر ، وخاصة في مدينة روما نفسها . ويفصح الفن القومي الروماني عن ميل إلى المنجزات المعمارية ذات الطابع العملي اكثر من ميله إلى المواضيع الزخرفية. فتتجلى هذه النزعة في بناء الطرق المعبدة التي تربط المراكز الايتالية بشبكة من المواصلات الممتازة ، وتزويدها بالجسور والقنوات التي يسود فيها استخدام الأقواس . كذلك يتجلى الطابع الروماني الخاص في الابنية التي تميل إلى تفضيل المخططات الدائروية الشكل . ولعل مخططات المعابد الدائروية الصغيرة الحجم تنحدر من الاكواخ الدائروية الباكرة الخاصة بحضارات تيرامارا وفيلانوفا [1] . ويتجلى استقلال الاسلوب الروماني في مواضيع الرسوم الزيتية والمنحوتات المدنية التي شاعت في القرن الثاني ، فساد الأولى ميل إلى الاتجاه الطبيعي في التعبير عن الحركة مع الاحتفاظ بشيء من التصاميم الزخرفية . أما المنحوتات فقد شاعت الى حد كبير في المجتمع الايتالي ، وازدهر منها على الأخص فن نحت التماثيل النصفية التي تصور كبار رجال الطبقة الارستقراطية وحكام الدولة في أوضاع تتميز بالواقعية الشديدة وصدق التعبير . وزينت بها باسراف كبير الساحات

---

(١) راجع أعلاه ص ٤٧ .

العامة وحدائق البيوت الخاصة . ولحسن الحظ تبقى التماثيل الرومانية المصنوعة في القرن الثاني وثائق هامة تفصح عن شخصية اصحابها ومراتبهم الاجتماعية .

أما من الناحية الاجتماعية فقد تميزت الحياة في مدينة روما خلال القرن الثاني بفعالية عمرانية ضخمة . فقد دشن في هذه الفترة مالا يقل عن خمسة عشر معبداً أو حرماً صغيراً من بينها معبدان دشنا عام ١٤٦ للالهة جوبتر وجونو . وقاعتـــان عامتان مارس رجال الاعمال والحكام أعمالهم فيها ، بالاضافة الى عدد من الابنية العامة والابنية الخاصة ذات الطوابق المتعددة ، والاسواق الخاصة ببيـع اللحوم والاسماك . وقامت الأقواس المزينة بالتماثيل تخلد الانتصارات الرومانية توصل اليهـا طرقات وشوارع مبلطة ، ومجهزة بمجارير لتصريف المياه . أما قنوات المياه العذبة التي تمد المدينة بالمياه فقد ازداد عددها ايضاً . وفي الحقيقة تعبر الحركة العمرانية التي شملت عاصمة عالم البحر المتوسط الجديدة وازدحام مدينـة روما نفسها بالسكان عن الثروات الوفيرة التي استطاعت أن تغير معـالم المدينة . وقد ساهمت الاعياد والحفلات والمهرجانات العامة والخاصة في اعطاء المدينة طابعاً حياً مرموقاً . اذ أن بعض الاعياد كانت تستمر عدة أيام . كان أهمها ستة أعياد سنوية تمنح الدولة مبالغ محددة من المال لتغطية نفقاتها ، الا أن الجانب الاكبر من نفقاتها كان يغطيها الحاكم المسؤول عن الاحتفال وهو عادة الحاكم الاداري أو الحاكم القضائي. فكانت الاحتفالات مسرحاً لعرض سخائه أمام الجماهير واكتساب شعبيتها. وتتخلل الاحتفالات سباقات الخيل والعجلات ، وصيد الوحوش المفترسه ، ومعارك المصارعين. أخيراً ما أن تشرف نهاية القرن الثاني ق . م على الانتهاء حتى يكون المفكرون والفنانون الرومان قد بدأوا يقدمون ثمار دخول الحضارة الهلنستية

الى مدينة روما . ولا عجب أن جاءت منتجاتهم طباقاً يتألف من الاشكال والأسلوب الاغريقي مع الروح الرومانية. يمكن أن يطلق عليها بشكل عام الحضارة الاغريقية – الرومانية ، أو ربما يصح أن نطلق عليها اسم حضارة الطبقة العليا في عالم البحر الابيض المتوسط .

٢ – اصلاحات الأخوين جراكوس والصراعات الاجتماعية :

يستدل من التطورات التي عاناها المجتمع الروماني عقب الحروب التوسعية أن الدولة الرومانية لم تتمكن من الناحية السياسية أن تعيد النظر في أنظمة مؤسساتها السياسية لتجعلها تتلاءم مع متطلبات أمة غدت تهيمن على معظم بلاد البحر المتوسط . خاصة أنها ظلت تتمسك بنظام دولة المدينة بمجالسه واحزابه المتنازعة من جهة . ومن جهة أخرى صمم الاوليغارشيون الحاكمون والفرسان كل على الاحتفاظ بالامتيازات والمكاسب التي حصل عليها ، دون أن يأخذوا بعين الاعتبار الغبن الفاحش الذي لحق بالطبقة الثالثة التي برهنت الأحداث على أنها دعامة المجتمع الروماني الاقتصادية والعسكرية . وبما أن التناقضات السياسية بين الحزبين الرئيسيين الخواص والعوام تظهر سافرة خلال المعارك الانتخابية في مدينة روما وتهيء للاصطدام المحتوم بينهما ، فقد نتج عن ذلك قيام زعماء في صفوف الفريقين احتل طموحهم الشخصي ومؤامراتهم مع اتباعهم ومؤيديهم المركز الأول في الصراع الدائر على مسرح السياسية الرومانية في الجزء الثاني من العهد الجمهورى . وما يلبث الصراع أن يعم في أنحاء الامبراطورية بالنظر لاشتراك عامل حاسم فيه وهو السلطة العسكرية الفردية ، التي رفعت رأسها منذ الحروب البونية وشعر قادتها نتيجة للانتصارات التي احرزوها بقيمة دورهم في التأثير على الاحداث وتوجيهها

لا في المقاطعات والبلدان المخضعة فحسب ، بل وفي شبه الجزيرة الايتالية بالذات . لذلك كان من الطبيعي أن يميل الزعماء المتصارعون إلى الاعتماد على القادة العسكريين لدعمهم في الوصول إلى السلطة والسيطرة على الحكم . إلا أن هذا الحل لم يكن يتلاءم مع الأنظمة الدستورية التي قامت عليها الجمهورية الرومانية من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يكن التدخل العسكري ليؤمن حلاً ناجعاً لمشاكل المجتمع وعلى الأخص مشكلتيه الرئيستين : آ- اعادة تشكيل الطبقة الوسطى عن طريق اعادة النظر في توزيع الأراضي الزراعية ووضع حد للملكيات الكبيرة .ب- وايجاد توازن بين فئات المجتمع يمكن معه تطبيق الأنظمة الدستورية بشكل سليم . هذه الاصلاحات الجذرية كانت بحاجة قبل القوة العسكرية إلى زعماء يؤمنون بها وبضرورتها للمجتمع ، ولا يتأخرون عن تبنيها والكفاح من أجلها . ومن أجدر بتفهم قضيه الطبقة الوسطى وحاجاتها من زعيم ينبع من بين أفرادها !

تيبريوس جراكوس ومحاولته تطبيق الاصلاح الزراعي :

كان تيبريوس جراكوس وشقيقه جايوس أبناء نبيل من نبلاء إحدى أسر العوام هي اسرة جراكوس ، التي توصلت إلى مناصب الحكم في مدينة روما . وقد ارتبطا بالقرابة بأسرة كورنيلي النبيلة عن طريق والدتها كورنيليا ابنة القائد الكبير سيبيون الافريقي . وقد توفر لتيبريوس جراكوس قبل أن يصل إلى منصب المحاماة عام ١٣٣ ثقافة وافية تأثرت بالثقافة الاغريقية وخاصة بالفلسفة الرواقية ، بفضل عناية والدته . وعمل في شبابه خازناً في اسبانيا واشترك في الحروب التي شنتها روما لاخضاع الشعوب الأسبانية (اللوزيتانية) الثائرة.وتميز بالشجاعة والامانة في معاملة أبناء اسبانيا ، كما ألم بحاجات روما العسكرية . وقد

رأى تيبريوس الخطر الذي يتهدد الدولة الرومانية من جراء انحطاط المزارع الصغيرة في ايتاليا ، واضطرار مالكيها لتركها والهجرة إلى المدن بحثاً عن العمل والقوت . لذلك يبادر فور انتخابه لمنصب المحاماة إلى وضع قانون يهدف لاعادة تأسيس واحياء فئة المزارعين الصغار الذين غدا تناقصهم الملحوظ يهدد بالخطر قوة روما العسكرية والاقتصادية. إذ أن روما كانت تعيش في القرن الثاني على استغلال موارد المقاطعات المفتوحة . أما العبيد الذين تعج بهم مزارع الارستقراطيين فقد أراد تيبريوس أن يخفف عنهم قسوة حياتهم وأن يساعدهم على التحرر والتحول إلى عناصر تدعم المجتمع الروماني وتغنيه بروافد جديدة . ولم يكن تيبريوس متطرفاً في الاصلاحات التي ارتآها ، بل كان يستعين بالقوانين القديمة مثل قانون ليسينوس،ويحاول اعادة تنفيذها. وينص القانون الذي اقترحه على تحديد المساحة القصوى من أراضي الدولة التي يحق للفرد امتلاكها بـ٥٠٠ يوجرة lugera أي حوالي (٢٥٠ هكتاراً) . كما أبدى تسامحا حينما أتاح لولدين من أبناء الأسرة بامتلاك ٢٥٠ يوجرة لكل منهما. وبذلك تصبح المساحة القصوى التي يحق للأسرة امتلاكها الف يوجرة . وبالتالي توجب على الرومان اعادة المساحات الفائضة عن هذا الحد إلى الدولة ، وحرم عليهم امتلاك أي مساحة خلافها من أراضي الدولة . أما الأراضي التي تقل مساحتها عن الحد الاقصى الذي وضعه تيبريوس فانها تمنح إلى مالكيها إلى الأبد دون فرض ضريبة أو أجرة عليها . كذلك توجب على الدولة أن تعوض للأفراد عن التحسينات التي أدخلوها على أراضيهم الزائدة عن الحد المقرر . وبالتالي توزع المساحات الفائضة التي استردتها الدولة على صغار المزارعين الذين لا يملكون أرضاً بعد تقسيمها إلى قطع صغيرة يدفعون للدولة اجراً إسمياً عنها؛ يورثوها لأولادهم ولكن لا يحق لهم بيعها.

هذا القانون المعتدل الذي ينظم عملية الاصلاح الزراعي لم ينفرد تيبريوس بوضعه بل ساعده في ذلك زميله القنصل سكافولا قنصل عام ١٣٣ ، الذي يعتبر من المع حقوقيي عصره ، ووالد زوجته السياسي المعروف ابيوس كلوديوس ، وموسيانوس الذي سيعين قريباً لمنصب الكاهن الأعظم . وقد حددت لجنة ثلاثية للاشراف على تنفيذ القانون يتناوب أعضاؤها الرئاسة فيها كل سنة .

رغم كل الاعتدال والتسامح الذي اتصف به قانون تيبريوس نراه يقابل من الطبقة الأوليغارشية ومن الملاكين الكبار بالمقاومة العنيفة التي صممت رغم شعورها بضرورة الاصلاح الزراعي على سد الطريق أمام أي محاولة من هذا القبيل . وقد دفع الشيوخ المحامي اوكتافيوس زميل تيبريوس إلى ايقاف القانون باستخدام حق النقض ضده [١] ، بعد أن طلب تيبريوس من المجلس التصويت على قانونه . فشعر تيبريوس بضرورة دعم الشعب له لمقاومة التكتل الاوليغارشي الارستقراطي لكي تصوت القبائل على طرد خصمه من منصبه . وبالفعل صوتت القبائل على اقصاء المحامي اوكتافيوس ، رغم أن هذا الاجراء يشكل سابقة غير دستورية تعتبر الأولى من نوعها في تاريخ العهد الجمهوري . وبالتالي تم اقرار قانون الاصلاح الزراعي وشكلت لجنة ثلاثية تألفت من تيبريوس جراكوس ، وشقيقه جايوس ، وحميه ابيوس كلوديوس خولت صلاحية الفصل في موضوع الاراضي التي تزيد عن الحد المقرر . وكما هو متوقع كان هذا الموضوع شائكاً معقداً نظراً لتشابكه ولفقدان الحدود . على كل أصبح القانون الآن ساري المفعول من الناحية الشرعية . غير أن مجلس الشيوخ يعمد إلى اعاقة أعمال اللجنة الثلاثية عن طريق حجب الاعتمادات

(١) راجع رأي المؤرخ تيودور مومسن عن وظيفة المحاماة ص ١٣٢ .

المالية اللازمة لأعمالها ، والتي كان من ضمنها المساعدات المالية التي ستعطى للمزارعين الذين سيتم توطينهم في رقع الارض الصغيرة المخصصة لهم ، والتي تبلغ مساحة الواحدة منها حوالي ٣٠ يوجرة. ويلجأ تيبريوس مرة أخرى لانتهاك اختصاصات مجلس الشيوخ – الذي يشرف عادة على الشؤون المالية والخارجية للمقاطعات – وذلك عندما يحول إلى الشعب ثروة الملك اتالوس الثالث الذي أوصى بمملكة برغامون قبل وفاته إلى روما [1]. ويحرم مجلس الشيوخ منها .

اضافة إلى ذلك لجأ تيبريوس إلى تقييد بعض صلاحيات الشيوخ ومضايقتهم . ولايلبث أن يقرر اعادة ترشيح نفسه لمنصب المحاماة للعام ١٣٢ لكي يضمن استمرار تنفيذ قانون الاصلاح وليكون بمنجاة من انتقام خصومه . الا أن أعمال الشغب تنبثق بين أبناء روما بتحريض من الارستقراطيين الذين صمموا على منع انتخاب تيبريوس مرة ثانية ، فيتصدى لهم أنصاره في ساحة الفوروم . ولكن أعدادهم القليلة لاتستطيع مقاومة جموع اتباع الشيوخ وعبيدهم ، فيلقى تيبريوس وثلاثمائة من أنصاره حتفهم عند الكابيتول وتلقى جثثهم في نهر التيبر إثر مذبحة رهيبة . بذلك أريقت دماء حسب الارستقراطيون المنتصرون أن اهراقها سيقضي على كل أمل في اصلاحات اجتماعية مقبلة . إلا أن دماء تيبريوس وانصاره جاءت بداية لقرن من الصراع الدموي العنيف ستهتز له أركان المجتمع الروماني وتتقوض في نهايته دعائم النظام الجمهوري إلى الأبد .

على الرغم من أن مجلس الشيوخ يشكل لجنة قضائية برئاسة قنصلي تلك السنة لتصفية الشعبيين من اتباع تيبريوس والتخلص منهم ، فان اللجنة

---

(١) راجع ص ١٨٩ .

المنبثقة عن قانون الاصلاح لاتتوقف عن ممارسة نشاطها بل تستمر فيه حتى عام ١٢٩ ق.م . فينضم إلى عضويتها كل من فلاكوس وكاربو عام ١٣٠ ق.م . ملأً للشواغر الناتجة عن موت الاعضاء كراسوس وموسينيوس . وقد قامت اللجنة باعمال هامة في محاولة لتحديد أراضي الدولة وجمع الاراضي الزائدة عن الحد المسموح للأفراد تملكه . لكن أعمالها تصادف مقاومة جابهها بها حلفاء روما من الايتاليين الذين نازعوا اللجنة حقها في تحديد أراضيهم ، واعتبروا عملها خرقاً للتحالفات القديمة المعقودة بينهم وبين مدينة روما . وعهدوا إلى القائد سيبيو اميليانوس بعرض قضيتهم أمام مجلس الشيوخ لوضع حد للاضرار التي انزلها قانون اصلاح الاراضي بهم .

ومن الجدير بالذكر أن اميليانوس كان يمثل مصالح الطبقة الارستقراطية. وبينه وبين أسرة جراكوس عداء سياسي دفين ، رغم أنه متزوج من سامبرونيا شقيقة الأخوين تيبريوس وجايوس . كما أن اميليانوس كان يكن العداوة والاحتقار لأبناء مدينة روما وينحاز علناً إلى الايتاليين واللاتين الذين حاربوا معه ضد قرطاجة ونومانتيا . ولم يكتب لجهود اميليانوس في الدفاع عن مصالحهم الاستمرار اذ مات فجأة في ربيع عام ١٢٩ ، لربما بتأثير سم دسته له زوجته أو أنصار أخيها من الشعبيين !

رأى فلاكوس أحد أعضاء لجنة الاراضي أن امكان تطبيق قانون الاصلاح الزراعي يتوقف على ضمان تأييد اللاتين حلفاء روما لعمل اللجنة. فاقترح التقرب اليهم عن طريق توسيع حق المواطنة،واصدار قانون يفتح الطريق أمام الحلفاء للتمتع بمزايا المواطنين الرومان . إلا أن هذا الاقتراح الذي يتقدم به أحد اعضاء حزب الشعبيين يقابل طبعاً بمقاومة مجلس الشيوخ الشديدة ويفشل بالنتيجة ويتخلى فلاكوس عنه . مما يولد لدى حلفاء روما

نقمة كبيرة ، تعبر عن نفسها في ثورة نشبت في مدينة فريجيللا الواقعة في منطقة اللاتيوم. بعد أن رفض الارستقراطيون منح حق المواطنة للحلفاء واقصوهم عن مدينـة روما ، تجنباً لتدخلهم في الانتخابات والتأثـير على نتائجها لصالح الشعبيين . ويبرع الرومان للقضاء على ثورة مدينة فريجيللا في مهدها قبل أن تنتشر بين الحلفاء الآخرين . وتسقط المدينة الثائرة في أيديهم وتدك معالمها لتكون عبرة لمن يحاول الثورة من المـدن الاخرى .

جايوس جراكوس ١٢٤ – ١٢٢ ق . م :

على الرغم من أن الارستقراطيين قد اطمأنوا موقتاً إلى زوال الخطر عن ممتلـكاتهم،فان الموقف لا يلبث أن يعود الى التأزم حينما يحاول الشعبيون من جديد تحقيق مزيد من الاصلاحات . وقد توفر للشعبيين زعيم يؤمن بمبادىء تيبريوس وهو شقيقه الاصغر جايوس الذي استطاع الوصول إلى المحاماة في أواخر سنة ١٢٤ ق.م . وقد وضع جايوس نصب عينيه متابعة تنفيذ برنامج شقيقه والانتقام من اعدائه . وكان المحامون الذين انتخبوا معه من اعضاء حزبه . واستطاع جايوس أن يبقى في منصب المحاماة حتى عام ١٢٢ وذلك بالنظر لصدور قانون يقضي بالسماح باعادة انتخاب المحامين. وقد كان جايوس خطيباً مفوهاً وسياسياً يتميز بالجرأة والخبرة والتصميم على تحقيق ما بدأه شقيقه ، بل والسير بالاصلاح الاجتماعي إلى أبعــــد من ذلك .

بدأ جايوس أعماله بالانتقام من المحامي اوكتافيوس،بأن طلب محاكمة كل شخص اشترك في قتل مواطن من ابناء الشعب دون أن يوافق الشعب نفسه على ذلك . عندها اضطر اوكتافيوس الى مغادرة روما وبذلك تم نفيه . أما الخطوات التالية فقد هدفت تأمين قاعدة كبيرة من الدعم

الشعبي لأعمال جايوس . فطمأن الشعب الى ان لجنة الاراضي ستستمر في عملها . واستصدر قراراً ينص على أن الدولة تضمن ثبات اسعار القمح في مدينة روما . وانشأ لهذا الغرض عنابر كبيرة للقمح قرب نهر التيبر لكي تضمن وجود فائض من المؤن . ثم حاول جذب طبقة الفرسان إلى صفه بان خص افرادها بمهمة جمع الضرائب في مقاطعة آسيا التي انشأت اثر الثورة التي اعقبت وفاة الملك اتالوس الثالث . كما اعطى للفرسان أيضاً حق تأليف لجان المحلفين المختصين بمقاضاة الحكام المتهمين ، وهذا ما أثار عليه نقمة الشيوخ الشديدة . وبذلك أصبح للفرسان كيان متميز وعمل مستقل شجعهم على التصدي لمنافسيهم الشيوخ، خاصة للذين قد يحاولون منهم التدخل في استغلالهم للمقاطعات من النواحي المالية والتجارية. فأوغل العداوة القائمة بين الطبقتين . وقد كان لاجرائه هذا آثار بعيدة المدى عبر عنها بقوله متهكماً : « لقد خلقت خناجر يمزق النبلاء بها بعضهم بعضاً » . ومما لا ريب فيه ان اجراءاته السابقة تضمنت اخطاءاً لم يكن يتوقعها . نذكر منها موضوع تحديد اسعار القمح في روما الذي سيكلف الدولة نفقات اضافية ويجتذب العوام والمزارعين العاطلين عن العمل إلى العاصمة الرومانية ويصرفهم ، عن البقاء في مناطقهم . إلا أن تحديد أسعار القمح ضمن لجراكوس بالمقابل تعلق العوام به وانصرافهم عن أسيادهم النبلاء . كذلك لم يكن في مصلحة رعايا روما أن يسلموا مقاديرهم إلى جماعة من الفرسان لاهم لهم إلا استغلال المقاطعات ؛ ويستطيعون بموجب الصلاحيات المخولة لهم ممارسة الضغط على حكام هــذه المقاطعات لمصلحة جباة الضرائب .

وقد اعتبر جايوس جراكوس انتصاره على الشيوخ بانتزاع اكبر قدر ممكن من سلطاتهم اكبر فوز يحققه للشعب . ومن الجدير بالملاحظة أننا لا نعرف على التحديد الترتيب الزمني الذي وضع فيه المصلح جراكوس

مشاريعه الضخمة موضع التنفيذ . وعلى العموم يهمنا منها مضمون هذه الاصلاحات التي يمكن تصنيفها الى مشاريع حقوقية واقتصادية واجتماعية وامبراطورية أكثر من تحديد ترتيبها في بدء أو في نهاية عهد المحامي جايوس جراكوس . ولا ننسى أن هذا المصلح الاجتماعي قد تأثر في اصلاحاته بمستوى المعيشة الذي تمتعت به المدن الاغريقية الشرقية ، حيث يسود هناك مبدأ ينص على ان **الدولة مسؤولة عن رفاه وسعادة الفقراء من مواطنيها** . ويدخل في نطاق اصلاحات جراكوس فتح وتحسين الطرق المؤدية الى المناطق الريفية في شبه جزيرة ايتاليا . وبذلك أمن مورد رزق للعاطلين عن العمل وشجع عمليات الاستيطان . اذ أنه منح الاراضي الواقعة على جانبي الطرقات الى مزارعين اعفاهم من دفع أجور عنها الى الدولة مقابل اهتمامهم بابقاء الطرق صالحة للسير . أما بالنسبة لمشروعه الاساسي الذي تبناه عن شقيقه **تيبريوس** ، فقد لجأ الى مزيد من التطرف بأن خفض الحد الأعلى لمساحة الارض التي يحق للفرد تملكها من اراضي الدولة الى ٢٠٠ يوجره أي حوالي ١٣٢ هكتاراً . وذلك رغبة منه في توفير أكبر مساحة ممكنة من الاراضي الزراعية لمشروع توطين صغار المزارعين ، وبالتالي الى حل **مشكلة اكتظاظ العاصمة روما بالسكان** . وبالفعل تم انشاء عدد من المستوطنات الجديدة في عهد جايوس لم تقتصر جميعها على الصفة الزراعية ، بل كان من بينها مستعمرتان على شاطىء البحر مارس سكانها الميسورون الاعمال التجارية .

من بين المستوطنات الهامة التي انشأها جايوس مستعمرة لم تؤسس في شبه الجزيرة الايتالية ، بل كانت على الطرف المقابل من البحر المتوسط في موقع قرطاجة (مقاطعة افريقيا) الذي هجر بعد ابادة المدينة . وقد بلغ عدد سكان المستعمرة الجديدة حوالي ستة الاف قدموا اليها من كافة

انحاء ايتاليا وخصص لكل منهم رقعة من الارض مساحتها ٢٠٠ يوجره. الا ان انشاء المستعمرة في قرطاجة نتج عنه فقدان جانب من شعبية جايوس في مدينة روما ، اذ أن عامة الرومان لم يكونوا راغبين في الاعتراف للايتاليين بحقوق وامتيازات تماثل حقوقهم .

أما بالنسبة للاصلاحات التي أدخلها جايوس على الصعيد الامبراطوري فكان أميزها تغير **نظام منح المقاطعات إلى القناصل** وذلك بتحديد المقاطعات المخصصة للقناصل ـ أثناء القنصلية وبعدها ـ مقدماً . إذ كان العرف المتبع سابقاً يخصص للقنصل المقاطعات التابعة له بعد أن يتم انتحابه إلى وظيفة القنصلية لاقبل ذلك . وفي هذا المجال كان مجلس الشيوخ يكافىء مؤيديه والمقربين اليه من القناصل باعطائهم المقاطعات الممتازة أو يعاقب خصومه السياسيين . وبذلك فقد الشيوخ عنصراً هاماً من عناصر نفوذهم في الدولة .

لم يقف الشيوخ مكتوفي الايدي تجاه اصلاحات جايوس التي تناولت مرافق المجتمع العديده ، بل تهيئوا لتسديد ضربة اليه متبعين أساليب خبيثة تعتمد على المزايدة الرخيصة وخداع المواطنين ، قد تزيد في ظاهرها عن جذرية الاجراءات التي اتخذها المصلح الكبير . فاعتمدوا على زميله المحامي ليفيوس **دروزوس** Drusus الذي قام ينادي بانشاء اثني عشر مستعمرة لتوطين المزارعين في ايتاليا بدلاً من انشائها في المقاطعات . تستوعب كل منها ثلاثة آلاف مواطن من فقراء العوام يعفون من دفع الأجور السنوية عن أراضيهم للدولة ، في حين اضطر المستوطنون المستفيدون من قانون المحامي جايوس إلى دفع أجور للدولة [1] .

(١) كما هو متوقع مات مشروع دروزوس لتأسيس المستوطنات فور زوال جراكوس المصلح الحقيقي عن المسرح .

وبدلاً من أن يقدم للحلفاء الايتاليين حق المواطنة الذي وعدهم به الاخوان جراكوس فكسبوا به شعبية كبيرة لديهم ، نراه يتقدم باقتراح أشد جرأة ضمن مقدماً موافقة المجلس عليه . يمنح الحلفاء اللاتين بموجبه حصانة تحميهم من توبيخ الضباط الرومان أثناء الخدمة في القطعات . فيجيب جراكوس على هذا الاقتراح باعادة طلب منح حقوق المواطنة الرومانية للرعايا اللاتين وحقوق اللاتين لحلفاء الرومان في ايتاليا . ومن البديهي أن يقابل مجلس الشيوخ خاصة والارستقراطيون عامة هذا الاقتراح بمزيد من المقاومة الضارية سببها تدفق اللاتين والحلفاء الايتاليون الآن على روما لتأييد هذا المطلب ، ومناصرة جايوس جراكوس في موقفه . أي أن تأيدهم جاء تعزيزاً لموقف الحزب الشعبي المعارض وضمانة لفوزه في الانتخابات .

وعندما يخفق القانون المقترح في الحصول على موافقة الناخبين الرومان عليه ، ويصر مجلس الشيوخ على الغاء مستوطنة قرطاجة مستنداً إلى حجج واهية واشاعات مغرضة ، يفشل جايوس في الحصول على دعم مجلس القبائل — الذي كان إلى هذا الحين سنده الرئيسي ومصدر قوته السياسية — لاعادة انتخابه إلى وظيفة المحاماة . ويضطر جايوس أزاد الاعتداءات التي أصبحت تهدد حياته إلى ارفاق حرس خاص به . هذا الاجراء كان مقدمة لنشوب الاصطدامات بين اتباع الحزبين والتي قتل في احداها أحد أصدقاء القنصل أوبيميوس . فيبادر مجلس الشيوخ متذرعاً برغبته في الدفاع عن الجمهورية ، بتكليف القنصل اوبيميوس لاتخاذ الاجراءات المناسبة . فيجهز هذا قوة مشتركة من الشيوخ والفرسان واتباعهم ، ويحاول اعتقال كل من جايوس جراكوس وعضو لجنة الاراضي فلاكوس بعد أن رفضا المثول أمام مجلس الشيوخ . إلا أن جايوس وانصاره يعتصمون على هضبة الافانتين . فتنشب

حرب أهلية تدور رحاها في احياء مدينة روما ، يذهب ضحيتها اكثر من ثلاثة الاف رجل من الشعبين . أما زعيم الاصلاح الزراعي والاجتماعي فقد، احاط به خصومه ، وعندما لم يجد بدأ من الموت فضل الانتحار على الاستسلام ، كما سقط صديقه فلاكوس صريعاً . وقام القنصل اوبيميوس بمصادرة أموال وممتلكات الضحايا ليبني بها معبداً . وهكذا اخمدت انفاس الاخوين جراكوس ـ الذين ناديا بالاصلاح الاجتماعي في الدولة الرومانية ـ الواحد تلو الآخر ، وأزيل أنصارهما عن مسرح السياسة الرومانية . إلا أن المباديء التي ناديا بها وعملا على تحقيقها لم تمت ، بل بقيت ذكراهما حية يحوطها الاجلال بين صفوف الشعبيين .

بعد الفشل الذريع الذي أصاب الاخوين جراكوس والذي يعتبره المؤرخون مأساة اجتماعية وسياسية كبيرة ، يجدر بالمرء أن يستعرض الملابسات التي أدت إلى هذه النتيجة ومضاعفاتها . فما لا ريب فيه أن الاخوين جراكوس ، على الرغم من الدوافع المخلصة التي وجهت اعمالها ، قد ارتكبا اخطاء سياسية لا يمكن تجاهل ردود فعلها بالنسبة لمسرح السياسة الرومانية . فالخطيئة الأولى تكمن في الطريقة التي اتبعها فريقهما لمقاومة المعارضة الأوليغارشيه الارستقراطية . اذ أنهم اختاروا طرقاً ووسائل زعزعت اسس الدستور الروماني . فجاءت أشبه بتحدى صارخ لاشراف مجلس الشيوخ على الحكومة . وشعوراً منهم بوطأة مجلس الشيوخ وقوة المعارضة المتكتلة فيه ، يلتفت المصلحون إلى مجلس القبائل فيقربوه ويتعاونوا معه على حساب المجلس الأول . ويجعلوه سندهم السياسي ومحور الحركة في خطواتهم الاصلاحية، رغم معرفتهم الاكيدة بضعف هذا المجلس، وتقلقلة وقلة مقدرته على معالجة الأمور ، وعدم استعصاء أعضائه على الفساد والرشوى . ولا أدل على ذلك من ان مجلس القبائل خزل جايوس جراكوس عندما رشح

نفسه للمرة الثالثة . وبذلك اختل التوازن في الحكم ، ولم يعد مجلس القبائل يستطيع التكلم باسم كافة الشعب الروماني . وقد انعكست هذه البداية السيئة على مجرى حركة الاصلاح التي حمل لواءها الحزب الشعبي أو حزب « العوام » فاصابتها بضربة قاسية خاصة بعد ازاحة الاخوين جراكوس. فبقي الحزب بدون منهاج معين أو خطة موحدة يشرف على تنفيذها زعماء مخلصون . هذا بغض النظر عن أن العوام انفسهم لم يكونوا متفهمين لقضيتهم تماماً. لذلك ستنحرف حركة الاصلاح الاجتماعي إلى نطاق **المعارضة الغوغائية** البحتة . التي ستغدو رهناً لاشارة أي زعيم أو طامع بالسلطة . وبالتالي كان مصيرها بعد قرن من التشرد أن ترتمي في أحضان **الحكم الفردي** الذي أدى اليه الصراع الطبقي والحرب الاهلية . وقد استفاد المصلحون التالون من هذه التجربة القاسية ، وتأكدوا بأن أي إصلاح مقبل يجب أن تدعمه **القوة** اللازمة بالاضافة إلى العمل السياسي .

أما بالنسبة لمجلس الشيوخ فقد كان نصيبه من الهزيمة مماثلا رغم الظفر الاسمي الذي حققه بالقضاء على جماعة الاصلاح الزراعي . فقد فقد المجلس هيبته وكبريائه عندما التجأ إلى القوة ليحقق انتصاره . وبذلك تخلى عن **الوسائل الدستورية** التي تعتبر جوهر كيانه وأساس بقائه . وبالتالي كان ذلك سابقة سيقتبسها السياسيون المقبلون في معاملتهم لمجلس الشيوخ نفسه. وكان حصاد المعركة ان بقيت القوانين التي وضعها جايوس نافذة المفعول موقتاً، ولم يتمكن الشيوخ إلا من ازالة مستعمرة قرطاجة التي بقي فيها سكانها . وقد تحقق مجلس الشيوخ في هذه التجربة القاسية من ضعفه ازاء تحالف طبقة الفرسان مع كتلة العوام ، مثلما شعر بضعفه تجاه كتلة رجال الاعمال والمتمولين الناشئة التي شكلت قوة سياسية يحسب حسابها . علاوة على الهوة الكبيرة التي اتسعت شقتها بعد الصراع الدموي بين فئتي المجتمع

الرئيسيتين : النبلاء والعوام ، أصبح لطبقة الفرسان مكانة خاصة في المجتمع، بعد أن شعرت بدورها الذي وصلت اليه عن طريق حركة الاصلاح الزراعي واصبح الشيوخ يهابون افرادها . و حتى بعد الانتصار الاخير لم يتمكن الشيوخ من ازاحة محلّفي الفرسان من المحاكم بل بقي هؤلاء سيوفاً مصلته على رقاب الشيوخ . وباختصار لم تعد الجمهورية الرومانية بعد عام ١٢٠ ق.م . نفس ما كانت عليه خلال الحروب البونية بل اصبحت اكثر ضعفاً **عندما فقدت وحدتها الوطنية** . أما بالنسبة للعوام فقد غنموا من الامر ثبات اسعار القمح حتى نهاية العهد الجمهوري ، وقطع الاراضي التي وزعت عليهم. إلا أن هذه المكاسب ستضيع تدريجياً من أيديهم بواسطة القوانين المتتالية التي تسلبهم حقوقهم مرة أخرى . فقد صدر قانون سمح للمستوطنين ببيع أراضيهم . وبالتالي هرع الملاكون الكبار لشرائها منهم ، أو أنهم اجبروهم بالقوة على الرحيل عنها . ثم ازيلت في الفترة الواقعة بين عام ١١٨ — ١١١ اللجنة الثلاثية الخاصة بالاراضي الزارعية بموجب القانون المعروف باسم المحامي توريوس Thorius ، الذي حرّم توزيع أراضي الدولة . وبرفع الضريبة المفروضة على حصص الاراضي التي وزعها جايوس جراكوس على صغار المزارعين غدت هذه الاراضي ملكاً لاصحابها . وبذلك ضاعت جهود الاخوين جراكوس ، وعادت الاوضاع القديمة إلى ما كانت عليه . كما استعاد الشيوخ نفوذهم من جديد .

أما بالنسبة لابناء المقاطعات فقد عرضهم قانون جايوس جراكوس لمزيد من الاضطهاد والتعسف . ولم يكن نصيب مشروع منح **حق المواطنة** للحلفاء من الايتاليين واللاتين باحسن حالاً من قانون الاراضي الزراعية اذ لن يكتب لهذا المشروع الظهور من جديد الا عن طريق العنف .

٣ - الحرب ضد جوغورتا وبزوغ نجم ماريوس

بينما كان الرومان منهمكين بالصراع الداخلي الذي نشب حول مشاريع الاصلاح الزراعي والاجتماعي ، لم تكن الاوضاع على حدود الامبراطورية تدعو الى الاطمئنان ، بل كان على الجيوش الرومانية أن تتابع الحروب والدفاع ضد الشعوب الثائرة سواء على حدود ماكدونيا وايلليريا أو في شمال ايتاليا . وقد اضطرت هجمات الشعوب المجاورة الدولة الرومانية الى القيام بخطوات لتأمين سلامة الامبراطورية . منها توغل الرومان شمالا الى ما وراء الألب لضرب شعوب السالوفي والليغوري والارفرني في المنطقة المسماة بلاد الغال الجنوبية والممتدة بين جبال الالب الى البيرنه [١]. واحتلال جزر الباليار للقضاء على خطر القراصنة ولتأمين الطريق الذي يصل اسبانيا بشبه الجزيرة الايتالية . أما الخطر الكبير الذي تهدد الرومان فقد جاء من جنوبي البحر المتوسط . حيث قام نزاع في مملكة نوميديا عقب موت ملكها ميسيبسا Micipsa [٢] عام ١١٨ سببه الخلاف على **وراثة المملكة النوميدية** التي تقع بين مقاطعة افريقيا (اراضي مملكة قرطاجة سابقاً) وبين مراكش في الغرب . وقد كان الملك الراحل مثل والده من قبل حليفاً مخلصاً لروما . ومساعدته مدة حكمه الطويلة ان يوسع مملكته وينشيء المدن والمزارع فيها لدرجة دفعت الرومان للخوف من قوته المتزايدة .

وقد اوصى ميسيبسا لولديه ادهربال وهيمبسال بحكم المملكة مشتركين مع ابن شقيقه الصغير جوغورتا jugurtha الذي اشتهر بطموحه وجرأته

---

(١) اطلق على المنطقة المفتوحة اسم جاليا ناربونينزيس «الناربونيه» وحولت إلى مقاطعة رومانية عام ١٢١ ق . م .

(٢) خليفة الملك ماسينيسا (٢٤٠ - ١٤٩) الشهير الذي حارب إلى جانب الرومان ضد قرطاجة .

خلال المعارك التي خاضها مع وحدات قومه إلى جانب الجيش الروماني في حصار نومانتيا . وقد ساعد جوغورتا احتكاكه بالرومان وتعرفه على الفئة الارستقراطية ونقاط الضعف فيها.وخاصة قابلية أفرادها للرشوى على صوغ سياسته المقبلة في طريقة التعامل معهم . ومايلبث الخلاف أن ينشب بينه وبين أبناء عمه . فيعمل على اغتيال هيمسبال،ويفلح بعد ذلك في طرد ادهربال . الذي هرب إلى روما طالبـــاً المساعـدة من مجلس الشيوخ . وكما هو معلوم ربطت هذا الملك بالحكومة الرومانيـة صلات وثيقة من التحالف والصداقة ، بالاضافة إلى مجاورة مملكة نوميديا لمقاطعة افريقيا الرومانية . إلا أن جوغورتا يسبق ابن عمه في اتخاذ الاجراءات الناجعة ، بان يرسل أعوانه إلى روما ليعرضوا قضيته أمام مجلس الشيوخ بعد أن ملأ جعبهم بالمال .

وبالفعل كان للمال تأثيره المتوقع على مجلس الشيوخ الذي يرسل في عام ١١٦ لجنة يرأسها اويميوس لتقسيم مملكة نوميديا من جديد. فخصصت اللجنة القسم الغربي والأفضل من المملكـة إلى جوغورتا ونال ابن عمه ادهربال القسم الشرقي منها . إلا أن جوغورتا الطموح لم يكن ليكتف بما نال بل كان يحـــلم بالسيادة على كافه المملكة النوميدية . وبنتيجة التحرشات التي جرت بين الطرفين اجتاح جوغورتا أراضي ابن عمه والقى الحصار على عاصمته سيرتا. وقد اشترك في معارك الحصار عدد من التجار الايتاليين الذين كانوا يقيمون في سيرتا . مما دفع مجلس الشيوخ للتدخـل في الأمر بناء على رجاء ادهربال . وما تلبث اللجنة التي أرسلهـا مجلس الشيوخ أن تنحاز إلى جانب جوغورتا . وبذلك يتاح له اقتحام المدينة عام ١١٣ وقتل ادهربال . وقد سقط في معارك الحصار الكثير من التجار الايتاليين . وبالطبع لم يستطع مجلس الشيوخ الروماني أن يقابل هـذا

الحادث بعدم الاكثرات . إذ أن موضوع قتل الرعايا الايتاليين وخطر جوغورتا المتزايد لم يعد يمكن السكوت عنه . فيرسل الرومان عام ١١١ جيشاً بقيادة القنصل بستيا لغزو نوميديا وتحويلها إلى مقاطعة رومانية . إلا أن جوغورتا يلجأ إلى وسائله الناجحة في خداع القنصل الروماني ورشوته . وباظهار عزمه على الاستسلام. فيعقد قائد الحملة الصلح معه . وعمت النقمة في روما عندما سرى إلى مسامع أهلها قبول القادة الرومان للرشوات من جوغورتا . فاستدعي هذا إلى روما بعد ضمان سلامته لكي يدلي بشهادته في التحقيق الجاري مع قادة الحملة . ولم تصل لجنة التحقيق إلى نتيجة تدين المتهمين بالنظر إلى أن المحامين أخذوا يقاطعونه أثناء ادلاء الشهادة ومنعوه من الكلام وفقاً لخطة اتفق عليها مقدماً . ويبالغ جوغورتا في ثقته بنفسه وبقدرته على رشوة كل مسؤول في روما. فيعمد خلال اقامته على اغتيال منافس له هو قريبه الامير النوميدي ماسيفا الذي الذي قام بالاتفاق مع القنصل البينوس بالمطالبة بعرش بلاده .

أحنق استخفاف جوغورتا مجلس الشيوخ،فأرسل حملةجديدة إلى نوميديا. وعادت الحوب من جديد بين الطرفين . ولكنها اسفرت عام ١٠٩ عن هزيمة الجيش الروماني . ولم يقبل جوغورتا اطلاق سراح الرومان وقادتهم إلا بعد أن يعترفوا بشرعيته ويقبلوا بعقد تحالف بينه وبين روما . وقد نجمت هزيمة الجيش الروماني الشائنة عن خيانة بعض جنوده ، ولعبت الرشوة دورها الكبير في الوصول إلى هذا الظفر . فعمد مجلس الشيوخ إلى رفض الاتفاقية المعقودة. وطالب بمحاكمة المرتشين الذين أدين منهم عدد من القناصل السابقين ، وعلى رأسهم القنصل اوبيميوس بطل مذبحة هضبة الافنتين . وعهدت روما إلى القنصل متللوس Metellus بقيادة الحملة من جديد على نوميديا . وقد اصطحب معه الضابطين ماريوس Marius

وروتيلوس وهما من جنود سيبيون اميليانوس السابقين . واستطاع متللوس بجزمه ونزاهته وخطته الجزئية في تدمير موارد نوميديا أن يجبر جوغورتا على الانسحاب من وجهه . حتى استطاع أن يهزمه في زاما،رغم حرب العصابات التي اتبعها جوغورتا في مراحل الحرب الأخيرة . واضطر جوغورتا أن يدفع غرامة باهظة وأن يتنازل عن أسلحته ومعداته وأن يعيد من انحاز اليه من الجنود الرومان . ولكنه رفض أن يسلم نفسه للمنتصرين .

لمع نجم الضابط ماريوس خلال هذه الحروب الطويلة . فهو على النقيض من قائده الارستقراطي متللوس كان ينحدر من اسرة من الفرسان. وقد تقلب على مناصب كثيرة في الفتره الواقعة بين ١١٩ - ١١٥ ق.م منها المحاماة ، والحاكمية القضائية ، وحاكم لاسبانيا . وقد دب الخلاف بينه وبين متللوس عندما أراد العودة إلى روما لترشيح نفسه لمنصب القنصلية.فعارضه الأخير ولكنه اضطر أخيراً للسماح له بالذهاب ، حيث انتخب هناك قنصلاً لعام ١٠٨ بالاستناد على دعم طبقة الفرسان والشعبيين له . وسعى خلال وجوده في روما إلى نقل قيادة الحملة النوميدية اليه بدلاً من متللوس. بعد أن بين للمسؤولين عجز قائدها عن احراز نصر حاسم على جوغورتا ورغبته في إطالة أمد الحملة . وتم له ما أراد بناء على تصويت مجلس القبائل واستلم القيادة وحكم مقاطعة نوميديا عام١٠٧. إلا أن مجلس الشيوخ يحتفظ لمتللوس بمنصب الحاكم عليها . وقد تجلى الصراع في عملية انتخاب ماريوس بين الشعبيين الاستقراطيين. ورغم كل الوعود والتصريحات التي أطلقها ماريوس عن استطاعته القبض على جوغورتا «بنصف القوة التي كانت تحت تصرف متللوس » ، لم تكن مهمته باسهل ولا باسرع من مهمة سلفه . إذ أن جوغورتا انتهز الفرصة ليدعم موقفه

بالتحالف مع حميه بوكوس ملك موريتانيـــا (مراكش) . وارغم ماريوس على خوض حرب العصابات في الجبال الجزائرية ، وعلى اتبـاع سياسه سلفه في احراق وتدمير المدن التي تقع في يـده . ولم يتمكن من احراز النصر على جوغورتا إلا عندما تمكن مساعده الخازن كورنيليوس سوللا Sulla من التسلل إلى معسكر الملك بوكوس .حيث عقد اتفاقاً سرياً معه تعهد الملك بموجبه بتسليم جوغورتا إلى الرومان . وبتسليم جوغورتا تنتهي حرب ضروس استنفذت جهود رومـا وكشفت عن المثـالب التي تعتور نظام الحكم الروماني . وقد أدت هذه الحرب بالدرجـة الأولى إلى أضعاف مجلس الشيوخ وإظهار مخازي رجاله وتلاعبهم بمصير الدولة في سبيل مصالحهم الخاصة . كما سمحت للمحامين الشعبيين والفرسان بالوقوف في وجه الشيوخ وبتحديهم .

أما مملكة نوميديا فقـد الحق القسم الشرقي منها بمقاطعة افريقيـا . وأضيف القسم المتبقي إلى مملكـة موريتانيا مـكافأة للملك بوكوس على خدماته . وعاد ماريوس إلى روما عام ١٠٥ ليعرض جوغورتا في موكب ظفره . ثم يلقى الملك النوميدي حتفه في سجن المدينة . بذلك تم لروما اخضاع شمالي افريقيا تقريباً. وأصبحت مناطق نفوذها تمتد من ليبيا حتى الجزائر . فشكلت مدن الساحل الافريقي المطلة على البحر المتوسط ميداناً خصيباً لاستثمار التجار والمستعمرين الرومان .

٤- الحروب السامبرية

لم يكد ماريوس ينهي الحروب ضـد جوغورتا حتى حـام في الأفق خطر جديد يهدد ايتاليا في شكل غزوة جارفة قامت بها شعوب بربرية . اندفعت قبائل هذه الشعوب الجرمانية من أواسط اوربا عام ١١٣ يقودها قبائل **السمبري والتوتون** الذين كانوا يتكلمون اللغة الكلتية على الغالب .

ووصلت باعداد ضخمة إلى مناطق الالب ، وعبرت نهر الرون مدمرة بلاد الغال . واستطاعت أن تهزم جيشين رومانيين بعد أن حاول الرومان عبثاً ايقاف موجتها في جنوبي بلاد الغال ، وذلك في موقعة **أداوسيو** Arausio على نهر الرون .

وكانت هزيمة القائدين الرومانيين القنصل كابيو والقنصل ماليوس فادحة لم تصب روما بمثلها منذ انتصار هانيبال في معركة كان . وقد قام السمبريون بايفاء النذر الذي قطعوه على أنفسهم إن ربحوا المعركة ، ففتكوا بالاسرى والخيول الرومانية . والقوا غنائم المعركة من سلاح وعتاد وأموال في نهر الرون . وتابع السمبريون توغلهم متجهين نحو اسبانيا ولكن القبائل المحلية في اسبانيا وفي شمالي فرنسا الحقت الهزيمة بهم . فاتجه معظمهم نحو ايتاليا ، بينما تقدم بعض السمبريين والتوتون إلى جنوب الغال ليهاجموا ايتاليا من الغرب . ويصاب الرومان بذعر مريع . فأسرعوا لجمع كل قوة متوفرة تقف في وجه الغزاة . فعزلوا القائد كابيو وحاكموه بتهمة الخيانة . ولم يجدوا منقذاً لهم إلا القنصل ماريوس قاهر جوغورتا الذي أعيد انتخابه للقنصلية مرة ثانية فعينوه قائداً للجيوش الرومانية . وتابعوا انتخابه قنصلاً سنة تلو الأخرى حتى استطاع دحر قبائل التوتون قرب مدينة **ايكس** (في البروفانس) عام ١٠٢. وقد جرت المعركة الفاصلة على ضفة نهر الأرك . واشترك بها التوتون رجالاً ونساءً وسقط آلاف القتلى منهم أمام هجمات الفرسان الرومان . وسقط ملكهم تويتوبوخ أسيراً في يد ماريوس . وبعد القضاء على التوتون التفت ماريوس إلى ايقاف زحف السامبريين والتيجوريين الذين اجتازوا ممر برنر في جبال الالب ووصلوا في اندفاعهم إلى سهل البو . حيث فشل القنصل كاتولوس في التصدي لهم وايقافهم عند الممر المذكور . فانتظر هذا

عودة ماريوس الذي انضم اليه مع مساعده سوللا قرب **فوسيللا** . أما السامبريون فقد طلبوا من الرومان منحهم أراضي يستوطنوها في سهل البو ولم يكونوا قد علموا بعد بما حل باخوانهم التوتون .

في السنة الخامسة من قنصلية ماريوس عام ١٠١ ق . م تلتقي الجيوش الرومانية المرابطة إلى الجنوب من نهر البو بجموع السامبريين في سهول رودين قرب فرسيللا . ورغم تفاني السامبريين في القتال نراهم يخسرون المعركة ، ويفقدون الآلاف من الضحايا والاسرى . ازاء هذه الهزيمة يعدل **التيجوريون** عن التوغل في منطقة فينيسيا ، ويعودوا إلى مواطنهم السابقة في سويسرا . وبهذا نجت ايتاليا من تكرار مأساة الغزوة الغالية التي وصلت إلى روما في القرن الرابع ق . م[1] . فاعتبر ماريوس بطلاً قومياً ومنقذاً لايتاليا ، وانتخب للمرة السادسة للقنصلية عام ١٠٠ ق.م وانتخب معه كل من سرفيليوس جلوسيا حاكماً قضائياً وابوليوس **ساتورنينوس** محامياً والذين تميزوا بعدائهم للقائد الارستقراطي متللوس . وقد أدى احتقار الارستقراطيين لماريوس إلى انحيازه إلى جانب الشعبيين واعتماده على حلفائه سارتورنينوس وجلوسيا . فساعدوه على تأمين الاراضي اللازمة لمكافأة جنوده وتوطينهم . وتم اصدار قانون عام ١٠٣ ق . م يمنح ١٠٠ يوجرا (أي ٦٦ هكتاراً) لكل جندي من جنود ماريوس في افريقيا. كما اصدر سارتونينوس قانوناً يحدد اسعار القمح ويعيد الصلة بقانون جايوس جراكوس الذي أوقف مفعوله عقب مقتل الأخير . وأدى تحالف الحكام الثلاثة كما رأينا إلى انجاح انتخاب ماريوس إلى منصب القنصلية للمرة السادسة عام ١٠٠ ق . م . لكن ذلك تم بصعوبة كبيرة ، وصاحب الانتخابات أعمال عنف وصدام بين أنصار الشعبيين والارستقراطيين .

---

(١) راجع ص ٩٨ - ١٠٠ .

وقد تقدم المحامي سارتونينوس وصديقه جلوسيا إلى مجلس الشيوخ بمشاريع قوانين ذات طابع شعبي تقضي بتأمين الاراضي لجنود ماريوس في منطقة غاليا الناربونية . وبتأسيس مستعمرات في صقلية واخايا وماكدونيا . وتضمنت احدى فقرات القانون قسماً يلزم كل أعضاء الشيوخ على أدائه . وينص على اعتراف الشيوخ بالقانون خلال خمسة أيام بعد تصويت الشعب عليه . وبالطبع قاوم الشيوخ هذا القانون لانه يفرض غرائم عليهم في حالة التمنع عن أداء القسم . واقنعوا بعض الشيوخ لايقافه بموجب حق النقض . وحدثت الاضطرابات يوم التصويت على القانون وتم التصديق على القوانين بالعنف نتيجة تدخل جنود ماريوس وسحقهم المعارضة . إلا أن موضوع المستعمرات المقترح انشاؤها في غاليا لم يجر تنفيذه . وقاوم الناخبون في مدينة روما قانون تأسيس المستعمرات في المقاطعات لأن حلفاء الرومان سوف يقبلون فيها ، وكان باستطاعة ماريوس منح حقوق المواطنة إلى من يختاره منهم. وقد تم نفي متللوس من روما عندما رفض أن يقسم على تنفيذ القانون . أما ماريوس فقد نكص عن وعده لمجلس الشيوخ بان لايقسم ، واسرع لاداء اليمين . وبذلك ظهر ضعف ماريوس وتنازله عن الزعامة لسارتونينوس ، لأنه كان لايعتمد على برنامج سياسي معين بل يعتمد على القوة في فرض مشاريعه. وفي الحقيقة كان متردداً في اتجاهه السياسي بين الشعبيين والاستقراطيين . لذلك سنحت الفرصة لزملائه سارتورنينوس وجلوسيا لكي يقودوا المعركة السياسية معتمدين على التزلف إلى الجنود وإلى الشعب. ولم يتورعوا عن استخدام العنف والغوغائية في سبيل تنفيذ مآربهم . اذ انحصر كل همهم في تمديد سلطتهم وتربعهم في مراكزهم . وقد رشح كلا الرجلين نفسه فنجح سارتونينوس في مسعاه وانتخب لمنصب المحاماة للمرة الثالثة عام ٩٩ . أما جلوسيا فقد اخفق في الوصول الى القنصلية . هذه الأعمال وما رافقها من عنف اضطرت

ماريوس إلى الانفصال عن زملائه . وأصدر مجلس الشيوخ قانون (الاحكام العرفية) يخول ماريوس بموجبه اعتقال أصدقـائه السابقين . ونشبت المعركة بين الطرفين في ساحة الفوروم،فاستطاع ماريوس هزيمة الشعبيين. وصرع جلوسيا وسارتورنينوس الذين اعتقلوا في احـدى غرف مجلس الشيوخ ، عندما رماهم المهاجمون بالحجارة والقرميـد المتنزع من سقف الغرفة . وبهذه النتيجة الخاسرة يحكم على ماريوس بالفشل . اذ لم يستطع أن يحسن التصرف مع أصدقـائه عندما عجز عن حمـايتهم من عنف الغوغاء ، أو مع أعدائه الذين يضمرون له الحقد . فضعف موقفه تجاههم عندما ساعدهم ضد أصدقـائه الشعبيين . وبالتـالي انقسم الشعبيون على أنفسهم ؛ واتحد الفرسان والشيوخ موقتاً لايقاف اعمال العنف والارهاب .

٥ ـ الحروب الاجتماعية أو الحروب مع حلفاء روما ٩٠ ـ ٨٨ ق.م

عندما صوت الشعب الروماني عام ٩٩ على عودة متللوس من منفاه لم يجد ماريوس افضل من التواري عن المسرح السياسي موقتاً بالذهاب في رحلة إلى بلاد الشرق . وقد تميزت الفترة التي عقبت رحيل ماريوس بهدوء نسبي في روما . فعلى الرغم من الصراعات الداخلية التي اجتاحت روما بقيت الامبراطورية متماسكة تتمتع باحترام الشعوب التابعة والمجاورة لها . أما في ايتاليا نفسها فقد عجزت قوانين المصلحين الاجتماعيين أن ترفع الظلم وعدم التساوي في الحقوق والواجبات عن كاهل أهلها . وفي عام ٩١ ق.م يبرق الأمل من جديد في حل مشاكلهم ، وأهمها مشكلة حق المواطنة ، عندما يتقدم المحامي **ليفيوس دروزوس** [١] بعض مشاريع **القوانين المعتدلة** التي هدف منها : ايجاد حل وسط لمشكلة المحاكم والمحلفين باضافة

---

(١) ابن المحامي صاحب نفس الاسم الذي اشتهر بمقاومته لجايوس جراكوس .

٣٠٠ فارس إلى مجلس الشيوخ ، وتوزيع الاراضي الزراعية على الفقراء ، وتخفيض ثمن القمح ، وتوسيع حق المواطنة ليشمل الايتاليين واللاتين . ومع أنه تم الموافقة بسهولة على القوانين الثلاثة الاولى ، نرى معارضة الشيوخ والفرسان والشعبين تكتل بشكل نادر المثال لتقف في وجه مشروع دروزوس الأخير . فاعلن مجلس الشيوخ رفض قوانين دروزوس جملة ، حتى تلك التي تم الموافقة عليها سابقاً . وذلك بحجة مخالفتها لقانون اصدر عام ٩٨ هو قانون « كاسيليا ديديا » والذي يمنع التصويت على عدة قوانين تقدم في مشروع واحد . ولم يستطيع دروزوس إلا الاذعان لاصوات المعارضة الشديدة (١) . ومع ذلك لم يطمئن الفرسان إلى خلاصهم من قوانينه إلا عندما أرسلوا اليه من قتله . وبذلك قضي على آخر محاولة يقدم عليها سياسي مدني لادخال الاصلاح إلى اجهزة الحكم بالطرق السلمية . ولا يمكن تفسير المعارضة التي لقيتها قوانين دروزوس الاصلاحية إلا بان طبقات الشعب الروماني كانت تسعى كل في ميدانها المغلق الى الاحتفاظ بالامتيازات التي حصلت عليها ولم تنوي التنازل عنها . وبالمقابل كان من الطبيعي أن يلقى مشروع دروزس لتوسيع حق المواطنة صدى مستحباً وتأيداً عميقاً لدى الايتاليين . ما عدا الاوتروسكيين واللاتين والأومبريين الذين لم يريدوا التنازل عن أراضيهم التي قد تنشىء المستعمرات الرومانية الجديدة عليها ، مقابل اعطائهم حق المواطنة .

(١) خاطب دروزوس مجلس الشيوخ بالكلمات التالية محاولا اقناعه بالعدول عن الغاء قوانينه الاصلاحية : « يمكنني أن أمانع في كل ما تتخذونه من مراسيم ، غير اني لن أفعل لعلمي أن كل من يصنع الشر يلقى بعد مدة جزاءه . ويجب أن تفكروا انكم إذا الغيتم القوانين التي استصدرتها ، فانكم ستلغون الناظم القضائي الذي يؤمن العدل إلى الناس الصالحين ، والجزاء للاشرار . احذروا أن يؤدي بغضكم لي أن تكشفوا أنفسكم وتنزعوا عنكم اسلحتكم ». راجع سليم عادل عبد الحق ، تاريخ روما والشرق الروماني، ص ٣٨٦ .

لم يكن الحلفاء الايتاليون بحاجة إلى دليل اكثر من مقتل ليفوس دروزوس ليؤكد لهم أن حكام العاصمة الرومانية لن يعاملوهم على قدم المساواة . بل كانت الثورة تتأجج مقدماً بين صفوفهم خاصة بعد أن خابت آمالهم بعد القضاء على حركة جراكوس . وقد سبق لزعيم شعب المارسيين بومبيدوس سيلو ان سلح عشرة آلاف من رجاله ليهاجم بهم العاصمة . ولكن الانباء التي وصلته بأن مجلس الشيوخ يعمل لتأمين حقوق الحلفاء الايتاليين صرفته عن الاستمرار في المسير نحو روما . تجمع الايتاليون بعد مصرع دروزوس فثار السامنتيون ، في أواسط ايتاليا ،والفستونيون واللوكانيون والابوليون بزعامة المارسيين . وشكلوا تحالفاً اتحاديا اطلقوا عليه اسم **جمهورية ايتاليا** ، يشرف عليه مجلس شيوخ مؤلف من خمسمائـــة عضو وقنصلان واثنى عشر قاض بصفة ضباط منفذين . واختاروا مدينة **كورفينيوم** Corfiuium في جبال الابنين عاصمة للجمهورية الجديدة . واعلنوا انفصالهم عن روما . وسكوا نقوداً جديدة تحمل صورةالالهة ايتاليا التي اعتبرت حامية الاتحاد . وبالفعل اصبحت قوة الثوار في شمال وجنوب ايتاليا تهدد روما واصدقائها وتطوق بهم من الطرفين . وعلى خلاف الحروب السامنتية السابقـة ،نرى الثوار الجدد يعرفون خطط الرومان واساليبهم الحربية بعد ان خدموا في صفوف الجيوش الرومانية ، وخاضوا مع الرومان المعارك في ايتاليا وفي المقاطعات منذ الحروب البونية . اما المدن الاغريقية في ايتاليا الجنوبية فقد بقيت على ولائها لروما،فاعاقت بذلك اتصال الثوار بالمرافىء البحرية . في حين كانت روما تسيطر على البحرين التيراني والادرياتكي، مما أمن لها وصول النجدات والتعزيزات من مقاطعاتها وخاصة من ابناء الجزائر ومراكش . وبهذه الثورة اللاهبة تتعرض الوحدة التي عملت روما مئات السنين لفرضها لخطر التفكك من جديد . ولم تفلح مساعي روما المتأخرة بمنح حق المواطنة

إلى حلفائها الذين لم يثوروا بعد ، ثم عرضها على الثوار شريطة العودة إلى الطاعة والولاء . في ان تنهي الثورة كلية .

ابتدأت الحرب بين الثوار والرومان عام ٩٠ ق . م عندما حاول الأولون الوصول إلى اتروريا وإحتلال كامبانيا . فاستطاع الايتاليون تحقيق نجاح باهر في الجنوب رغم ما حل بهم من هزائم . ثم اشرفوا على ابوليا ولوكانيا. وكلفت روما القناصل السابقين ماريوس- الذي عاد من اسيا - وسيبيو بتولي قيادة الجيوش الرومانية . إلا أن قائد الثوار بومبيديوس يفلح في خداع القنصل سيبيو وينزل به هزيمة كبيرة يسقط سيبيو صريعاً خلالها. ويستولي الثوار على مدينة ازيرنيا . لذلك تبقى مسؤولية اخضاع الثوار منوطة بماريوس ، قاهر جوغورتا . والملاحظ في هذه المرحلة ان ميزان القوى كان يميل لصالح الحلفاء الايتاليين ويدفع اليأس والشك في قلوب الرومان .

تفادياً لانضمام مدن أواسط ايتاليا الحليفة في اتروريا قام الرومان بمنح ابنائها حق المواطنة . ثم صدر القانوني **الجيولياني** Lex julia الذي وضعه القنصل لوسيوس جوليوس قيصر ، يمنح حق المواطنة لكافة المستعمرات اللاتينية والجماعات الحليفة التي لم تشترك في ثورة الايتاليين . وبذلك ضمن الرومان ولاء الأومبريين والاتروريين بالاضافة إلى اللاتين وسكان المدن الاغريقية . ثم وسع المجلس قانون جوليا عن طريق قانون جديد هو قانون **بلوتيا – بابيريا** ، بان أعطى المواطنة لكافة الايتاليين الذين يرغبون في الحصول عليها شريطة أن يتوجهوا إلى روما خلال شهرين لاعلان خضوعهم . وجاء قانون القنصل سترابو عام ٨٩ ليتم حلقة أعتراف روما بمساواة سكان شبه الجزيرة الايتالية معها في الحقوق،بان اعطى حق المواطنة إلى مناطق ايتاليا الشمالية الواقعة إلى الجنوب من نهر البو وحقوق اللاتين

إلى سكان المناطق شمالي هذا النهر [١].

من البديهي أن تؤدي تنازلات روما المتتالية في منح حق المواطنة إلى اضعاف السبب الرئيسي الذي نشبت من اجله ثورة الحلفاء الايتاليين وان يدفع قسماً من الثوار إلى مغادرة صفوف المقاتلين . وبالتالي غدا من السهل على الرومان اخماد جيوب المقاومة الباقية في عدد من المعارك استبسل فيها الثوار الذين صمموا على **الاستقلال عن روما** . فتمكن القائد كورنيليوس سوللا من ضرب مقاومتهم في جنوب ايتاليا ، وانهى القنصل بومبيوس القتال في الشمال بان استسلم له المارسيون وحلفائهم نهائياً . ويمكن اعتبار عام ٨٨ ق . م نهاية للاعمال الحربية في ايتاليا .

وهكذا يتضح ان الحلفاء الايتاليين لم يحصلوا على المساواة وحقوق المواطنة من روما إلا بعد أن رفعوا السلاح في وجهها . وقد اثبتت نهاية الحروب الاجتماعية أن الايتاليين لم يصروا على طلب الاستقلال النهائي عن روما بل فضلوا البقاء معها.وعلى الرغم من أن روما اصبحت تدرك بان « المواطنة » لم تعد حقاً ، وذلك بالنظر لاستحالة مساهمة معظم المواطنين الايتاليين في مجالس مدينة روما. فانهاتتخذ التحفظات اللازمة لدرء خطر سيادة حلفائها على مجالس المدينة ، عندما تسجل المواطنين الجدد الذين تقدموا بطلب خلال مهلة الستين يوماً ضمن ثمانية قبائل محددة خلاف الخمسة والثلاثين قبيلة السابقة . فيكونوا بذلك آخر من يصوت [٢]. وبما أن روما لم تبتدع أي نظام آخر لتمثيل المواطنين . لذلك يغدو حق المواطنة افضلية لا توفر للمتمتعين بها الا حماية روما ، ومعاملة ممتازة في المقاطعات ،

---

(١) بقي وضع المنطقة الواقعة بين نهر البو وجبال الالب موضع خلاف حتى عام ٤٩ .

(٢) كان التصويت في الجمعية المئوية يجري في الاصل بحسب الطبقات الاجتماعية ، ونادراً ما تتاح الفرصة للطبقات الدنيا للتصويت . راجع اعلاه ص ١١٩ .

ونصيباً من مغانم الفتوحات . على كل حال تعتبر نتائج الحروب الاجتماعية عاملًا حاسماً في الانتقال من مجتمع دولة المدينة إلى مجتمع الدولة الرومانية التي سينصهر افرادها اكثر من قبل ببعضهم . فتشملهم انظمة بلدية وقوانين موحدة ، ويتكلمون لغة مشتركة هي **اللغة اللاتينية** .

٦ - سوللا والحرب الميثراداتيه الاولى ٨٩ - ٨٥ ق . م

كما كانت الحرب ضد جوغورتا الطريق الذي ارتقى فيه ماريوس إلى منصب مرموق في الدولة الرومانية ، فان الحرب الاجتماعية فتحت المجال أمام مساعده سوللا للنبوغ والشهرة . فقد كشف هذا القائد عن كفاءة عسكرية وسياسية ممتازة منذ اتفاقه مع بوكوس . وخاصة حينما اخضع الثوار الايتاليين في الجنوب وانتزع الانتصارات عليهم من رئيسه السابق ماريوس . فلم يكن غريباً أن تكافىء جهوده عام ٨٨ بانتخابه إلى منصب القنصلية . وفي هذه الاثناء تصل الانباء من الشرق بان ملك بلاد البونت ميثراداتس السادس (اويباتور) Mithradates قد نفذصبره من تدخلات وهجمات الرومان عليه . وهذا ما دفعه إلى غزو العالم الايجي وإعلان الحرب على روما . فاصطدم ميثراداتس خلال تقدمه نحو الغرب بالملك نيكوميديس ملك مملكة بتينيا الواقعة في الشمال الغربي من الاناضول واجتاح مقاطعة اسيا (برغامون) . ثم حرض الاغريق في المناطق الخاضعة لروما على الثورة والتحرر من الاستغلال الروماني [١].ويقال بأن ميثراداتس حرض اهالي المنطقة على افناء التجار الرومان المقيمين في اسيا الصغرى فهلك في يوم واحد ثمانين الف روماني .

شعرت رومـــا بخطر ميثراداتس الذي لم تقتصر ثورته على آسيـا

---

(١) كان جايوس غراكوس قد أطلق يد الفرسان في جباية اموال مقاطعة اسيا راجع ص ٢٢٠

الصغرى بل شملت بلاد اليونان وعاصمتها اثينا . ودفعت شعوبها إلى الانضمام تحت لوائها . فكلفت سوللا بقيادة الجيش المتوجه لمقاومة ثورة ملك البونت . إلا أن الحرب الأهلية تنشب في مدينة روما فتعيق سفره . فالحملة على آسيا الصغرى كانت بالنسبة للقادة العسكريين الطامعين وسيلة لتحقيق شهرة ومغانم وفيرة . ومن الطبيعي أن يشعر ماريوس العجوز بالغيرة من مساعده السابق الذي كلف دونه بحرب ميثراداتس . وقد لقى ماريوس تأيد الفرسان في هذا المسعى ، الذين تأكدوا أن سوللا سيكون نصيراً قوياً لمجلس الشيوخ ضدهم . وتوصل حزب ماريوس إلى مقاومة قيادة سوللا للحملة بان تقرب حليف ماريوس المحامي سولبيسيوس دوفوس من الايتاليين بمشروع قانون ينص على ضرورة تسجيل المواطنين الذي اكتسبوا حق المواطنة بنتيجة الحروب الاجتماعية ضمن القبائل الرومانية بصورة متساوية. أما القانون الثاني فيعطي قيادة الحملة المتجهة نحو الشرق إلى ماريوس .

وقامت أعمال العنف والارهاب عندما اختار المحامي روفوس من الفرسان حرساً خاصاً له . وتم له بواسطتهم فرض القانونين على القناصل . ولم يكد سوللا يغادر مدينة روما للانضمام إلى قطعاته المرابطة خارجها حتى علم بصدور القرار الذي ينصب غريمه ماريوس قائداً للحملة بدلاً عنه . لذلك لايطول غيابه بل يعطي الأمر لقواته بالتوجه إلى روما فيأخذ المدينة على حين غرة ويرتكب بعمله هذا سابقة خطيرة (١) . أما حزب ماريوس فيصاب بالارتباك إذ لم يتمكن من جمع قوات تسد الطريق على سوللا. ودارت معركة على أبواب مدينة روما انتهت بهزيمة حزب ماريوس وقتل المحامي سولبيوس روفوس . ولم ينج ماريوس وابنه من

(١) فارق ضباط مجلس الشيوخ جيش سوللا عندما غير اتجاه الحملة نحو مدينة روما.

الوقوع في قبضة المنتصرين إلا بصعوبة كبيرة ، وفرا إلى افريقيـــا .
اعتبر سوللا زعماء الحركة خارجين على القانون. فألغى القوانين التي أصدرها روفوس،ثم فرض تغيرات جديدة قصد منها دعم مركز مجلس الشيوخ . ومما لاريب فيه أن الأساليب الغوغائية التي التجأ اليها ماريوس وجماعته لاقصاء سوللا وانتزاع السلطة في العاصمة بمساعدة الايتاليين والأرقاء دفعت الاخير إلى صف الاستقراطيين. وربطت طموحه بمصالحهم وذلك على حساب مبادىء الحكم الدستوري . فربط سوللا اقرار اصدار القوانين بموافقة مجلس الشيوخ قبل تقديمها إلى المجالس الشعبية . ثم سار على رأس حملة في أوائل عام ٨٧ بصفـة قنصل سابق متجهاً لمحاربـة الملك ميثراداتس . وكانت مغادرته للمدينة أشبه بالهرب منهـا . لان القناصل الذين رشحهم سوللا لقنصلية ذلك العام لم ينجحوا في الانتخابات . بل فاز بالقنصليـة القنصل سينا Cinna صديق ماريوس والقنصل كورنيليوس اوكتافيوس اللذان انتهزا فرصة انتهاء قنصليته لمهاجمته وطلب محاكمته .

عاد القنصل سينا إلى اتباع سياسته حزب ماريوس الغوغائيـة متحدياً بذلك طبقـــة الخواص وممثلهم القنصل اوكتافيوس . فرغب قبل كل شيء اعادة فرض قوانـين المحامي سولبيوس روفوس السابقة لكسب تأييد الايتاليين . إلا أن القنصل سينا يفشل في التصويت على القوانين وفي طلب اعـــادة المنفيين إلى روما ، ومن بينهم ماريوس . ويتمكن زميـله اوكتافيوس من اقالتـه من منصبه بعد اصطدامات مسلحة دارت بين أنصار الفريقين ذهب ضحيتها أكثر من عشرة آلاف رجل . إلا أن سينا لايقنع بالهزيمـة بل يلتجىء إلى الجيش الروماني المرابط في كامبانيا وإلى السامنتـين الذين مازالوا يحملون السلاح . وفي هذه الاثناء يعود ماريوس إلى ايتاليا وينضم بجيشه الذي جمعه من الارقـاء المحررين

في اتووريا إلى صديقه سينا متجهين نحو رومـا وطوقـا المدينة كليـة . وعندما لاتفلح جهود مجلس الشيوخ والارستقراطيين للدفاع عن المدينـة يضطر المجلس إلى مفاوضة سينا ويعترف به قنصلاً . وتلغى قوانين سوللا السابقـة ومن بينها نفي ماريوس . وكان ماريوس قد دخل المدينة عنوة ، وبدأت أعمال سفك الدماء وتصفية المعارضة الارستقراطية فكان من أوائل ضحاياها القنصل اوكتافيوس . واضطر القـادة الارستقراطيون ميرولا وكاتولاس للانتحار . ولم يوقف ماريوس عن متابعة هذه المذبحة الرهيبة الا تدخل القنصل سينا . وفي السنة ٨٦ أعيـد انتخاب ماريوش قنصلاً للمرة السابعة لكن القدر لايمهله ليقطف ثمـار ظفره الدموي إذ يموت بعد عدة أيام وله من العمر سبعون عامـــاً . وانتخب فالريوس فلاكوس خلفاً له .

٧ ـ الحرب بين سوللا وميثرادانس :

ابحر سوللا إلى بلاد اليونان لمحاربـــة الثوار وكان يشعر في قرارة نفسه بأن ظفره في هذه الحملة سيفتح له طريق العودة إلى روما . وكان ميثراداتس قد استولى في غيـابه على كبادوكيا وفريجيـا وبيتينيا ومملكة البوسفور ومقاطعة آسيا وفتك بالمواطنين المقيمين هناك . ثم انتقـل ميثراداتس إلى الشاطىء المقـابل من بحـر ايجـه وتوغلت جيوشـه في بلاد ماكدونيا بينما اشرف بنفسه على حصار جزيرة رودوس . وفي العـام نفسه يصل سوللا الى اليونان ويتمكن من طرد ارخيـــلاوس واريستون قواد ميثراداتس منها ، الذين تراجعوا الى مدينة اثينا ومرفئها . فيتبعهم سوللا معتمداً على قواه الخاصة ودونما تلقي أي مساعدة من روما ليلقي الحصار في خريف ٨٧ على عاصمة العـالم الاغريقي الروحية وعلى مرفئها . ويستمر الحصار المضروب على المدينة قرابة عـــام من الزمن

يستبسل خلاله الاثينيون في الدفاع عن مدينتهم، الا أن جهود الجيش الذي أرسله ميثراداتس لفك الحصار عنها تبوء بالفشل . وعندها يتمكن سوللا من النفوذ عبر أسوار اثينا فيستبيحها جنوده بناء على أمره ، ويذبحون أهلها وينهبون ممتلكاتهم لكنهم يعفون عن منشآتها العامة من الدمار . أما ارخيلاوس فينسحب مع قواته عن طريق البحر حيث يجمع كل قواته في بئوتيا استعداداً للثأر من القوات الرومانية .

اسرع سوللا لملاقاة قوى عدوه وجرت المعركة المتوقعة في خيرونه Chaeronea فاستطاعت قوات سوللا القليلة المنظمة ان تحرز النصر التام على قوات الملك ميثراداتس التي قاربت أعدادها المائة والعشرين الف جندي . وفي هذه الاثناء يصل إلى اليونان الجيش الروماني الذي أرسلته روما بقيادة القنصل فلاكوس لمحاربة سوللا وميثراداتس . ولكي يتجنب فلاكوس نشوب صراع مسلح بينه وبين سوللا يبادر بالتوجه عبر ماكدونيا وتراكيا نحو الاناضول لكي ينفرد بمحاربة ملك البونت الثائر ويكسب شرف الظفر والغنائم . فيبقى سوللا وحيداً في بلاد اليونان ليقابل الجيش الجديد الذي ارسله عدوه ضده ويتمكن في معركة جرت في بئوتيا عند **ارخومينوس** من دحر قوات عدوه .

لم يتمكن سوللا من الانتقال إلى البر الاسيوي لمتابعة قتال الملك الثائر لأن الأخير كان يسيطر باسطوله على البحر الايجي ، لذلك يرسل سوللا خازنه لوكولوس إلى الشرق لجمع اسطول عاد به الى البحر الايجي وهزم به اسطول ميثراداتس. وبالتالي غدا موقف ملك البونت ضعيفاً لتكاثر اعدائه وتخلي الاغريق عن نصرته بعدما حل بهم ، خاصة وإن الارستقراطيين الاغريق شعروا بان مركزهم مضمون تحت الحكم الروماني أكثر منه تحت حكم ميثراداتس

الذي حرض الطبقات الدنيا من مواطنيهم عليهم . كما أن سوللا اجتاز البحر ونزل بقواته على البر الأسيوي. أما القنصل فلاكوس فانه تمكن من انتزاع بيتينيا ، لكنه يصرع على يد جنوده نتيجة مؤامرة دبرهـا له المفوض فيمبريا الذي يستلم القيادة بعد موته. وبذلك زالت فرصة احتمال تفاهم فلاكوس وسوللا على حساب الشعبين من الوجود . ثم استطاع دحر ميثراداتس في معركة نشبت بينهما إلى الجنوب من مدينة برغامون عام ٨٦ ق . م .

تجاه احتمال انتزاع فيمبريا للظفر النهائي على عدو روما يسرع سوللا لاتخاذ حل يضمن فيه مصالحه ، وذلك بعقد صلح منفرد مع ميثراداتس عام ٨٥ يتعهد الاخير بموجبه باعادة تسليم كبادوكيا وبيتينيا ومقاطعة آسيا . وأن يدفع غرامـة قدرها الفي تالنت ويتنازل عن ثمانين سفينة من اسطوله . مقابل ذلك يحتفظ ميثراداتس بمملكته سليمة وتعود العلاقات بينه وبين روما إلى وضعها السابق للحرب . أما الاف المواطنين الرومان الذين أزهق ميثراداتس ارواحهم فقد تناسى سوللا أمرهم . إلا أن سوللا لم ينس رغم استعجاله العودة إلى روما أن يعاقب مدن اسيا الصغرى العاصية فيبتز منها غرامات بلغت عشرين ألف تالنت [١] . وعندما التقى سوللا بجيش فيمبريا في مقاطعة ليديا استطاع تأليب جنوده عليه فانضموا اليه واضطر فيمبريا للانتحار . ثم اسرع سوللا بالعودة عبر اليونان فحمل معه كنوز معابد أوليمبيا ودلفي وابيداوروس . وقـد رافق الخراب والدمار خطوات جيوش سوللا ونزلت بالمدن اليونانية افدح الخسائر المادية والبشرية .

---

(١) بلغت حوالي ٩٦مليون ليرة سورية اضطر أهالي المدن لاستدانتها بفوائد فاحشة من المرابين الرومان .

٨ ـ الحرب الاهلية وديكتاتورية سوللا :

ضمنت الثروات الهائلة التي نهبت بنتيجة الحرب في الشرق تعلق الجنود الرومان بقائدهم سوللا والاخلاص له. أما وقد أنهى مهمته بظفر نادر المثال فانه يستطيع الآن العودة إلى روما ليستلم زمام الحكم من الشعبيين الذين عاثوا وغاؤهم بالمدينة وسفكوا دماء أهلها خلال غيابه . وقد أدرك القنصل سينا الذي أعيد انتخابه للمرة الثالثة الخطر الذي ينتظر حزب ماريوس والشعبيين عامة بعودة سوللا على رأس جيش ظافر وخزينة مترعة بالاموال . فبادر لجمع الجيوش والتأهب للقاء سوللا . بل أراد أن يستبق وصول سوللا إلى ايتاليا بان يلاقيه على الطرف المقابل من البحر الادرياتيكي . الا أن الفتنة تنشب بين صفوف قواته فدفع سينا حياته ثمناً لها . وتبقى مهمة الصراع مع سوللا على عاتق القنصل **كاربو** الذي يتجنب انتخاب زميل جديد خلف لسينا .

لم ينتظر مجلس الشيوخ بالمثل وصول سوللا بل بدأ المفاوضات معه أملًا في تجنب حرب أهلية جديدة . فأصر الاخير الذي كان يعرف ضعف الشيوخ ولا يثق بالتعاون معهم ، على اعادة المنفيين والتعويض عليهم وعليه عن أموالهم التي كان ماريوس قد صادرها . في خلال ذلك انتهت مدة حكم القنصل كاربو ، وتم انتخاب قنصلين جديدين هما سيبيو ونوربانوس . فاعتمد الثلاثة على تأييد السامنتيين لهم ضد سوللا وتابعوا استعداداتهم لمجابهته في ايتاليا . نزل سوللا في برنديزي وتابع مسيره بحذر نحو الشمال متبعاً سياسة تطمين الايتاليين على احترام امتيازاتهم التي حصلوا عليها بموجب قوانين المحامي روفوس ليهدىء مخاوفهم تجاهه [1] . ورغم ذلك حافظ السامنتيون والاتروريون على تأييدهم للشعبيين واشتركوا في

---

(١) راجع اعلاه ص٢٤١ .

الدفاع عن حقوقهم بضراوة . نفذ سوللا إلى منطقة كامبانيا حيث استطاع هزيمة جيش القنصل نوربانوس . وعندما بدأ القنصل الآخر المفاوضات معه تخلت عنه قواته وانحازت الى جانب سوللا الذي انضم اليه عدد من الارستقراطيين بما فيهم غناوس بومبي . اما المعركة الفاصلة التي أنهت الصراع القائم فقد جرت على أبواب مدينة روما وهي معركة **بوابة الكولين** الدموية عندما نجح سوللا في دحر جموع السامنتيين الذين اندفعوا مع فلول حزب ماريوس نحو مدينة روما لانتزاعهـــا من قبضته . وبالتالي سقطت معاقلهم في اتروريا وخاصة مدينة برينيست التي التجأ اليهـــا ابن ماريوس عقب هزيمته الأولى في موقعة **ساكريبورت** أما كاربو فقد هرب إلى افريقيا . وعاقب سوللا بقسوة متناهية كافة المدن التي ثارت وانحازت إلى خصومه . ثم عين نفسه ديكتاتوراً على روما ليبدأ في عملية إصلاح الدولة rei publicae constituendae حسب المخطط الذي ارتآه .

باشر سوللا اعماله في روما بتنفيذ حملة رهيبة للقضاء على خصومه ومعارضيه . فأدرج أسماء المغضوب عليهم في قوائم من لوحات بيضاء اقيمت في الفوروم . ومعنى ذلك أن كل من جاء اسمه في القائمة يعتبر « خارجاً على القانون » ويستحق قاتله المكافأة . ولم تشمل القوائم أسماء الشعبيين وانصار ماريوس القدماء فحسب بل تناولت الاغنياء أيضاً لأن سوللا كان بحاجة شديدة للمال وللاراضي ، لكي يؤمن توطين مائة وعشرين الف جندي حاربوا معه وليكافئهم على خدماتهم . فبلغ عدد الفرسان الذين وردت أسماؤهم في قوائم سوللا الف وستمائة رجل وحوالي أربعين من الشيوخ بيعت ممتلكاتهم بالمزادات العلنية تحت اشراف سوللا وحرر عبيـــدهم [1] .

---

(١) شمل انتقام سوللا رفاة عدوه ماريوس فاخرجها من القبر والقاها في نهر الآنيو .

على كل حال لم تقتصر مذابح سوللا الانتقامية من الشعبيين على من وردت اسماؤهم في القوائم فقط . وما كان ارهابه الكارثة الوحيدة التي نزلت بابناء المدينة ، اذ ان جايوس ماريوس سبقه في البطش باعداء الشعبيين من الشيوخ المعتدلين قبيل انسحابه من روما ، فتم قتلهم ضمن مجلس الشيوخ .

كما تقدم تم تعيين سوللا ديكتاتوراً في أواخر عام ٨٢ بموجب قانون خاص ولمدة غير محدودة . فاستطاع بموجب السلطة المطلقة التي وضعت في يديه والتي ماثلت سلطة الملوك ان يعيد فرض هيبة الدولة ممثلة في مجلس الشيوخ وفي حكومة ثابتة .خاصة وإن اعمال النهب والعنف التي رافقت عملياته الانتقامية قد استفحل أمرها.وحينما خيل اليه أن زمام الامور سيفلت من يديه انقلب إلى إنسان لا يرحم ، يبطش دون تمييز بين عدو أو صديق . أخيراً تمكن من القضاء على المقاومة بعد أن استأصل شأفة الشعبيين وبقايا حزب ماريوس .

بالنظر إلى أن مجلس الشيوخ فقد الكثير من أعضائه خلال عمليات الكروالفر التي جرت على مسرح مدينة روما ، بادر سوللا إلى تعزيز هذا المجلس بادخال عناصر جديدة اليه بلغ عدد أفرادها حوالي ٣٠٠ عضو اختيروا على مايظن من طبقة الفرسان الذين ايدوه ومن أغنياء الايتاليين . فوصل عدد أعضاء المجلس الآن إلى ستمائة عضو . وأعاد للمجلس بموجب مجموعة قوانين كورنيليا Leges Corneliae سلطاته المفقودة. وأصبح بامكان الخزان العشرين الانتساب إلى مجلس الشيوخ بصورة آلية . وبذلك فقد المراقبون سلطة الاشراف على مجلس الشيوخ التي

كانوا حتى ذلك الحين يمارسونها في قبول الأعضاء الجدد الى مجلس الشيوخ. كما حرمهم أيضاً من سلطة اقصاء أي عضو قــد يكون غير كفء . وأعـاد أحياء قـانون اناليس Lex annalis ، وسمح باعادة انتخاب القنصل بعد مرور عشر سنوات على شغله هذا المنصب . أما الحكام القضائيون فزاد عددهم إلى ثمانية حكام . وحدد عدد المقاطعات الرومانيـة بعشرة مقاطعات أثناء تشكيل مقاطعة شمال ايتاليا (جنوبي الالب)[1]، وبذلك أصبح القنصلان والحكام الثمانية يعينون مباشرة بعـد انتهاء فترة السنة من حكمهم في روما لادارة المقاطعات مدة سنـة أخرى . وثابر سوللا على اتباع قاعدة جراكوس في تحديد المجلس للمقاطعات المخصصة للقناصل قبل انتخاب القناصل . وتمتـع القناصل السابقون بحق ممارسة القيادات العسكرية خارج ايتاليا ، إلا أن سلطة الامبريوم التي تمتعوا بها بقيت أدنى من امبريوم قناصل مدينة روما . وزيد عدد المحاكم الدائمة إلى سبعة محاكم . أما حق النقض الذي يتمتـع به المحامون فقد اقتصر الآن استخدامـــه للدفاع عن الاشخاص وفقاً لمبدأ حق المساعدة . ولم يعد يحق للمحامـين أن يعرضوا مشاريـع القوانين التي يرغبونهـا على الشعب قبل أن يوافق عليها مجلس الشيوخ . كما حرم المحامين من شغل المناصب السياسيـــة الأخرى لمدة عشر سنوات بعد انتهاء فترة المحـاماة . وبذلك أصبحت وظيفة المحاماة غير مرغوب فيها من الطامحين . باعادة سوللا حق ممارسة أعمال المحلفين للشيوخ وحرمان الفرسان منهـا يكون قانون جراكوس قدزال من الوجود[2] كما الغى عادة تزويد المواطنين بالقمح .

---

(١) أصبحت المقاطعات الرومانية في عهد سوللا كما يلي : صقيليـة ساردينيا ، كورسيكا ،اسبانيا الساحلية والداخلية ، ماكدونيا ، افريقيا ، آسيا ، الغال الناربونيه، كيليكيا ، ايتاليا الشمالية .

(٢) راجع أعلاه ص ٢٢٠ .

لم يقتصر سوللا في ضربه للتمثيل الشعبي في مؤسسات الدولة في شخص المحامين ، بل تجاوزه امعاناً في تركيز السلطات والامتيازات في يد الشيوخ ، فانتزع من الجمعية المئوية حق اختيار الاشخاص الذين سيتولون سلطة الامبريوم العسكرية وأعطاها لمجلس الشيوخ ، وفرض موافقة مجلس الشيوخ على مشاريع القوانين التي تقدم للجمعية .

بينما كان سوللا منهمكاً في تنفيذ اصلاحاته في أجهزة الدولة ودستورها، حمل عنه الضابط الشاب بومبي مهمة القضاء على آخر جيوب المقاومة الشعبية في صقلية وافريقيا . وأحرز انتصارات مرموقة عليهم . وحينما عاد القائد الجديد من مهمته في افريقيا أصر على السماح له بالاحتفال بظفره في مدينة روما ، على غرار القادة والقناصل الآخرين ، رغم أن سنه آنذاك لم يتجاوز الخمسة وعشرين عاماً ولم يشغل بعد أي وظيفة في الدولة . واضطر سوللا أن يوافق على طلبه بعد تمنع ومقاومة خوفاً من نشوب فتنة قد تشعل نار حرب أهلية جديدة[١] . وتم لبومبي الاحتفال بموكب ظفره في شتاء عام ٧٩ ق . م . وخلع عليه سوللا لقب بومبي « الكبير » تكريماً له .

٩ ـ نتائج ديكتاتورية سوللا ونهاية حكمه :

إذا أردنا أن نحكم على شخصية سوللا الفذة في التاريخ الروماني فلا يمكن أن نصل إلى إذلك إلا ذا استعرضناها ضمن الاطار الذي وجدت فيه . فلقد تمخضت الحروب الاجتماعية عن قائد عسكري وجد نفسه يبرز في خضم مجتمع انهكته الصراعات الطبقية ومزقه تداعي مؤسساته الحكومية وتفسخها . فلم يسمح له طموحه الشديد أن يفلت الفرصة

---

(١) يذكر عن بومبي في هذه المناسبة تهديده لسوللا بالعبارات المأثورة « ليحذر سوللا مني ، وليعلم أن لشمس الصباح عباداً أكثر من عباد شمس المساء ».

السائحة . وما كان عليـه إلا أن ينحـاز إلى أحد الفريقين المتصـارعين وبالتالي أن يبطش بكل قوة بعناصر الفريق المعادي . وعندما يشعر بالملل ينسحب من مسرح السياسة لينعم بملاذ الحياة . وبالفعل أثبت سوللا أن عبقريته كانت عبقرية عسكرية أكثر منها سياسية . فهو على النقيض من جايوس جراكوس أو غـيره من مصلحي السنوات السابقـة لم يأت إلى الحكم ببرنامج سياسي بناء ، بل اعتقد بان المـــال والقوة العسكرية والبطش هي الطريق المؤدي للسلطة . ولم يتورع عن نهب المـال من المعابد والمدن تحقيقاً لغاياته . وفوق هذا وذاك يتجـاهل سوللا مشاكل عصره الاجتماعية والاقتصادية عندما يحاول تعطيل المشاريـع الاصلاحية . ويضحي بالحريات الشعبية تأمينـاً لمستقبله الذي ربطه بمصالح طبقـة الخواص . ولقد فشل سوللا في محاولة اعادة احياء مجلس الشيوخ ، فهو لم يتمكن أكثر من اعادة هذا المجلس الى الوضع الذي كان عليـه من قبل . وهو وضع اثبت مجلس الشيوخ مراراً عجزه عن الاستمرار فيه ، كما أن المجلس والقناصل كانوا لايتصرفون إلا وفقاً لارادة الديكتاتور . أما اصلاحاته الدستورية فانها كشفت عن مهارة الاداري في شخص سوللا أكثر من كشفها عن عبقرية الرجل السياسي . إذ أن معظم اصلاحاته لن يكتب لها الاستمرار أكثر من عدة سنوات . وإن كان لحكم سوللا الفردي من مزايا فقد جاءت في العنصر السلبي في سياسته . فعلى الرغم من محاربته للشعبيين بكل قواه وسعيه الحثيث لمنعهم من العودة إلى الحكم بكل وسائل الارهاب والابادة ، نراه لا يستطيـع تجاهل نتائج الحروب الاجتماعية ، ويضطر للاعتراف للايتاليين بحقوق المواطنة . وقد استفادت شبه جزيرة ايتاليا من انتشار التنظيم البلدي ، ومن وحدة انظمة المدن التي سادت في عهده ، الامر الذي ساهم في « رومنة » ايتاليا وفي تعميم الوحدة

الايتالية . إلا أن بطشه الشديد بالسامنتيين والاتروريين واللوكانيين ، ومصادرة أراضيهم لتوطين جنوده ومكافأتهم خلّف في قلوب هؤلاء المواطنين حقداً شديداً على سوللا المحافظ ونقمة متزايدة على الطبقة الارستقراطية التي يدعمها . وبالفعل تضافرت جهود الايتاليين والشعبيين لانجاح قناصل العام ٧٩ وهما لبيدوس وكاتولوس ، وما أن ينسحب الديكتاتور من مسرح السياسة في نفس العام حتى يهب القنصل لبيدوس للمناداة بالغاء تشاريع سوللا واصلاحاته .

لقد كان مثل سوللا الاعلى في الحكم **نظام الحكم الملكي** ، والسلطة المطلقة التي تستعين بمساهمة الطبقة الارستقراطية وباخلاص الجيش . ولا يتورع سوللا عن ضرب النقود باسمه وتوشيحها بصورته مضافاً اليها لقب الدكتاتور ، وفي ذلك تجاوز صارخ على سلطات مجلس الشيوخ الذي كان ينفرد بحق اصدار النقود . لذلك يمكن اعتبار سوللا من خلال طريقة حكمه ومفهومه للدولة مقدمة لقيصر واوغست وأول مؤسس للكيان الامبراطوري الروماني .

أخيراً لم يمتد تفكير سوللا السياسي إلى المستقبل القريب ليؤمن للدولة الرومانية حكومة ثابتة . بل ترك الدولة لمصيرها الذي سيرسم القادة العسكريون والجيوش المحترفة صورته القاتمة . وكما هو متوقع لن يتمكن القادة المتنافسون من حل خلافاتهم الا باستخدام الجيش والالتجاء للعنف . وهذا ماتم في عهد خليفته المقبل القائد بومبي . مات سوللا عام ٧٨ في داره التي شادها قرب مستوطنات جنوده في منطقة كامبانيا وكان له من العمر آنذاك ستون عاماً . فجرى حرق جثته باحتفالات رسمية اشترك فيها الشعب والدولة واسبغ على جثمانه من التكريم والاجلال مالم يعرفه حاكم روماني من قبل .

مراجع للفصل الخامس

F. B. Marsh, History of the Roman World from 146 to 30 B. C., London 1953.

T. Frank. Economic Survey of Ancient Rome, Vol. I, Baltimore 1933.

R. E. Smith, Failure of The Roman Republic, Cambridge 1955.

G. P. Baker, Sulla The Fortunate, Newyork, 1927.

A. Duggan, King of Pontus, Newyork 1959.

H. Bennet, Cinna and his Times, 1923.

J. Carcopino, la République Romaine de 133 - 44 avant J. - C., Paris 1943.



الفصل السادس

عهد بومبي وقيصر أو عهد القادة العسكريين

١ – بزوغ نجم بومبي بين ٧٨ – ٦٠ ق٠م

انسحب الديكتاتور سوللا من الحكم بعد انتخاب القنصلين لبيدوس وكاتالوس دون أن يترك برنامجاً للعمل السياسي تلتزم به الحكومة الرومانية من بعده . ولعل الوضع السياسي الذي عاصره سوللا ولّد في نفسه اليأس والتعب من الحروب المستمرة ، وافقده الثقة نهائياً بالطبقة الارستقراطية التي ركز جهوده لدعمها واعادتها إلى مكانتها على رأس المجتمع ممثلة في مجلس الشيوخ . والآن عاد الصراع من جديد بعد زوال الديكتاتور سواء على الصعيد الحكومي أم على المستوى الشعبي • فالقنصل كاتولوس كان من أبناء الطبقة المذكورة يتعلق بطبقته ويخلص لها • بينما كان زميله لبيدوس انتهازياً يسعى للتقرب من الشعبيين والعوام ، ويأمل في الوصول إلى الديكتاتورية وفقاً للانموذج الذي ضربه سوللا من قبل •

أما الشيوخ فقد أملوا الخلاص من آثار اصلاحات سوللا الدستورية التي كبلت أيديهم ، والعودة إلى ممارسة نفوذهم كالسابق • ولم يكن موقف المحامين ورجال طبقة الفرسان ليطمح باقل من ذلك . إلا أن الدور الحقيقي في مسرح السياسة الرومانية انتقل منذ مغامرة سوللا العميقة الأثر إلى يد حفنة من الرجال العسكريين الذين دفعت بهم

الاحداث إلى الصفوف الاولى ، فغدى طموحهم ومنافساتهم شغل المجتمع الشاغل ومركز الثقل في التطور السياسي . إذ أن ضعف مجلس الشيوخ والمجالس الشعبية وعجزها عن اخضاع القادة العسكريين من جهة ، ونشوء الجيش المحترف من جهة أخرى فتح الطريق أمام المغامرين الباحثين عن السلطة والثروة لطلب المزيد من المهات العسكرية الاستثنائية التي تعتبر القاعدة الاساسية للنجاح في الحقل السياسي . ولقد اضطرت الحروب الاهلية والاجتماعية مجلس الشيوخ الى الاستعانة بهؤلاء القادة المتفوقين والالتجاء اليهم في الملمات لانقاذ روما والامبراطورية من الضياع . وفي الحقيقة ابصر سوللا مقدماً ماينتظره من مجد وراء مهمته في بلاد اليونان وآسيا الصغرى ، حتى أن ماريوس ينافسه ويحسده عليها . ولسوف يدرك بومبي من بعده قيمة المهات العسكرية الاستثنائية كمعبر اكيد إلى السلطة والحكم .

ثورة القنصل لبيدوس :

كان هنالك شبه اجماع بين الأطراف التي أصابتها قوانين سوللا بالضرر على ضرورة العمل لازالة آثار الديكتاتور السابق واعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه بالنسبة لهم . وبالتالي رأى القنصل لبيدوس في هذا الاجماع وسيلة إلى اكتساب أكبر عدد ممكن من الانصار . ولم يكن أمامه وهو الانتهازي أفضل من اللجوء إلى الديماغوجية باسترضاء العامة في موضوع يمسها في صميم حياتها وهو موضوع اعادة توزيع القمح الذي أوقفه سوللا . فجاء لبيدوس الآن بقانون ايميليا Lex Aemilia مبالغاً في التقرب من الفقراء بأن منحهم القمح مجاناً ، ووزعه عليهم على نفقة الدولة . ثم أخذ يستميل محامي الشعب اليه بانه سيعيد اليهم ما فقدوه من صلاحيات في عهد سوللا . أما مشكلة الاراضي الزراعية فقد ايقظ لبيدوس الفتنة من

انذاك بسوللا . وكان من المتوقع أن يكون خليفة للزعيم ماريوس . ثم عين في عام ٨٣ حاكماً على مقاطعة اسبانيا الساحلية .

إلا أن هزيمة الشعبيين بعد عامين دفعت سوللا لتعين حاكم جديد لاسبانيا طرد سرتوريوس منها فالتجأ إلى شمال افريقيا . واتصل اثناء ذلك بالقراصنة الكيليكيين الذين سيطروا على البحر المتوسط وامتد نشاطهم حتى اسبانيا . وفي عام ٨٠ ق . م يعود سرتوريوس إلى اسبانيا ليرأس ثورة الاسبان اللوزيتانيين . ولم تجد جهود القنصل ميتللوس الذي ارسله سوللا حاكماً على اسبانيا الداخلية للقضاء على ثورة سرتوريوس لأن الأخير كان يتبع في حرب الجيوش الرومانيـة اساليب حرب العصابات . بل ان سرتوريوس يتمكن بجرأة نادرة من الانتصار على خصمه حاكم اسبانيا الساحلية عام ٧٩ والقضاء عليه ، ولقي خليفته عام ٧٨ نفس المصير . وعندما ينضم اليه القائد بربرنا وبقايا أعوان لبيدوس عام ٧٧ يكون سرتوريوس قد أصبح مسيطراً على كافة المنطقة الساحلية ومتمتعاً بنفوذ في المنطقة الداخلية ، يؤازره في ذلك اعضاء حزب الشعبيين فشكل منهم مجلساً للشيوخ واعتبر نفسه الحاكم الشرعي لاسبانيا والمسؤول عن متابعة الصراع ضد اتباع سوللا في روما . تجاه هذا التحدي اضطر مجلس الشيوخ الروماني إلى الالتجاء إلى قائد جديد يستطيع مقارعة سرتوريوس وانتزاع اسبانيا منه . ولم يجد خيراً من بومبي لهذه المهمة ، فيمنحه المجلس لقب قنصل سابق مع سلطة الامبريوم ويضعه على رأس جيش مؤلف من أربعين الف جندي . لم تتمكن حملة بومبي من انتزاع زمام المبادهة من سرتوريوس إلا بعد عامين من ابتدائها الحروب في اسبانيا واصيب بومبي بعدة هزائم رغم تضافر قواته في الحرب مع قوات متيلوس مما اضطره إلى طلب المزيد من النجدات من روما . وكان سرتوريوس يعتمد في الحرب على